إسحاق ابن عمران

مقالة في الماليخوليا

تحقيق
د. عادل العمراني و د. الراضي الجازي

وزارة الثقافة والمحافظة على التراث
المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة

إسحاق ابن عمران

مقالة في الماليخوليا

تحقيق

د. عادل العمراني و د. الراضي الجازي

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون

مقالة في الماليخوليا لإسحاق ابن عمران/الرّاضي الجازي وفاروق العسلي -
تونس : المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 2009
(تونس: مطبعة المغرب للنشر)244 ص ، 24سم - مسفّر.
ر د م ك : 978-9973-49-087-2

خطّ الغلاف: عمر الجمني

سحب من هذا الكتاب 700 نسخة في طبعته الأولى

المحتوى العربي

تقديم

لقد تولّى المجمع التونسي «بيت الحكمة»، على مدى السنوات الأخيرة، إصدار مجموعة من كتب التراث العلمي العربي، وأبرزها موسوعة ابن الجزّار الطبيّة. وها هو اليوم يُتحف قرّاءه بكتاب «مقالة في الماليخوليا» لإسحاق ابن عمران. وتمكن أهميّة هذا المخطوط -الذي كتب بالقيروان في نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) - في أنّه أقدم كتاب عربيّ في الطبّ بإفريقيّة، بل أقدم كتاب في العالم محفوظ كاملا حول الماليخوليا، التي يُطلق عليها حاليّا اسم الاكتئاب. والجدير بالملاحظة أنّ هذا المخطوط لم يُطبع بالعربيّة إلى اليوم ولا توجد منه إلاّ نسخة فريدة بمكتبة الدولة بمونيخ في ألمانيا.

لقد مثّل هذا الكتاب - إلى حدود القرن السادس عشر - ملخّصًا لأهّم معارف القدامى حول الماليخوليا، وشكّل مرجعا للأطباء العرب ثمّ الأوروبيّين من خلال ترجمته اللاتينيّة من طرف قسطنطين الأفريقي الذي انتحله لنفسه. فالكتاب مثال لاستمراريّة الطبّ العربيّ بالنسبة إلى الإرث اليونانيّ وإسهامه في بروز الطبّ الغربيّ الحديث. ولئن لم يخرج إسحاق ابن عمران عن إرث جالينوس في وصفه لأسباب هذا المرض، فقد تفنّن في تفصيل هذه الأسباب وفي إبراز علاقتها بنظريّة الأمزجة السائدة في ذلك العصر.

والملاحظ أيضا خلوُّ الكتاب من أيّ تفسير سحريّ أو غيبيّ للمرض وإبرازُهُ لأهميّة السّند النفسانيّ والمداواة الطبيعيّة والحمية الغذائية واستعمال بعض النباتات الطبيّة. وهي قواعد صحيّة مازالت صالحة إلى اليوم. وبهذه الميزات مثّلت «مقالة في الماليخوليا» نموذجا لبدايات ما سُمّي العقلانيّةَ العربيّة التي بلغت أوجها في القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي).

ويعود الفضل إلى الأستاذين عادل العمراني والرّاضي الجازي في تحقيق هذا المخطوط تحقيقًا علميّا دقيقا، فإليهما جزيل الشكر والتقدير.

رئيس المجمع

عبد الوهاب بوحديبة

ما يستعمل من ذلك الادهان بالزنبق والبان لما فيهما من الحرارة واليبس
اذا كان من السن سن الشيخوخة يغلب عليه طول العمر اليبس مع
البرد فاما المروخات في فصول السنة فينبغي ان يستعمل في كل واحد
منها ما قاوم مزاج الفصل ويخالفه فيمرخ في الصيف بالادهان
البارده مثل دهن البنفسج والورد والنيلوفر وفي الشتا بالادهان
الحارة مثل دهن الخلوق والزنبق والبان وفي الربيع والخريف
بالادهان المعتدلة مثل دهن الخيري ودهن الاقحوان ودهن
البابونج فهذا كاف فيما اردنا في المروخات . تمت المقالة
[illegible] الكتاب [illegible] لقسطا ابن لوقا [illegible] ولله الحمد
[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

[illegible] الماليخوليا

هذا كتاب مختصر وضعه اسحق ابن عمران المتطبب في الدا المعروف
بالماليخوليا وهو الوسواس السوداوي تذكرة على نفسه بما عساه
ان يعرض من النسيان سيما عند دنوه من الشيخوخة التي كان افلاطون
يسميها ام النسيان ، ورحمة لمن ينظر فيه من محبي الطب وابنا
الحكمة . قال اسحق ابن عمران لم ار لاحد من الاوايل في الماليخوليا كتابا
مرضيا ولا كلاما شافيا في هذا المرض الا لرجل من المتقدمين يقال
له روفس الافسيسي وهذا الرجل وان كان وضع في هذا المرض
كتابا فيه مقالتان احتشد فيه [illegible] واحسن [illegible] في
البحث عنه وعن عوارضه وطرقه [illegible]

صورة من الصفحة الأولى من مخطوط «مقالة في الماليخوليا»

إسحاق ابن عمران

حياته وأعماله

تـوطـئـة:

إن الحديث عن حياة إسحاق ابن عمران ليس بالأمر اليسير. وقصّة هذا الطبيب والفيلسوف المشهور يجب أن تخضع بالضرورة إلى مقتضيات علم التاريخ. فالتاريخ هو صورة عن الحقيقة والواقع، وعلى كل دارس أن ينقل الأحداث بكلّ شفافيّة وموضوعيّة.

لذلك، علينا أن نروي حياة إسحاق ابن عمران على هذا الأساس، ونبرز بالخصوص الأحداث المضطربة التي عاشها في هذا القرن الثالث الهجري.

وقد اخترنا تركيز قصّة حياة هذا الطبيب العملاق بالاعتماد على تآليف تاريخية معروفة، يستثاق بها، رغم وجود بعض التناقضات والاختلافات بينها. وسنحاول الاقتراب من الحقيقة في هذا التقديم، وبالخصوص فيما يتعلّق بولادة ابن عمران وكذلك حول الظروف الغامضة التي قتل فيها.

الكتب المعتمدة في البحث:

نذكر المصادر الأساسية حسب تسلسلها التاريخي :

1 ـ ابن جلجل[1] : « طبقات الأطباء والأدباء»

2 ـ ابن أبي صيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء .ج.3. إصدار دار الفكر ـ بيروت .1377 هـ/ 1957 م(ص 58)

3 ـ حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ـ القسم الأول .تونس 1965م.ص.ص 237 ـ 238.

4 ـ ابن عذاري: البيان المغرب (ج.1 ـ ص.122) - دار الثقافة بيروت ـ 1983 م

5 ـ محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين - طبعة دار الغرب الاسلامي - بيروت 1984 ـ (ج3 ـ ص ص 427 ـ 430).

6 ـ الراضي الجازي : مجلة الصيدلي التونسي ـ عدد 17 -سبتمبر 1985 م(ص ص 44 ـ 45)

7 ـ لوسيان لوكلار : تاريخ الطب العربي Lucien Leclerc طبعة باريس 1876 م ـ « Histoire de la médecine arabe » ـ أعيد طبعها بالرباط ـ 1980 م

مراحل حياة إسحاق ابن عمران، الملقب بـ«سمّ ساعة»:

يقول ابن جلجل في تقديم إسحاق ابن عمران: « هو من حكماء الإسلام ممّن سكن المغرب» وهو «أوّلهم»، أي أنه يحتل المرتبة الأولى من أطباء وحكماء افريقيّة المشهورين.

اسمه « إسحاق» -أو اسحق- ويوضّح المؤرخون أنّه «مسلم النحلة» رغم ما يثيره اسمه من اشتباه.

---

(1) هو ابو داود سليمان بن حيان الاندلسي ـ المعروف بابن جلجل - ألف كتابه سنة 377هـ/ 987م. تحقيق فؤاد رشيد ـ طبع مؤسسة الرسالة - 1405 هـ/ 1985م ـ (ص.ص 84 ـ 86).

لا نعرف تاريخ ولادة ابن عمران. ويقول ابن جلجل، وكذلك ابن أبي أصيبعة- إن إسحاق بغدادي الأصل. ولكن سليّم عمّار[1] قال إنه من مواليد مدينة سامرّاء، التي أسسها الخليفة العبّاسي المعتصم سنة 222 هـ/ 836 م. وقد نشأ إسحاق وعاش هناك مدّة زمنية. ومن المتأكد أنه درس الطب في العراق، وتلقى الكثير عن أطباء الخلفاء العبّاسين، أمثال أطبّاء عائلة بختيشوع [2] وغيرهم من أطباء «بيت الحكمة» ببغداد.

وقد كانت شتّى العلوم، في تلك الفترة من الزمن، تشهد ازدهارا وإشعاعا لا نظير لهما في المشرق، ويقال إن بغداد كانت تعدّ من الأطباء ما يتجاوز الألف.

وفي نفس الفترة كانت القيروان، العاصمة الإسلامية لإفريقية وصقلية، تعرف أيضا تطوّرا لا مثيل له، وذلك بفضل أمراء دولة الأغالبة.

دخول إسحاق ابن عمران إلى القيروان

وقد أراد الأمير الأغلبي، آنذاك، استقدام طبيب ماهر من الشرق ليكون طبيبه الخاص. فاختار إسحاق ابن عمران الذي كان حسب ابن أبي اصيبعة « طبيبا مشهورا وعالما مذكورا» .

فمن هو هذا الأمير الذي دعاه إلى القيروان؟

وهنا يختلف المؤرخون.

---

(1) - سليم عمار: Ibn el Jazzar et l'école médicale de Kairouan -Presses de Ben Arous- 1994

(2) - هم أسرة من الأطباء والعلماء السريان النساطرة خدمت الخلفاء العباسيين، منهم جبريل بن بختيشوع الذي كان طبيب الرشيد والأمين، سجنه المأمون ثم أعاده لخدمته، توفي عام 828 ميلادية، له مؤلفات في الطب والمنطق. وبختيشوع بن جبريل الذي توفي عام 870 وكان طبيب الواثق ثم المتوكل والمهتدي.

يقول ابن جلجل (ص 84) : «دخل (إسحاق ابن عمران) القيروان في دولة زيادة الله بن الأغلب[1]، الذي استجلبه (من العراق)، وأعطاه شروطا ثلاثة لم يف له بأحدها». وهذه الشروط هي:

أولا: أن يبعث إليه عند وروده عليه، راحلة تقلّه من العراق إلى افريقية.

ثانيا : ألف دينار لنفقاته وأتعابه.

ثالثا: أن يسلم إليه « كتاب أمان» بخط يد الأمير، يتعهّد بمقتضاه بتمكينه من « الانصراف إلى وطنه» متى أحب الانصراف.

ويقول ابن جلجل: وبدخول ابن عمران إلى القيروان « ظهر الطّب بالمغرب وعرفت الفلسفة».

وكان قدوم اسحاق ابن عمران (من بغداد) حوالي سنة 264 هـ/ 877 م. وفي تلك السنة، لم يكن زيادة الله الثالث يحكم افريقية، بل كان ذلك أثناء عهد ولاية إبراهيم بن احمد بن محمد الأغلب، المعروف بإبراهيم الثاني، الذي حكم القيروان من سنة 261هـ/ 874 م إلى سنة 289 هـ/ 901م [2].

فيكون هكذا إبراهيم الثاني هو الذي استقدم إسحاق ابن عمران إلى القيروان ليكون طبيبه الخاص.

---

(1) وهنا يضيف ابن ابي اصيبعه (ص 56) : وقد تولى زيادة الله الحكم بافريقية من سنة 290 هـ/ 902 م الى سنة 296 هـ/ 908م ثم هرب الى مصر مهزوما امام ابن ابي عبد الله الشيعي الفاطمي.

(2) هو الذي بنى رقادة سنة 263 هـ/ 876 م وفي أخر حياته ارتحل إلى صقلية التي كانت تابعة لولايته وكانت وفاته هناك سنة 289 هـ/ 901 م. واستخلفه ابنه عبد الله، الذي قتل في السنة الاولى من حكمه سنة 296هـ/ 902م. فتولى مكانه ابنه زيادة الله الثالث. ويقال ان هذا الاخير وصل الى الحكم بقتل ابيه على يد خدمه.

وقد أيّد هذا التصحيح التاريخي المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب[1] واستنتج، خلافا لما ورد عن ابن جلجل وكذلك عن ابن أبي أصيبعة، أن الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني هو الذي وجه الدعوة إلى إسحاق ابن عمران للقدوم إلى القيروان .

ويصف ابن جلجل خصاله فيقول: «وكان طبيبا حاذقا متميزا بتأليف الأدوية المركبة، بصيرا بتفرقة العلل، أشبه الأوائل في علمه وجودة قريحته. » (ص. 56)

فلا غرابة إذن أن سمعة إسحاق ابن عمران تجاوزت حدود العاصمة القيروانية، وانتشرت بافريقية.

عالج إسحاق الأمراء، من إبراهيم الثاني إلى زيادة الله الثالث، وكذلك عامة الناس، فأصبح أول طبيب عربي بالمغرب الإسلامي في هذا القرن الثالث الهجري.

يقول حسن حسني عبد الوهاب: «يعتبر إسحاق أوّل طبيب (في افريقية) يستحق هذا النعت بكل ما في معناه من علم واسع وحذق بالصناعة العلمية. وكان يُعْرف إسحاق ابن عمران باسم « سمّ ساعة»، وذلك لنجاعة علاجاته التي تبرأ بسرعة، وهذا ما يؤكده عبد الوهاب، فيفسّر هذه الكنية بأنها « إشارة لما يظهر من سرعة تأثير الأدوية التي كان يصفها للمرضى» (ورقات)[2].

وتكوّنت حول إسحاق ابن عمران مدرسة طبية، وأقبل العديد من الأطباء لتلقي دروسه ومطالعة تآليفه في الطب.

---

(1) ح ج. عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية -ج. 1 (ص. ص: 233-236)- مكتبة المنار-1981-1972-تونس

(2) السَمُّ : هو الاصلاح، حسب «كتاب العين» للخليل بن أحمد، ص 381، مكتبة لبنان، 2004.

وهكذا تتلمذ لإسحاق ابن عمران أطباء مشهورين، نخصّ بالذكر منهم: ابنه علي (المولود بالقيروان) وزياد بن خلفون وإسحاق بن سليمان، المعروف بالاسرائيلي [1] الوافد من مصر بدعوة من الأمير. وكذلك أبو بكر محمد ابن الجزار، عمّ احمد ابن الجزار، ثم أبو سعيد الصيقل الفيلسوف، وغيرهم .

ويستخلص ح .ح. عبد الوهاب من هذا، فيكتب في ورقاته: «وبهذا الاعتبار، يكون إسحاق ابن عمران المؤسّس الأول للمدرسة الطبية في ربوع افريقية»[2]

قصة خلاف إسحاق ابن عمران مع آخر الأمراء الاغالبة، زيادة الله الثالث

بعد تخلّي الأمير إبراهيم الثاني عن الحكم (289هـ/ 901م)، استمر إسحاق ابن عمران في خدمة من خلفه، أي ابنه أبي العباس احمد الذي قتل في السنة الأولى من حكمه - ثم إبنه زيادة الله الثالث[3] الذي حكم ولاية القيروان وافريقية من سنة 290 هـ/ 902م، الى سنة 296هـ/ 908م.

وكانت العلاقات بين إسحاق وهذا الأمير طيّبة وحسنة، والثقة متبادلة.

---

(1) إسحاق بن سليمان الإسرائيلي : الوافد من مصر - هو أبو يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي (المتوفي بعد سنة 341 هـ/ 953 م) وقد عاش نحو المائة سنة .

(2) اشتهرت هذه المدرسة بالخصوص بثالوث من الأطباء، وهم :إسحاق ابن عمران- ثم إسحاق بن سليمان. ثم احمد ابن الجزار فيكون هذا الأخير تتلمذ لإسحاق بن سليمان بصفة مباشرة ولإسحاق ابن عمران بصفة غير مباشرة.

(3) حسب الاستاذ احمد الطويلي (كتاب، حدث بالقيروان، من فتح افريقيا الى سنة 1881 .نشر بيت الحكمة طبع 2009) تآمر فتيين لابي العباس عليه لقتله، واعلما زيادة الله بمقتل والده .وقد كان انذاك مسجونا باذن من ابيه، فكسر قيوده وخرج من السجن . واخذ البيعة له من العمال» (ص. 61) والملاحظ ان زيادة الله أمر بعد ذلك، بقتل وصلب الفتيين غدرا منه.

ويقول ابن جلجل (ص. 85): «وكان إسحاق قد استأذن (زيادة الله) في الانصراف إلى بغداد - فلم يأذن له.» وكان هذا الرفض مخالفا للشروط التي قبلها الأمير الاغلبي إبراهيم الثاني عند استقدامه لإسحاق.

وكان إسحاق يشاهد كل يوم طعام زيادة الله ويرشده في أكله. وبقيت العلاقات بينهما هكذا، حتى ورد يوما على زيادة الله طبيب يهودي من الأندلس، نجهل اسمه. فاستقر بالبلاط وساهم في إبداء رأيه عند مشاهدة الأكل، وأحرز على ثقة الأمير.

يقول ابن جلجل: «فكان إذا قال إسحاق (للأمير): اترك هذا، لا تأكله، قال الإسرائيلي: ننصحه عليك».

ولمّا كثرت الخلافات بين هذين الطبيبين، جاءت القطيعة، وترك إسحاق البلاط الأميري نهائيا.

يقول ابن جلجل: « خرج (إسحاق) إلى موضع فسيح من رحاب القيروان ووضع هنالك كرسيّا ودواة وقراطيس. فكان يكتب الصفات كل يوم بدنانير».

وهكذا بلغ الخبر إلى أهالي القيروان، فصاروا يقبلون على إسحاق. وبعد النظر في دائهم، وتشخيص المرض، يكتب لهم الوصفات الطبية، ويبيع إليهم الأدوية.

وبلغ الخبر إلى زيادة الله الذي كانت غايته الانتقام من إسحاق، وقيل له : «عرضت لإسحاق الغنى»، كما ورد في «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة.

وركب زيادة الله رأسه، فأمر بسجن إسحاق. فتظاهر الناس أمام السجن للتعبير عن غضبهم. وأمام هذا الوضع المتأزم، قرّر زيادة الله إخراج إسحاق من السجن بالليل واستقدمه اليه. فكانت بينهما « حكايات

ومعاتبات»، حتى غضب عليه الأمير، وأمر بفصده من ذراعيه، حسب روايتي ابن جلجل وكذلك ابن أبي أصيبعة، وسال دمه حتى مات. وأمر بصلبه. ومكث مصلوبا زمنا طويلا.

وجاء عن ابن جلجل ان إسحاق ابن عمران قال لزيادة الله في تلك الليلة، حسب رواية لا يمكن إثباتها: «يا مَلَخوني[1] والله انك لتدعى سيّد العرب، وما أنت لها بسّيد، ولقد سقيتك منذ دهر دواء ليفعلنّ في عقلك». والمعروف أن زيادة الله كان سفاحا ومجنونا.

والملاحظ أن ح. ح. عبد الوهاب لم ينقل هذه الرواية، ولكنّه يقول إنه وقع اغتيال إسحاق في السجن، وذلك سنة 294هـ/ 907م. ويضيف أن إسحاق «قد استوطن افريقية التونسية ما يزيد على العشرين عاما» (ص235).

وأما الأمير زيادة الله الثالث، فكانت نهايته بدون مجد ولا فخر. فقد انهزم أمام أبي عبد الله الشيعي الفاطمي الذي أقصاه عن الحكم. وهرب زيادة الله من رقادة بدون أهله إلى مصر، سنة296هـ/ 909م.

ولم يستقرّ هناك، بل هبّ إلى القدس. ومات في بيت المقدس، أو بالرملة، حسب روايات أخرى، ودفن بها، وذلك سنة 299 هـ/ 912م. وأصبح هكذا، وبعد الهزيمة، آخر ملوك دولة الاغالبة.

مؤلفات إسحاق ابن عمران

قبل قدومه إلى القيروان، أي في الفترة التي عاشها في بغداد، وكذلك خلال «حياته القيروانية»، أثرى إسحاق ابن عمران معلوماته في ميدان الطب والصيدلة والفلسفة وسائر العلوم الموسوعية، وألف كتبا ورسائل

(1) مشتقة من الماليخوليا.

معروفة، عددها ثلاثة عشر. وهي مفقودة إلى الآن، باستثناء كتابه في الماليخوليا.

نذكر العناوين، حسب ما جاءت في «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة (ج. 3-ص. 57)

1 ـ كتاب الأدوية المفردة

2 ـ كتاب العنصر والتمام في الطب، وقد نقل عنه ابن البيطار الكثير في «الجامع»

3 ـ مقالة في الاستسقاء.

4 ـ مقالة وجيزة كتب بها إلى سعيد ابن نوفل المتطبب في الإيانة عن الأشياء التي يقال إنها تشفى الأسقام، وفيها يكون البرء، مما أراد إتحافه به من نوادر الطب ولطائف الحكمة.

5 ـ كتاب نزهة النفس (هو في الفلسفة)

6 ـ «مقالة في الماليخوليا»

7 ـ كتاب في الفصد

8 ـ كتاب في النبض

9 ـ مقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته. وهي الرسالة التي كتب بها الى العباس، وكيل إبراهيم بن الأغلب

10 ـ كتاب في البول، من كلام أبقراط وجالينوس وغيرهما

11 ـ كتاب جمع فيه أقاويل جالينوس في الشراب.

12 ـ مسائل له مجموعة في الشراب على معنى ما ذهب إليه ابقراط وجالينوس في المقالة الثالثة من كتاب تدبير الأمراض الحادة وما ذكر فيها من الخمر. (و لعلّه عنوان أخر للكتاب السابق لجالينوس).

13 ـ كلام في بياض المدة ورسوب البول وبياض المني.

ولإسحاق أيضا «كتاب الثمار» ذكره بروكلمان، ولم يرد في « عيون الأنباء». .[1]

وأهمّ كتب إسحاق اثنان:

<u>أولهما:</u> « الأدوية المفردة» الذي كان له تأثير ظاهر في كتب الأدوية المفردة العربية، وخاصة في كتاب «الاعتماد في الأدوية المفردة» لابن الجزار، وكتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» لابن البيطار الذي ذكره في كتابه 186 مرة.

<u>وثانيهما:</u> «مقالة في الماليخوليا»، الذي امتدحه ابن جلجل وقال إن ابن عمران «لم يسبق إلى مثله». وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية، وأنجز الترجمة قسطنطين الإفريقي، في القرن الحادي عشر الميلادي.

وهذا الكتاب، وعنوانه «مقالة في الماليخوليا»، هو الكتاب الوحيد الموجود من بين مؤلفات ابن عمران. وهي مخطوطة بمكتبة الدولة بمونيخ بألمانيا، وتحمل رقم 805 من مجموع.

ولنا اليوم الشرف بتقديم تحقيق هذا الكتاب، مع ترجمته باللغة الفرنسية، وذلك مساهمة منّا في التعريف بتراثنا الطبي العربي التونسي، ومدى تأثيره على تطوّر العلوم الطبيّة وإثرائها، خاصة في عصر النهضة الأوروبية.

---

(1) كتاب الثمار: يقول عنه بروكلمان « انه مقتطفات من مصنفات مختلفة لجالينوس»

تقديم «مقالة في الماليخوليا»
لإسحاق ابن عمران

إن هذا الكتاب هو الوحيد الموجود من مؤلفات إسحاق ابن عمران، وتوجد منه نسخة فريدة في المكتبة الوطنية بمونيخ بألمانيا، في الرصيد العربي تحمل رقم 805- ضمن مجموع يحتوي على 282 صفحة.

ونجد في هذا المجموع ثلاثة كتب وهي:

1 ـ كتاب في البلغم وعلله، لقسطا ابن لوقا[1] - من صفحة 1 إلى ص 89 ب.

2 ـ كتاب في الماليخوليا، لإسحاق ابن عمران - من ص .89 ب إلى ص 120، أي في الجملة: 61 صفحة ـ رقّمنا هذه الصفحات، وجها وظهرا (أ ـ، ب ـ).

3 ـ ثم نجد نسخا لبعض الأيارجات. ويليها «كتاب المولودين»، لحنين بن إسحاق العبادي[2].

ويقول إبراهيم بن مراد[3] إن هذا المجموع توجد منه صورة في المكتبة الوطنية بتونس، ضمن رصيد ح.ح. عبد الوهاب، تحت رقم 18777.

---

(1) قسطا ابن لوقا البعلبكي ـ (توفي سنة 300 هـ/ 912 م) وهو مؤلف وترجمان

(2) حنين بن إسحاق (توفي سنة 260 هـ/ 873 م) ـ وهو أيضا مؤلف وطبيب وترجمان.

(3) في كتابه: «بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب». ص ص 55 ـ 56.

ويضيف أن هذه النسخة كتبت سنة 1171 هـ/ 1757 م، أنجزها الراهب ارا بن الحبيب الشماس إبراهيم، وهو طبيب يكنّى بالصباغ، في دير مار يوحنا بجبل كسروان، بلبنان.

وصف المخطوطة

تحتوي هذه المخطوطة على 61 صفحة، مقياس الصفحة: طولها 14،5 صم وعرضها 9 صم ؛ بكل صفحة 21 سطرا. نوع الخط: سوري. والكتابة جميلة وواضحة، بصفة عامة، باستثناء بعض الكلمات التي حاولنا فهمها. كما توجد بعض إضافات في هامش الأوراق.

يبدأ الكتاب من صفحة 89 ب (ظهرا)، من وسط الورقة. وبعد البسملة، جاء عنوان التأليف، وهو: « مقالة في الماليخوليا» . ثم يكتب المؤلف: «هذا كتاب مختصر وضعه إسحاق ابن عمران[1] المتطبب، في الداء المعروف بالماليخوليا. . .»

وأما في الصفحة الأخيرة للمخطوطة (ص 120 ب)، فقد جاء ما يلي: « فلنختم من ها هنا الكتاب، فانه قد أكثر الخطاب. ولان العسل لا يطيب جدا عند بلوغ التحلي والقصد، إن شاء الله تعالى. تمّ كتاب الماليخوليا والحمد لله رب العالمين».

ومن هنا، يتجلى لنا أن إسحاق يتحدث في البداية عن «مقالة في الماليخوليا» ويغيّر العنوان في الخاتمة، فيتحدث عن « كتاب الماليخوليا». ونحن نفضل أن نسمّي هذا التأليف « كتابا»، نظرا لأهميته وطرافة الموضوع.

و لقد كان لكتاب إسحاق ابن عمران حول الماليخوليا صدى كبير بين معاصريه وتابعيهم، إذ قال عنه ابن جلجل «إنه لم يسبق لمثله». ثم شاع

(1) ورد في المخطوطة : « اسحق »، بدون ألف بعد الحاء - وابن: مكتوب بالألف

ذكره في بلاد الغرب الأوروبي عندما ترجمه إلى اللغة اللاتينية قسطنطين الإفريقي، حوالي سنة 1070م

وقسطنطين من مواليد قرطاج، هاجر إلى ايطاليا وإستقر في دير كاسينو، حيث ترجم العديد من المؤلفات الطبية العربية. وانتحل كتاب الماليخوليا ونسبه إلى نفسه، تحت عنوان: *De melancholia libri duo*. وانتشرت الترجمة اللاتينية للكتاب ودرّست في كلّيات الطب مدّة تقارب الستة قرون. وطبع الكتاب في أنحاء أوروبا، وأصبح مرجعا في موضوع الماليخوليا، وبقي اسم مؤلفه إسحاق ابن عمران مجهولا حتى عصرنا هذا، نتيجة للانتحال.

وقد قارن المرحوم أبو بكر بن يحيى النص العربي لإسحاق بالنص اللاتيني لقسطنطين فاثبت الانتحال، إذ انه وجد النصّين متطابقين، في الجملة، مع إدخال بعض التحريف من قبل المترجم لإخفاء المصدر العربي للمؤلف.

محتوى الكتاب :

يتعرض هذا الكتاب إلى أحد أهمّ الأمراض النفسانية وهو مرض الماليخوليا، الذي نطلق عليه اليوم اسم الاكتئاب. ويشتمل هذا المرض على عديد من الأصناف أهمّها الانقباض الهوسي المسمى أيضا بالاضطراب الثناقطبي (Trouble bipolaire) .

وتنقسم «المقالة في الماليخوليا» إلى كتابين:

- الكتاب الأول: في وصف المرض وأصنافه وأسبابه.
- والكتاب الثاني: في وصف طرق علاجه.

يبدأ ابن عمران بإبراز الحاجة التي دعته إلى تأليف هذا الكتاب، فيقول:

« لم أقرأ لأحد من الأوائل في الماليخوليا كتابا مرضيا ولا كلاما شافيا في هذا المرض إلا لرجل من المتقدمين يقال له روفس الإفسيسي. . » ثمّ يضيف: «فلما كان الأمر في هذا الداء على هذا السبيل من غفلة الأوائل عن ذكره والبحث عنه وعن أسبابه، وخاصة جالينوس، فإنه لم يذكره في كتاب مفرد، وإنما كان ذكره له ذكرا منشورا. رأينا أن نضع هذا الكتاب فيه وفي أصنافه وطريق علاجه، ونسلك في ذلك من الكلام ما كان مَحْضا فيلسوفيا جزل المعاني، وندع الهذْر والاكثار»

ثم يتولى ابن عمران تحديد ماهية هذا المرض موردا التّعريف الأكثر شيوعا وهو أن الماليخوليا «ظنٌّ ما من السوداء والتوحّش متصوّر في النفس لأن ما يظنون أنه حقّ وليس بحقّ». ثم يستطرد مبيّنا التّعريف الذي يراه أنسب لهذا المرض، وهو أنه «خوف ووساوس على النفس يحدث لها الفزع والخوف». وهذه التحديدات وإن كانت في الظاهر متشابهة فهي تحتوي على اختلاف هام وهو أن التحديد الأول يفترض اختلالا في التفكير يدفع المريض لتصور أشياء غير حقيقية بينما يقتصر التّعريف الثاني على الإحساس المرضي بالفزع والخوف. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاختلاف حول التحديد لا يزال قائما حتى يومنا هذا.

بعد ذلك يمرّ ابن عمران إلى تعداد أسباب هذا الداء، فيبدأ بالأسباب التي تحدث قبل الولادة كفساد منّي الأب أو إصابة رحم الأم. ثم يمرّ للأسباب المكتسبة، فيعرض دور الغذاء المكثر من المرة السوداء، وهي المادة التي كان القدامى يرونها السبب في ظهور هذا الداء. بعد ذلك يفرد ابن عمران صفحات كثيرة لتعداد الأسباب الستة الاضطرارية التي يضمن توازنها صحة الإنسان وهي: الحركة والسكون، والنوم واليقظة، والاستفراغ والامتناع، والطعام والشراب، والهواء المتنسّم المستنشق، والأحداث النفسانية. وتشمل هذه الأسباب الستة كلّ جوانب الحياة

ويسمّى تدبيرها «حفظ الصحة». وقد أثبت العلم الحديث ولا يزال أهميتها في علاج عديد حالات الاكتئاب.

ثمّ أورد ابن عمران وصفا مفصّلا للأسباب النفسانية التي توقع في الماليخوليا، فساهم بذلك في تدعيم فكرة أن هذا المرض يطرأ أيضا خارج اختلال الأمزجة. ومن أهم هذه الأسباب الإفراط في التنسك والمبالغة في البحث الفكري وإجهاد النفس وكذلك فراق المحبوبات، كفقدان قريب محبوب أو ضياع ثروة أو تلف شيء ثمين لا يمكن استعادته، كل ذلك يزرع في النفس الحزن ويخرجها إلى مرض الماليخوليا الخطير.

وبعد ذلك يمر ابن عمران إلى تحديد أصناف هذا المرض، فلا يخرج عن التقسيم الذي وضعه جالينوس له، وهو تقسيم ثلاثي حسب موقع انصباب المّرة السوداء:

1. الماليخوليا الكامنة في الرأس.

2. الماليخوليا الصاعدة من أسفل البدن إلى الرأس.

3. النوع الشراسيفي.

و لئن لم يضف ابن عمران شيئا جديدا لهذا التصنيف، فإنه قد اعتمد تصوّرا جديدا للأخلاط المسؤولة عن كل صنف من المرض، حيث تكون الأخلاط الأربعة قادرة بالقوة على إحداث الماليخوليا. فأدخل هذا التوزيع الجديد، على عكس الاعتقاد السائد آنذاك، مبدأ تسبب البلغم في الماليخوليا، فساهم في تجاوز المأزق النظري الحاصل عن عجز الأطبّاء على تقديم تفسير «فيزيولوجي» مقبول لتعدد أعراض هذا المرض.

أما من الناحية السريرية، وهي وصف علامات المرض وتشخيصه، فيمكن أن نعتبر إضافة ابن عمران من أهمّ الإضافات وأجملها على

الإطلاق. فهو يورد سردا شاملا للأعراض العامة للمرض، وكذلك للتي تلحق كلّ صنف منه. ويلح ابن عمران على تخفّي المرض وتستّره عند بداياته وعلى أهمية معرفة طباع الناس قبل مرضهم حتى يتسنى للطبيب اكتشاف نزول المرض بهم بسرعة. ويقول ابن عمران:

«فإنّ الطبيب إذا عرف أخلاق الإنسان وهو صحيح، قدر أن يعرف نزول هذا الداء به بسرعة، ويفهم مقدار تمكنه منه ومقدار ما بلغ من نكايته في نفسه وبدنه. ومثال ذلك أنّ إنسانا لو عرفناه بالطبع حرقا سحيقا متهوّرا كثير الكلام سريع الغضب، ثم رأيناه قد سكن وصمت وطال سكونه وأبطأ غضبه، دلّنا ذلك منه على فساد شجايا نفسه ومرض نفسه وحلول هذا الداء به. وكذلك لو كان بطيء الجواب سكينا جبانا، ثم رأيناه أسرع الجواب وهذى في الكلام وأظهر شجاعة وإقداما، علمنا على المكان أنه قد أصيب بهذا المرض».

وتعتبر هذه المقاربة بحقّ إضافة نوعيّة لدراسة مرض الماليخوليا. فعلى عكس التصور السائد، فإن الحالات المتخفية للاكتئاب أكثر شيوعا من الحالات الحادّة. وهي لا تقل عنها خطورة ولا ضررا. وتندرج هذه الحالات المتسترة فيما يسمّى اليوم بالفرنسية *le spectre bipolaire* ولا يزال الجدل إلى حدّ الآن متواصلا بين الأطباء النفسانيين حول أهمّيتها وطرق علاجها.

ثم يحاول ابن عمران تفسير علامات كلّ صنف من الماليخوليا بالرجوع إلى نظرية الأمزجة مظهرا براعة ووضوحا يدلانّ على عمق نظره وتمكّنه من موضوع بحثه، وإننا لا نجد مثل هذا الإلمام إلا عند كبار الأطباء أمثال الرازي وابن سينا وابن ميمون.

وأما الكتاب الثاني، فيفرده ابن عمران لمختلف أنواع العلاج لهذا الداء، فيميّز بين العلاج العام الذي يهدف منه إلى «إخراج المرّة السوداء

بالإسهال وتعديل الأسباب السّتة التي تنقلب فيها الناس» وبين العلاج الخاص الذي يهمّ عضوا بعينه. وفي هذا السياق، يورد ابن عمران تعريفا جميلا لنوع من العلاج النفساني هو العلاج المعرفي، فيقول:

«وجب أن تقابل الأعراض النفسانية بإزالة تلك الظنون الكاذبة والتخيّلات الفاسدة والخطرات الرديئة، من الألفاظ العقلية اللطيفة، والحيل النظرية والنُظر المقنعة بما يزيل ما وقر في النفس وانحبس في الخلد من المعاني الباطلة التي لا حقيقة لها»

وإن أورد ابن عمران في كتابه العديد من الأدوية المفردة والمركبة لعلاج الماليخوليا، فإن أغلب الوسائل العلاجية المعتمدة هي وسائل طبيعية وتشتمل على الحمية والحمامات والرياضة وكل الطرق المعتمدة لحفظ الصحة. وهذه وسائل لا زالت معتمدة إلى الآن في مداواة هذا المرض، حتى وإن تغيّرت الخلفية النظرية لذلك. كما تجدر الإشارة إلى أن أكثر من 50 دواء ذكرهم ابن عمران لا يزالوا مستعملين في الميدان الطبي، وإن كانوا في ميادين غير الطب النفسي، مما يشير إلى ثراء الترسانة العلاجية عند القدامى. وممّا يدعم أيضا قولنا هذا أن عددا كبيرا من الأدوية التي من أصل نباتي أعيد ترسيمها بدساتير الأدوية الحديثة (الفرماكوبي) نظرا لاكتشاف خصائص علاجية جديدة لها.

وفي الختام، يمكن حصر إضافات هذا الكتاب في النقاط التالية:

1. على المستوى التاريخي: مثّل هذا الكتاب ملخصا لأهم معارف القدامى حول مرض الماليخوليا وشكل مرجعا رئيسيا لتعلّم الأطباء العرب ثم الأوروبيين (عبر ترجمته اللاتينية) وذلك إلى حدود القرن السادس عشر. وهذا مثال على التواصل والإضافة التي شكلها الطب العربي بالنسبة للإرث اليوناني وإسهامه الفريد في بروز الطب الغربي الحديث.

2. على المستوى الطبي السريري قدّم الكتاب وصفا جميلا وواسعا لمرض الاكتئاب وأعراضه. وإن كان ابن عمران لم يخرج عن حدود إرث جالينوس في تصوره لأسباب هذا المرض، فهو قد تفنن في تعداد هذه الأسباب وعلاقتها بنظرية الأمزجة السائدة في ذلك الوقت وساهم هكذا في تطوير الطب النفسي.

3. على المستوى السوسيولوجي: نلاحظ خلاء هذا الكتاب من أي تفسير سحري أو غيبي للمرض العقلي، فكان نموذجا لبدايات ما سمّي بـ«العقلانية العربية» التي بلغت أوجّها في القرنين الثالث والرابع هـ/ التاسع والعاشر م.

وقوبلت «المقالة في الماليخوليا» باستحسان كبير عبر القرون، ففي القرن 10م امتدح ابن جلجل الكتاب قائلا إن ابن عمران «**لم يُسبق إلى مثله**». وكتب عنه الباحث الألماني شيبرغس (H. Schippergcs) في سنة 1967 إنه كتاب نموذجي من حيث تأثيره في الميدان المعرفي الطبنفسي. وهذه شهادات عبر العصور تدلّ على أهمّية كتاب الماليخوليا.

الخـــاتـــمة

لقد اعتمدنا في بحثنا هذا النسخة العربية الوحيدة الموجودة في مونيخ بألمانيا، ولم نتمكن من مقارنة هذا النص الفريد مع نصوص مخطوطات أخرى، راجين أن نكون قد وفّقنا في وضع نص مطابق للتأليف الأصلي لابن عمران، وساهمنا هكذا في إبراز تراثنا العربي التونسي، وذلك بمناسبة الاحتفال بمدينة القيروان، عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة 2009 وباصدار هذا الكتاب ـ الوحيد المتوفر لدينا لابن عمران، نكون قد حققنا حلما منتظرا من جميع المؤرخين وأصحاب الاختصاص.

وختاما، نتقدم بالشكر الجزيل إلى المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» ورئيسه الأستاذ عبد الوهاب بوحديبة، الذي حثّنا على القيام بهذا البحث والتحقيق، وقام بنشره في المجمع.

الدكتور عادل العمراني

طبيب مختص في الطب النفسي
مجاز في علم الاجتماع

الدكتور الراضي الجازي

دكتور في الصيدلة
عضو الأكاديمية الدولية
لتاريخ الصيدلة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

مقالة في الماليخوليا

هذا الكتاب مختصر وضعه إسحق ابن عمران المتطبب في الدّاء المعروف بالماليخوليا[1]، وهو الوسْواس السوداوي. تذكرة على نفسه بما عساه أن يعروه[2] من النسيان سيما عند دنوّه من الشيخوخة التي كان أفلاطون يسمّيها أم النسيان، ورحمة لمن ينظر فيه من مُحبّي الطب وأبناء الحكمة.

قال إسحق ابن عمران لم أقرأ لأحد من الأوائل[3] في الماليخوليا كتابا مرضيا ولا كلاما شافيا في هذا المرض إلا[4] لرجل من المتقدمين يقال له روفس الإفسيسي. وهذا الرجل وإن كان وضع في هذا المرض كتابا فيه مقالتان احتشد فيه بجميع عقله وأحسن وأجاد في البحث عنه وعن عوارضه وطريق معالجته. فإنه إنما خص بصناعته /90 و/ صنفا واحدا

(1) الماليخوليا هي المصطلح الطبّي للاكتئاب، وهي كلمة مركبة من أصل يوناني تعني المرّة السوداء. درج أغلب الأطباء العرب على تسمية هذا الداء بالمالنخوليا واختار ابن عمران تسميته بالماليخوليا.
(2) في الأصل: يغروه.
(3) في الأصل: الأوايل.
(4) في الأصل: لا.

من هذا المرض، وهي العلّة الشراسيفية[1] وألغى ذكر صنوفه الباقية. إلا أنه محمود ممدوح بما فعل من وضعه كتابه لأن من أتى بأيسر شيء من الصواب ممّا ينتفع به، فاضل ممدوح كمن قد أتى به على الدوام وبلغ الغاية وإن كان قد قصر عن المراد. فلما كان الأمر في هذا الداء على هذا السبيل من غفلة الأوائل عن ذكره والبحث عنه وعن أسبابه، وخاصة جالينوس، فإنه لم يذكره في كتاب مفرد[2]، وإنما كان ذكره له ذكرا منشورا. رأينا أن نضع هذا الكتاب فيه وفي أصنافه وطريق علاجه، ونسلك في ذلك من الكلام ما كان محضا فيلسوفيا جزل المعاني، وندع الهذْر والاكثار. إذ كنا إنما نخاطب بقولنا فيه أنفسنا ومن تمسك بالحكمة واستضاء بنورها وتردّى بحليتها. وبالله العصمة والتوفيق ومنه استمدّ التأييد والتسديد على بلوغ ما أريد، انه خير معين.

قال إسحق ابن عمران إن اسم الماليخوليا لم يقع بالحقيقة على معنى هذا الداء وإنما وقع على سببه الأدنى، وهو المُرّة السوداء. فأما نفس الداء فإنّما تعرف معنويته بالصفة والنعت وذلك أنه[3] مرض يحلّ في الجسم وتلحق أعراضه وأضراره للنفس.

فأما حلوله من الجسم في فم المعدة في[4] الصنف الشراسيفي منه أو في نفس جوهر الدماغ في صنوفه الآخر.

فأما أعراضه في النفس، فالخوف والحزن، وهما شرّ عوارض النفس وأسقامها، لأن الحزن حدّه فقد محبوب ما، والخوف حدّه توقع مكروه ما.

---

(1) نسبة لِشراسيف. مُفردها شرسوف، وهو الطرفُ اللين من الضلع مما يلي البطن وتُجمع شراسفُ وشراسيف. وورد في اللسان أن الشرسفة هي سوءُ الخلق. وتسمى هذه العلة أيضا بالمراقية.

(2) ترك جالينوس (129-201) أكثر من مائتي كتاب ورسالة في كل مجالات المعرفة الطبية

(3) في الأصل: أن.

(4) في الأصل: و.

وأما كيفيّة /90 ظ/ كونه وصفته يتهيأ لنا ذكرها باستقصاء إذا نحن ذكرنا وقدمنا الأربعة المطلوبة التي حدّها: معرفة آنية الشيء هل له وجود ومقر، ثم معرفة ماهيته أي ما هو وما حده، ثم معرفة كيفيته أي مرض ما صنفه ونعته. ثم معرفة كمّيته أي ما سببه وعلته.

ولما كان مرض الماليخوليا بغيتنا وغرضنا ذكره في كتابنا، وجب علينا منه عن هذه الأربعة التي من عادة الحكماء طلبها في كل مرض، بل في كل شيء يلتمس علمه.

فنقول إن مرض الماليخوليا إذا حدث، يعرفه كل الناس من الكآبة التي تلبس أصحابه والحزن الذي يغلب عليهم والخوف الملاحف. فلندع البحث عنه لظهوره ونعبر إلى ذكر ماهيته وحدّه. فنقول إن حدّا لمرض الماليخوليا هو ظن ما من السوداء والتوحّش متصوّر في النفس لأن ما يظنون أنه حقّ وليس بحقّ، هذا هو الأغلب عندي في حدّ هذا السقم.

وقد يمكن أن يحدّ بحد آخر يكون لخوف ووساوس على النفس يحدث لها الفزع والخوف، فهذا هو حدّ داء الماليخوليا الصحيح.

فأما كيفيته فهو تفسير هذا الحد والكشف عما يبنيه، وسببه وهو أن بخار السوداء إذا اتصل بالدماغ وتراقى إلى موضع العقل منه وأظلم نوره وشوّشه وأفسده حتى يمتنع من إدراك مدركاته وأكسبه خواطر وظنونا فاسدة وتخيّل الأمور تخيلا رديئا(1) وأحدث في القلب أحزانا ومخاوف رديئة هائلة، واتصل بالبدن لمتابعة النفس بالضّرر بدوام السهر والهزال والحزن، وأضعف الأحوال الطبيعية عن أن تجري مجراها التي كانت تجري عليه في حال الصحة والسلامة.

---

(1) في الأصل: ردي.

فأما سبب كوْن هذا الداء والعلة في حدوثه، فقد يكون على صنوف كثيرة: أولها من المزاج الأصلي يلحقه الفساد من قبل المني، وأما من مزاج دم الطمث للأمر الذي يغدوا اللبن. فأما من نفس مزاج الرحم الذي يتخلق فيه الجنين إذا كانت هذه قد غلب / 91 و/ عليها سوء مزاج الحرارة واليبوسة أو البرودة واليبوسة، فأفسد ذلك جوهر البدن الطبيعي وجعله مستعدا للوقوع في هذا الداء الخبيث، أما في جميعه وأما في نفس مزاج الدماغ إذا كان جوهره[1] يابسا وقواه السيّاسة من الخيال والفكر والذكر كدره مُلتاثة، لتغذيتها من نفس جوهر الدماغ تغذيا رديئا أسود غير جيّد، ولا صافي نقي.

وأما ما يعرض للبدن والنفس من بعد الولادة من الأحداث التي تكسبهما وتفيدهما مزاجا رديئا يجمع المرة السوداء فيهما ويخرجهما إلى هذا الوصب، فالأسباب كثيرة طويلة. أحدها وهو أقواها كثرة الطعام والشراب والإغراق فيهما وترك تنقية البدن وتعاهده وتوزيع الأسباب الستة اضطرارية عليه بالتفصيل والعدل[2]: الحركة والسكون، والنوم واليقظة، والاستفراغ والامتناع، والطعام والشراب، والهواء المتنسّم المستنشق، والأحداث النفسانية. فإن هذه الستة فيها يتقلب الناس أيام حياتهم وبها ومنها تكون صحتهم وأمراضهم. فإن هذه الأسباب إذا حرفت إلي جهة تغني الأبدان الفضول وتزيد ما فيها من الأخلاط، كانت أكبر الأسباب لإحداث هذا المرض العظيم المسمى الماليخوليا.

على أن فساد عين الغذاء وميله إلى توليد الدم الجاف، مثل العدس ولحوم الظباء[3] والأرانب، أو المولّد للدم العكر الغليظ مثل التمور

(1) في الأصل: جوهر.
(2) وردت الجملة في المخطوط (بالتفصيل العدل و) والصواب: بالتفصيل والعدل.
(3) في الأصل: الظبا.

ولحم التيوس والبقر والجزور. وأما ما يولد غذاء غليظا مالحا مثل عظيم السمك المالح والجبن القديم والقدّيد والمكسود واللحم الممقور والسمك الممقور والخلع وأصداف البحر العظيم الحرفي سيّما إذا أمقر ليلة في الملح، ويسمى ما دبّر من هذا السمك على هذه الصنعة الغريب. أو ما / 91 ظ/ منه يولد دما حارا ينقلب قريبا إلى المُرة السوداء، مثل القنبيط والكرنب والباذنجان والكرفس الرطب، والعسل والجوز والفستق والبُطم وصنوف الناطف[1] المعمولة من العسل والتمر والبُني بالجوز والفستق وحب الصنوبر والشاهدانج وما هو لهذه مشبه. كل هذه إذا أدمن أكلها وثوبر عليها، جمعت المرة السوداء في البدن وأوقعت في داء الماليخوليا.

واحفظ عني شريطة أشرطها في هذا الموضع من هذا الكتاب، إن كل داء من الأدواء المزمنة الطويلة مثل النقرس والقولنج ومرض الماليخوليا، أو من الحادّة التي تلزم الإنسان في كلّ سنة أو في مدة أقل على نوائب وأدوار معلومة وشرح ونظام ثابت مثل البرسام[2] وحمّى الغبّ وذات الجنب والرمد الحار وما أشبهها، فليس إنما يعرض من قبل الخلط ويرطب البدن بسببها فقط دون أن يضعف العضو الذي تنصب إليه المادة الرديئة، كان ذلك في دماغ أو أذن أو عين أو لثّة[3] أو لسان أو حلق أو رئة، وفي الجملة في أي حشا أو أي عضو من الأعضاء كان المرض، أو في المفاصل أو في جلدة البدن الحاوية عليه. مثل ما يعرض من القروح الرديئة والقوابي والجرب أو أورام أو جدري أو حصبة أو قروح حمر،

---

(1) الناطف: نوع من الحلوى كالرغوة البيضاء، سُمّي به لأنّه ينطف أي يقطر قبل استضرابه أي ابيضاضه. المنجد: 816 .

(2) البِرسام: التهاب يعرض للحجاب الذي بين الكبد والقلب، ويعرف أيضا بالجرسام. فارسي مركب من بُرْ وهو الصدر وسام وهو الالتهاب، ولا يهذى فيه بل العلة الدماغية التي يهذى فيها إنّما هي السرسام. محيط المحيط ص 35.

(3) في الأصل: لته.

على أن العضو ربما كان ضعفه من نفس الحيلة والتركيب أو من عظُم المرض وتفاقمه وغلبته عليه حتى يفسد مزاجه وتضعف قواه وتهيئيه لقبول الآفات بسرعة.

على أنّا وجدنا أكثر الأسباب وأقواها في ضعف الأعضاء كثرة حرارتها وذكا الحس فيها وحدتها. والعضو إذا اتفق فيه أن يكون ذكيّ الحس بالطبع، حار المزاج، /92 و/ أحس مثل تكون المرض واحتياطه نحوه واقتضى نزوله وإن لم يأنِ بنزوله بل جذبه إليه مثل جذب المحاجم للدم باستكراه، مثل ما يرى عليه حال علل هذه سبيلها أعني النقرس والقولنج وداء الماليخوليا، خاصة الذين أصحابهم يجدون أشياء[1] في أبدانهم في كل وقت ويحسّون أعراضا في أنفسهم ولما هي بالحقيقة، بل أنما هولها لهم وصوّرها في أوهامهم ضعف أدمغتهم لكثرة حسها الجاذب لبخار المرة السوداء لها، المظلم لنور[2] عقولهم، والمانع لها من النظر إلى الأشياء بحقيقة ماهيتها. بل أنفسهم الناطقة ترى الأشياء المحبوبة من الإخوان والقرابة بغيضة وتنفر من الأشياء الأنيسة المألوفة وتدعى من النظر إليها حتى أنها ترى الأشياء الصحيحة الوجود ذات الثبات والمقر بعكس[3] ما هي عليه بالحقيقة. وتنظرها من مرآة ترى الجميل قبيحا والحميد رديئا والخير شريرا.

ولما كان مرض الماليخوليا يعُمُّ ضرره للنفس والبدن معا، جاز أن تكون أسبابه أسبابا تمرض البدن، وأسبابا تمرض النفس. فقد قلنا آنفا أن أسباب مرض الماليخوليا من جهة الأسباب الجسدانية فسد المزاج في البدن أو في الدماغ والامتلاء وترك تنقّية الأغذية الرديئة والمولّدة للمرّة السوداء.

---

(1) في الأصل: أشيا.
(2) غير واضحة في النص.
(3) في الأصل: تعكس.

ونحن نزيد في ذلك، فنقول إنّ سكنى البلد الحار جدّا واليابس جدّا والبلد البارد اليابس الذي هو مختلف غير لازم لنظام ولا جاري على سنن واحد، بل هواه مثل هواء الخريف، بأن سُكانها تجمع المرة السوداء في الأبدان وكذلك وجدنا سكنى[1] البلد الذي تحويه البطائح[2] والبقاع والآجام والغياظ والبحيرات العطنة والبلدان التي في الهوائيات والأودية، فإن سكنى[3] هذه الأماكن تمنع في الأبدان التحليل وهوائها[4] / 92 ظ/ مُنْخنق مُشْرب بالعفونة، غير نقي ولا صاف. فهي لذلك تجمع وتكثر الفضول في الأبدان وتُخرجها على طول المدّة إلى مرض السوداء المخوّف وهو الماليخوليا.

وكذلك قطع عادة ما[5] كان يستفرغ من البدن دفعه يخرج إلى هذا السقم الخبيث، مثل: عادة الفصد والحجامة، والتعرق في الحمامات، وترك الرياضة المعتادة وترك العادة، وشرب الدواء المسهل والتقوى على الإسهال أو بالدواء المقيئ. كل ذلك يولّد في الأبدان ويملأها فضولا إذا هي تقادمت، فسدت واستحالت، فصارت مرة سوداء.

وكذلك إدمان شرب النبيذ الأسود العفص البشع الكريه الرائحة على الإدمان، يكاد أن يولد المرّة السوداء الماليخوليانية، فبسببين:

أحدهما إن غذاه إنما هو ذو عكري قليل، غلظ أسود، فهو لذلك وربما كان سبب هذا الداء، لأن النبيذ إنما يعطى البدن من الدم تغذية بقدر لونه وقوامه الخارج في الزجاجة سواء سواء.

---

(1) في الأصل: سكنا.
(2) في الأصل: البطايح.
(3) في الأصل: سكنا.
(4) في الأصل: هواها.
(5) في الأصل: أن.

والسبب الآخر إن دوام جنايته على العقل بسكره المترادف وتوالي ترقي بخاره الأسود الرديء المتكاثف وإفراط قرعه للذهن وتذهيله للعقل ممّا يدعو إلى إضعافه وتهوين فعله ويُكسبه ضعفا عن التفكير وفشالة عن تمييز الأمور بإحكام، ويجعل الدماغ بيسره رخوا فاسدا بما يعوقه به من سمو بخاراته إليه كل وقت ويفنيه فساد مزاج بعده للوقوع في داء الماليخوليا بسرعة.

وكذلك رأينا النبيذ الحار القديم إذا لوزم وثُوبِر على شربه، ينكأ قُوى[1] العقل ويُلهب الدماغ ويقرع الذهن ويحدث في البدن حرارة محرقة حتى يضعف فعله، ويتهيأ له الوقوع في هذا المرض أو يَتْلُف ضرورة بحرارته الرديئة. وقد رأينا شراب النبيذ بكثرة، المنقطعين إليه صبوحا /93 و/ وغَسوقا[2] على طول المدّة، ويُبْتلون بالوقوع في هذا السقم وفي غيره من الأمراض العظيمة، مثل الرعشة والفالج والسُكات وسوء ما يتبعهم من الهضم الرديء وتولّد الكيموس التي في أبدانهم بكثرة. بل قد ذكر جالينوس أن شرّ الأمراض وأقتلها وأعظمها، شركة المرض الحار العارض للنبيذ بين المُتْعِبين لأبدانهم، لأنه إنما يتكوّن من كيموسين متضادين، أحدهما بلغم نيّ والآخر مرّة صفراء حديثة رديئة الكيفية. والمرض إذا تهيأ أن يجمع فيه هذان الخلطان، فهو قتّال خبيث كما عليه الحال في الحمى المسطرطارس[3]، فإنها من المرة الصفراء المتعفنة خارج العروق، ومن البلغم المتعفن داخل العروق. فإنها خبيثة جدا قتالة وقلّ من ينجو منها، وذلك من شجيّة الخلط البلغماني النيّ أن يطوّل المرض لأنه إنما ينضج بعد مدة أطول قليلا قليلا.

---

(1) في الأصل: قواء.

(2) في الأصل: غيوقا وهو غلط.

(3) الأغلب: اراسسطراطس كما وردت في «أصناف الحمّيات» لجالينوس، المقالة الأولى، الفصل السابع. وهي نوع من حمّى الثلث.

والخلط المُرّي[1] من شجيّته أن يبيد القوة ويحللها بسرعة بحيث أعراضه الكائنة معه والأخطار العظيمة التي معه. فإذا اجتمع الأمران لم يتهيأ للمريض النقاء من وجهين: أحدهما أن المرّة الحارة لا تدع القوة تستريح ولا تسكن لمجاهدتها بحدّتها وخبث أعراضها. فمدّة المريض ضرورة تقصر، إما بلقاء الحياة وإما بلقاء الموت. والبلغم لا يُمْكن أن ينضح بسرعة المدّة في المدّة القصيرة التي تحمل المرض، لحاجته إلى طول الزمان حتى ينهضم شيئا فشيئا، فهو وإن كانت أعراضه سهلة على طول المدّة. وهذا الاعتدال في هذا الباب هو خير إن شاء الله تعالى.

ومن أعجب الأمور في داء الماليخوليا وتكونه أن وجدنا الأسباب المتضادة تحدثه. وذلك أنّ وجدناه يعرض لمن لا يكثر الطعام والشراب من المتفلسفين المُنْبَتِلين، فإنهم يصومون النهار ويسهرون الليل، 93/ ظ/ فيَقِلُ الدّم في أبدانهم وقلة الدّم تدعو إلى فساده واستحالته إلى المرة الصفراء. فإذا تطاول ذلك وأزمن وإمتدّ، فيُنْبت ماديته ونداوته الغذيّة وصار عكرا غليظا سوداويا وأخرج إلى هذا المرض، وهذا شيء قد رأيناه مرارا كثيرة.

وأرى أنا قد بالغنا في ذكر الأسباب المُحْدثة لداء الماليخوليا في مضرته للجسم من جهة الغذاء، فبقى علينا أن نستقرئ الأسباب الضرورية الستة وكيف يحدُث بالماليخوليانيين مرضهم من تضييع حُسْن التدبير بها وترك استعمالها على ما ينبغي. فإن في التحيُّف في استعمالها ما أخرج إلى هذا الداء وسهل الوقوع فيه ممّن هو مستعد له. فقد قدمنا شرح أسبابه آنفا، أنه يعرض من باب الغذاء من جهة كثرته والتّملُؤ[2] منه، ومن جهة الإقلال منه، ومن جهة رداءة جوهره وفساد غذائه. وأخبرنا من جهة

(1) في الأصل: المراي.
(2) في الأصل: التملي

الاستفراغ والامتناع، أنه يعتري كثيرا من قطع عادة الاستفراغ بغتة، كان الاستفراغ طبيعيا أو كان بالمهنة والصناعة. وأخبرنا بأمر الهواء من جهة البلد المسكون وزمان الخريف، وأخبرنا بنكاية السهر وإصارته إلى هذه العلة بذكرنا قبيل الإقلال من الطعام.

ونحن نقول إنّ كثرة الترفه ودوام السكون والنوم، يسهّل الوقوع في هذا المرض لما يلحقه من اجتماع الفضول وتكاثف المواد في البدن. والفضول إذا كثرت وغرزت في الجسم، فسدت على طول الزمان وانتقلت إلى المرة السوداء وسهّلت الخروج إلى داء الماليخوليا. وغير منكر ولا مدفوع أن كثرة الحركات وتوارثها تلهب البدن وتُفْني رطوباته وتملأ أبخرة دخّانية تستحيل عن قرب إلى المرة السوداء.

وقد رقينا إلى هذا الموضع بمقالنا في أسباب مرض الماليخوليا من الأسباب الجسمانية وبقي /94 و/ علينا أن نذكر السبب المحدث له في النفس من جهة العوارض والآلام النفسانية.

فنقول: للنفس عوارض تنقلب عليها في كلّ وقت من سخط أو رضا أو جنون أو فزع أو حياء أو زَمَع أو ما يشبه ذلك، وهذه عوارض للنفس الحيوانية خاصة.

فأما عوارض نوع النفس الناطقة، فمثل الفكر القوي أو الحفظ والدراسة والبحث والإحالة[1] والفحص عن معاني الأمور أوالتوهُّم أو التَّظني أو التخيّل أو الرأي المصيب أو الرأي[2]. فإنّ كلّ هذه الأحوال التي بعضها قوى وبعضها أعراض، إذا تعمّقت[3] النفس نحو واحد منها

(1) في الأصل: الإخالة.
(2) الكلمة في المخطوط غير واضحة، قد تكون أيضا رديء.
(3) في الأصل: تغمقت.

أو دانت عليه كثيرا ما يخرجها إلى الداء المعروف بالماليخوليا، ويسهل لها الوقوع فيه بسرعة.

فإنا نجد كثيرا من النسّاك والصالحين يقَعون في الوسواس السوداوي بكثرة خوفهم من الله وفزعهم من عقابه أو من شدّة تشوّقهم إليه، حتى أن ذلك يستولي على النفس ويغلب عليها، فلا يكون لها كلف ولا شغف ولا لهج ألا تذكره ومراقبته جلّ وعزّ. فيقعون في مثل ما يقع فيه العُشّاق من القلق والهَيَمان، حتى يفسد أعمال النفس وأفعال الجسد جميعا، إذ كان البدن يتبع النفس في أفعالها والنفس تتبع البدن أيضا في أحداثه.

فأما المُنْكَبّون[1] على قراءة الكتب الفلسفية أعني كتب الطِبّ وكتب المنطق وكتب النظر في جميع الأشياء وكتب الناظرين في أصول الحساب وعلمه المسمّى باليونانية الأرثماطيقى. والنظر في علل الفلك والكواكب وهو علم التنجيم المسمّى باليونانية الأسطرنوميا[2]. والنظر في علم الهندسة والمساحة ويسمّى علم الخطوط بالعربية، ويسمّى بالرُّومية الجومطريا. فأمّا النظر في علم التأليف الذي هو النغم واللحون / 94 ظ/ الذي يسمّى باليونانية الموسيقى، فإن هذا من علم النفس لأن النفس مُستخرجتها ومُستنبطتها وعلمها في النفس مَرْكوزٌ كالذي حكى جالينوس عن أفلاطون الفيلسوف، إنّا إنما نذكر في عقولنا فنعلم الحكمة تذاكيرا. يريد أن النفس إنما تذكر بتعلم العلم وهي مرتبطة بالجسم، ما كانت تعلمه قبل أن تركب في الجسم وهي عالم العقل. فإنهم والله أعلم، قريبون من الوسواس السوداوي لكثرة الإجالة والتفكير وشدّة البحث والتمييز، لأنهم بمثابرتهم واتعابهم خواطرهم، وأسفهم على ما يفوت

(1) في الأصل: المكبون.
(2) غير واضحة وهي الأسطرنوميا.

عقولهم من درك البرهان المسمّى لديهم أفودكسيس[1]، وبلوغ الحقيقيات واستخراج الكلام المستحسن المأخوذ من المعنى المسمّى بالرومية سولوجسموس وهي صحة الفكر مع الخبر، بحزنهم ذلك وتوقدهم في مرض الماليخوليا.

ولما هو عند أنفسهم كذلك، فكيف بمن أفضت به الحال منهم وأصارته إلى هذا المرض الخبيث بكلال الذهن وفشل النفس وضعف الفكر والخاطر وما يداخل عقولهم من التعب، كما قال أبقراط[2] في المقالة السادسة من أفيديميا[3] «إنّ تعب النفس فكرة النفس»[4]. كما أنّ التعب الجسماني يوقع في أمراض صعبة أيسرها الإعياء، كذلك التعب النفساني يوقع في أصعب الأمراض وأشرها وهو مرض الماليخوليا.

فأما فراق المحبوبات، فمثل من ثكل ولده أو مات بعض حبائبه أو تلف منه شيء نفيس فاخر عظيم الخطر لا يتهيأ كسب مثله في كل وقت، مثل من تضيع له كتبه التي منها علمه من الحكماء، أما بأن تحترق بالنار أو تذهب بالغرق أو يسلبها منه أحد. ومن يذهب منه ماله من التجار، الذي لا يُطمع في كسب مثله. كل واحد من هؤلاء بداخله حزن يرْمَضُه، وهمٌّ يكمده /95 و/ حتى يخرجه ضرورة إلى مرض الحزن والوسواس الذي هو الماليخوليا.

فإنّ كلّ هؤلاء الحزانى والذين ذكرناهم قبلهم، من الكلفين بالغمّ المؤثرين للتعب النفساني، إنما يوقعهم في مرض الماليخوليا الوهم والحزن الذي يدخل أنفسهم والسقم الذي ينكأ عقولهم. فكما أن صحة

---

(1) كلمة من أصل يوناني Apódeixis ومعناها البرهان.

(2) يعتبر أبقراط (460 ق م- 370ق م) أب علم الطب والواضع لقوانينه.

(3) هو من أهم كتب أبقراط Epidémies.

(4) والمقصود هنا أن التفكير هو تعب النفس.

النفس الحكمة وبلوغ البرهان وإدراك الجهالة، كذلك سقمها حَبْسُها عن إدراك الحق والبرهان ونيْل العلم وشرفه، والوقوع في خساسة الجهل ونذالتها. وعملها مثل ما أنّ جمال النفس بالعدل وقبحها بالجور كما قال جالينوس. فكل هذه الأمور الذي عددنا من الأسباب الجسدانية والأسباب النفسانية المحدثة لمرض الماليخوليا وهذه الأسباب التي ذكرناها، هي أسباب أوائل ومبادئ جنسية في إحداث الماليخوليا.

ذكر أصناف الماليخوليا وضروبه

فينبغي أن نذكر أصنافه وضروبه ومن أي المواد يحدث كل صنف من صنوف المرة السوداء، ليتم ذكرنا لأسبابه وعلله وتصحّ القسمة وتتمّ الأبحاث الأربعة المطلوبة في كلّ أمر من الأمور، وهي الآنية والماهية والكيْفية والكمّية.

إنّ مرض الماليخوليا ثلاث أصناف: صنف في فم المعدة والشراسيف وصنفان في الدماغ، أحدهما يتولّد في خاصة نفس الدماغ والآخر يتولد في جميع البدن ويصعد من الأسافل، أعني من القدمين والساقين إلى نفس الدماغ.

فأما الذي يتولد في نفس الدماغ فقد يكون على صنفين: أحدهما يكون معه حمّى حارة أكثر ما يعرض في علّة البَرْسام[1] المسمى باليونانية أفرانيطس[2]. وهذه الصنف يكون من مرّة صفرة قد أخذت في الاحتراق، ولم تبلغ الغاية في الاسوِداد ولا في سوء المزاج التي للمُرة السوداء في

(1) والصواب هو السرسام: هو ورم أغشية الدماغ. علامته حمّى قوية وهذيان واحمرار العين جدا وكراهة الضوء. التنوير في الاصطلاحات الطبية لأبي منصور ابن نوح القمري ص 52.

(2) أفرانيطس مؤخوذة من اليوناني *phrenîtis*. يسميها ابن سينا قرانيطس (القانون 2 ص76).

طبيعتها. ويتبعه توَثُّب وسفاهة والنظر إلى أشخاص /95 ظ/ سود أو أشياء يتخيّلها أمامه، وما ثمّة[1] شيء منها بالحقيقة.

والصنف الآخر يكون على نوعين، منه صنف يكون من المرّة السوداء الطبيعية إذا غلبت على مزاج الدماغ وأقبلت غير جوهره، ويسمى هذا الصنف من الوسواس السبعي[2]، لأن أصحابه يثبون وثوب السباع ويعطون من النجدة و[3] الأقدام والقوة ما تحكي أحوالهم به أحوال السباع في هذا الباب. وهذا الصنف عسير البرء وصعب المعالجة.

والصنف الثاني يتولد من المرّة السوداء الفاسدة التي هي هزلة عكر الدم، وهي الكيموس الأسود، وهي التي لم تنضج فتصير مرّة سوداء حقيقة. وسبيله سبيل الصنف الآخر الذي يصعد إلى الدماغ وكونه من مرّة سوداء مطلقة مثل ذلك، ويتولد عن جميع الأخلاط إذا احترقت فانقلبت إلى المرة السوداء. وعلاجه سهل ما لم تتقادم، فيتمكن من الدماغ ويصير له كالمزاج المستوي.

وأصحاب هذه العلة إذا تمكنت منهم لم ينكروا من أحوالهم شيئا لزوال مزاج الدماغ الطبيعي السليم وتعقب المزاج المرضي الغريب مكانه، بل يعتريهم من الدهاء والمكر والجريرة ما لا ينقادون للنهي عن خطأ أخطوه أو سوء ظن ظنّوه أو سوء أثرها، لأن الصواب فاتهم بما غلب على العقل من بخار المرة السوداء.

وكما أنّ الشمس التي هي سراج العالم ومصباحه الأعظم، يمتنع من الفيض بضوئها وانتشار نورها على العالم إذا غشيها الدخان والغبار

(1) في الأصل: تم.
(2) كما يطلق أيضا على هذا الصنف اسم المانيا من اليوناني *mania* أي الجنون. أنظر ابن سينا (القانون 2 ص101).
(3) ساقطة في الأصل.

وبخار الأناتين[1]، فإنّ ذلك يكدرها ويظلمها حتى يفقد الناس الانتفاع بها. كذلك[2] العقل، إذ تصعد إليه بخار المرّة السوداء منعه من إشراق نوره وإظهار بهجته الذي هو العالم والصواب الحق، وشوشه وخلط عليه حتى يريه الأشياء بخلاف ما هي عليه.

وقد رأينا هذا /96 و/ الصنف من الماليخوليا والصنف المترقي من أسفل البدن إلى الدماغ إذا عرض كثير الخفاء[3] والاستتار، لا يكاد يأبه له محشى من الأطباء لجهتين: أحدهما اختلاف أخلاق الناس في أصل طباعهم، وإن الخبرة بأخلاق الناس واحدا واحدا غير منكر الوقوف عليه إلاّ على طول المصاحبة وكثرة المعاشرة، بعد أن يكون المطبب كثير التفقد والتأمل والمعرفة بخلائق الناس ومزاجهم وهيآتهم. فإنّ الخبرة بالحال الطبيعية تعين في تعرف المريض والدرك له في باب العلاج معونة ليست باليسيرة.

فإنّ الطبيب إذا عرف أخلاق الإنسان وهو صحيح، قدر أن يعرف نزول هذا الداء به بسرعة، ويفهم مقدار تمكنه منه ومقدار ما بلغ من نكايته في نفسه وبدنه. ومثال ذلك أنّ إنسانا لو عرفناه بالطبع حرقا سحيقا متهورا كثير الكلام سريع الغضب، ثم رأيناه قد سكن وصمت وطال سكونه وأبطأ غضبه، دلّنا ذلك منه على فساد شجايا نفسه ومرض نفسه وحلول هذا الداء به. وكذلك لو كان بطيء الجواب سكينا جبانا، ثم رأيناه أسرع الجواب وهذى في الكلام وأظهر شجاعة وإقداما، علمنا على المكان أنه قد أصيب بهذا المرض.

---

(1) أناتين: جمع نتن.
(2) في الأصل: لذلك.
(3) في الأصل: غير واضحة.

وقد وجدنا روفس الطبيب الواضع لكتاب الماليخوليا، أكثر في المقالة الأولى من كتابه من ذكر الأعراض والأحداث التي تصيب أصحاب الماليخوليا، حتى أنه بعد أن أطال الكلام وأكثر الإطناب فيما يعرض لواحد واحد منهم، قال لما قطعه: فقد أثبتنا في مقالنا هذا من ذكر الأعراض التي تعرض لأصحاب الماليخوليا على ما أن أحسن القارئ لكتابنا فهمها، قدر أن يفهم كلّ عارض يعرض لأصحاب هذا الداء ممّا لم نذكره في هذا الكتاب.

فدلّ الحكيم رُوفِسْ /96 ظ/ بقوله هذا أن أعراض أصحاب[1] هذا المرض تكاد أن لا تبلغ مداها ولا يوصل إليها، ليس ذاك لأنّ أعراض المرة السوداء إذا غلبت على البدن خفيّة، ولكن سبيل ما عرض في النفس من الأسقام خفيّ لخفاء جوهر النفس وعُسْر وجدانه وخفاء تعرّفه اختيارات النفس والوقوف على وزن ما لها من جودة التفكير ورداءته، وصحّة التخيل وقبحه، وقوة الحفظ وضعفه، ووَساقَة العقل في الجملة ووساقته وضعفه وفَسَالته، وكذلك في أخلاقها وتفننها فيها.

فإنّ هذا كله من الاختلاف والتفنن ما أوقع الحيرة على حذاق الأطباء وليس عليهم معرفة هذه العلة باختلاف أعراضها هذا. على أنّ روفس الحكيم إنما كان في ذكر الصنف من مرض الماليخوليا الشراسيفي وفيه وضع كتابه، ولكن لروفس أن يحتجّ ويقول إنّ كلامي في صنف واحد من الماليخوليا مرتبط متوشّح إلى الصنفين الباقين، [وإن كلامي في هذا الصنف أيضا إنما أشرت به إلى الصنفين الباقين ضم][2] في الأعراض التي ذكرت والمداواة التي وصفت.

(1) في الأصل: أصحاب أعراض. أصلحناها لسياق العنى.
(2) الجملة مابين المعقوفين منسوخة في الحاشية.

كذلك أيضا نحن صانعون متشبهون به فيما يفعل ، لأن ذكر[1] الأعراض في الماليخوليا الخاص بالدماغ يحيط ويشتمل على الصنفين الآخرين من مرض الماليخوليا الصاعد من أسفل البدن إلى الدماغ والصنف الشراسيفي الكائن في فم المعدة. ونحن مستعدون لذكر أعراض هذا الداء بعد أن نستوفي القسمة في تصنيفه إن شاء الله تعالى.

وأمّا الصنف الثالث من مرض الماليخوليا المسمى الشراسيفي، فحدوثه يكون من المرّة السوداء إذا كثرت في جميع البدن وانصبت في فم المعدة. وانصبابها في فم المعدة يحدث في النفس والبدن ضررا عظيما جدا. وأمّا ما يحدث في النفس بجوار فم المعدة من القلب، فالحزن والفزع الدائم من توقع / 97 و/ الموت.

فأما الحزن، فيخرجهم إلى بعض الأحبة وشأن الأصدقاء والتفكر في الأشياء بخلاف ما للفكر أن يجول فيها، وذلك أنّ الضرر الذي ينال الدماغ والعقل في هذه العلة لشيئين: أحدهما لمقابلة فم المعدة للدماغ، تدعو إلى اشتراكه معه في نازلته وبليته بما يتصاعد ويسمو من المرة السوداء إلى الدماغ في كلّ وقت ليلا ونهارا. وإذا[2] كان الدماغ سماء[3] لجميع البدن وخاصة لفم المعدة قابلا لبخاراته التي تجتاز إليه في حال الصحة، أي بخارات كانت حارة أو باردة أو رطبة أو يابسة، فكم بالحري من حال المرض النازل في فم المعدة من المرة السوداء أن يفسد العقل ويدله[4] الذهن[5] لما يسمو إليه من بخارات المرة السوداء في الليل والنهار.

---

(1) في الأصل: ذكرى.
(2) في الأصل: إذ.
(3) في الأصل: سماا.
(4) هكذا في الأصل ولعله يذله.
(5) في الأصل: الدهن.

فقد ذكر أبقراط في أفيديميا[1] أن فم المعدة إذا كان حارا بالطبع، [ميّل أخلاق النفس إلى سرعة الغضب والخفة والسخافة وزعارة الخلق كما يفعل القلب الحار المزاج سواء[2]. حتى أنه زعم أن البدن يكون في من فم معدته حارا بالطبع] مهزولا مُنْصَدِر العروق، متمرز الدم لفساد جوهر الغذاء عند انطباخه في معدهم بحرارة مزاج معدهم المفرطة.

والآخر قيل من توسط القلب بين فم المعدة والدماغ، إذا كان القلب هو الذي يبعث إلى الدماغ بتغذيته روحا حيوانيا يبثه في لفايفه وتجويفاته، فيتهضّم ثم ويتهذب ويجود فيصرف عكره وأغلظه وأكدره إلى توليد الحواس الخمس. وينصرف ما هو ألطف من ذلك إلى تغذية وتوليد القوة العقلية السياسية الثلاثة التي هي الخيال والفكر والذكر، التي من أجلها اشتق الروح التي في الدماغ اسم النفس المنطيقية.

وما بقي من كدر ذلك الروح الغاذي ينصرف في توليد الحركة الاختيارية التي في مؤخر الدماغ. فليس إذا بعجب ولا ممتنع أن يألم العقل لألم الدماغ ضرورة إذا كان مستمدا لقوام جوهره من الروح الحيواني المنبعث من / 97 ظ/ القلب إلى الدماغ. فهذا ما تصنعه المرة السوداء التي تنصب إلى فم المعدة في هذا الصنف من مرض الماليخوليا الملقب بالشراسيفي في النفس من النكاية والضرر.

فأما ما تفعله في البدن، فهو أن قوام البدن والمهيأ لحياته هي التغذية، وليس تفعل التغذية في البدن شيئا إلا بأربع: القوة الطبيعية أعني القوة الجاذبة، والقوة الماسكة، والقوة الهاضمة، والقوة الدافعة. وسيدة هذه القوى كما قال أسقليبوس ومتممة أفعالها والمحكمة للقلب عين الغذاء إلى عين الأعضاء هي القوة الهاضمة، لأن الجاذبة إنما

(1) في الأصل: ابديميا.
(2) في الأصل: سوا.

تورد الغذاء على المغتذي، والماسكة إنما تحبسه مدة ما حتى ينهضم. والدافعة إنما تدفع فضل الغذاء ورديئه[1] الذي استغنت عنه الهاضمة فتنقيه لأن لا حاجة بها إليه.

فليس قصد المرة السوداء المنصبة إلى فم المعدة الفاعلة للصنف الشراسيفي من الماليخوليا إلاّ الإضرار بأحوال الهضم في المعدة ونواحيها أعني منع القوة الهاضمة التي في المعدة عن تكميل الهضم وإفسادها جوهر الغذاء. ولما كان الأمر جاريا في الهضم للغذاء هذا المجرى من تنقيص فعل القوة الهاضمة التي في المعدة عن تكميل الهضم وإفساد عين جوهره وترديئه[2] كيفيته، أوجب ذلك أمرين من الضرر:

أحدهما إدامة المرض وتصعيبه، إذا كان ما ينصب من المرة السوداء يمنع تجويد الهضم وصلاح ما يتصاعد إلى البدن ورداءة الهضم وفساده يعوق ما يتصاعد إلى البدن عن أن يلحقه إلا وهو فاسد رديء لا ينتفع به البدن. ويكون هذا البلاء مترادفا لأن المرة السوداء[3] تكفّ عن السيلان لأن مادة الغذاء لا تدعها تنقى[4] ولا تفنى من موضع /98 و/ تولدها ولا الغذاء بجودة جوهره، فيختلط بها فيعفن عليها الدوام بهطالها وانصبابها في المعدة. ولذلك عسر برء[5] هذا الداء من الصنف الشراسيفي.

والضرر الثاني أن دوام فساد الهضم في المعدة يحدث ضربين من الضرر، أحدهما أن أكثر الغذاء الذي لم يواتي الهضم يتولد منه رياح غليظة ونفخ يعسر انحلالها وانفراجها، حتى أنها ترقّق وتمتد ما دون

(1) في الأصل: ورديه.
(2) في الأصل:ترديه.
(3) اضافة لسياقة المعنى.
(4) في الأصل: تنقا.
(5) في الأصل: برو.

الشراسيف من الجانبين معا، وينزل منها شيء إلى المعا الأجوف الكبير[1] المسمى قولون فيمنع الزبل من الانحدار والنزول.

والذي يصيبهم من يبس طبائعهم، فهذا السبب أعني باعتراض الريح وتشبثها[2] في مسلك الرجيع هو من أقوى الأسباب في صعوبة أمراضهم، حتى أنّ الرياح فيهم ربما قلبت الغذاء من أسفل إلى المعدة إلى فوقها حتى يتجافى عن أن يترسب ويلصق بقعرها، فيكون ذلك أيضا من أقوى الأسباب وأكبر العون على تعطيل الهضم وإفساد النضج.

والضرر الآخر إنّما يحدث في الغذاء من الفساد من قبل سوء هضمه، بهذه الأسباب تدعو إلى تأكيد ضعف المعدة حتى أنّها على طول الزمان تقبل جميع ما يتولّد في أبدان أصحاب هذه العلة من مرة صفراء أو بلغم لما يلحق من الهضم بقدر طبائع الأغذية في أنفسها وطبائع الأعضاء ومزاجها واحدا واحدا. فإنّ بعضهم ربما انصبت في معدته مرة صفراء، وبعضهم بلغما، وبعضهم ينصب إلى معدتهم مرة صفراء وبلغم جميعا. وذلك كما يحسب ما يتفق أن يتولد في البدن من فضول المآكل والمشرب على طول الزمان.

وقد أنّا قد بلغنا غرضنا وبغيتنا من تصنيف مرض الماليخوليا، وينبغي أن نذكر أعراضه التي تلحق صنفا صنفا منه والأعراض / 98 ظ/ العامة على كلّ صنوفه وجملة القول في المرض كلّه.[3]

---

(1) في الأصل: الكثير.

(2) في الأصل: تشبها.

(3) يقول ابن سينا: إن السوداء الفاعلة للمالنخوليا إذا كان دمويا كان مع فرح وضحك، ولم يلزم عليه الغم الشديد، وإن كان من بلغم كان مع كسل وقلة حركة وسكون، وإن كان من صفراء كان مع اضطراب وأدنى جنون، وكان مثل المانيا mania، وإن كان سوداء صرفا كان الفكر فيه كثيرا، والعادية أقل إلا أن يحرّك، فيضجر ويحقد حقدا لا ينسى. (القانون 2 ص107).

ذكر الأعراض اللاحقة لكلّ صنف من الماليخوليا

فنقول أنّ الأعراض العامة لأصحاب الماليخوليا من أي الأصناف كان، دوام الكآبة والحزن والفزع ممّا لا يفزع ولا يدعو، وحديث النفس والتفكير الدائم في غير سبب يوجب التفكير، وإخطار أشياء بالفكر ممّا تردع وتهوّل ليست لها معاني أصلا.

نعم ويجدون في أحواسهم إحساسا بأشياء ليست بشيء. فمنهم من يرى بين عينيه صورا شنعة مذعورة وسودا وغَبَرًا. كما كان دِيُوقِلِسْ[1] يرى في مرضه من هذا الداء سودانا يريدون قتله وزمّارين وصنّاجين يضربون ويرهجون في زوايا بيته. ومنهم من يتوهم أنّ لا رأس له كمثل ما رأيناه قريبا بمدينة القيروان. فإنّا ثقلنا رأسه بقلنسوة عملناها له من رصاص، وجعلناها على رأسه في محل الخوذة[2]، فحينئذ صحّ عنده أن له رأسا، وكذلك حكى روفس أنه رأى ذلك.

ومنهم من يسمع مثل خرير الماء، وقرع الرياح وعصفها، وأصوات مهولة في أذنه، وطنينا لا ينقطع ليلا ولا نهارا. وكل ذلك ليس منه شيء، إنما هو حسّ كاذب.

ومنهم من يشّمُ أراييح[3] منتنة من كلّ شيء بسبب فساد شمه وبطلان صحة حاسة شمه. ومنهم من يبطل ذوقه للأشياء اللذيذة حتى أن منهم من لا يلتذ بطعم الغذاء ومنهم من لا يلتذ طعم المآكل وذلك لفساد مذاقه وبطلان صحة إحساسه.

---

(1) قد يكون المقصود هنا هو ديوقلس الكرستي أشهر طبيب يوناني بعد أبقراط وهو مكتشف الداء الشراسفي كما قد يكون ديوقلس السيرقوصي.

(2) في الأصل: الخودة.

(3) جمع الجمع لريح. محيط المحيط ص607.

ومنهم من يحسّ بدنه خشنا بأكثر ما هو. ومنهم من يظن أنّ بدنه من خزف كما ظنّ ذلك الفاخراني الذي اعتل بهذا السقم. ومنهم من يفسد مع ذلك ظنّه وفنطاسيه[1]، مثل من كان يهرب من المشي تحت السماء خوفا من وقوعها عليه، /99 و/ ويقول في ظنه إن الله الممسك للسماء يعيى فيرسلها على العالم فيهلكون[2]. ومثل هذا كثير يعرض لهم، لا[3] يكاد المتأمل للعوارض والمترصّد للعلامات أن يضبطها إذا هو صرف عناية البحث منه إلى ذلك.

وفيها أيضا عارض يعمّهم وهو أنّهم من أشدّ خلق الله حرصا لطلب المعالج لهم، يذللون[4] أنفسهم له، ويبذلون له الرغائب[5] من أموالهم. فإذا هو أتاهم وأجابهم إلى المعالجة، لم ينقادوا له ولم يطيعوه، وهذه خاصة بأصحاب الماليخوليا موكلة لازمة. فهذه الأعراض التي لا تفارقهم أصلا، العامة لهم من جهة النفس. وأما من جهة في أبدانهم، فإنهم مهازيل كثيرو[6] السهر. فهذه الأعراض العامة لأصحاب أمراض الماليخوليا التي لا تكاد أن تبارحهم في أنفسهم وأبدانهم.

وأما الأعراض التي تخص كلّ واحد من أصناف الماليخوليا، فمنها ما هو عام لصنف صنف منها ومنها أن ما يعرض ويطرأ البعض دون البعض. فالأعراض التي تلحق الصنف من الماليخوليا الذي يعتري من خاصة الدماغ، فالسهر ووجع الرأس وكثرة لمع العينين واللحظ بالجفون أحيانا وبكثرة الطرف[7] بكثرة الضرب أحيانا وجفاف أنوفهم.

---

(1) فنطاسيه تعريب للكلمة اليونانية phantasia وهي الخيال.

(2) هذه استعارة من جالينوس الذي يتحدّث عن أطلس.

(3) لا: اضافة لسياقة المعنى.

(4) في الأصل: يدللون.

(5) في الأصل: الرغايب.

(6) في الأصل: كثيرة وهي غلط.

(7) طرف بعينيه: حرك جفنيها. محيط المحيط ص 548.

ومنهم من يُكثر الطعام فيكون شرها رسّا، فإن هو أمسك عن الطعام لحظة تكاد نفسه أن تَنْطَف وتزهق. ويحضرهم من الأعراض الرديئة ما لا قوام لهم به لغليان المرة السوداء بهم. ومنهم من تختل بشهوته ويقلّ رزّه وتقوته من الطعام والشراب ويبغضونه البتة، حتى أنّهم إن أكلوا أضرّهم ذلك وأن لم يأكلوا أضرّهم. وهذه الطبقة منهم أسوء[1] حالا لأن الأبدان منهم تجدب وتهلس وتبلى بسرعة وقلّ ما يعيش من كان كذلك.

والذين يأكلون وإن كان كثرة الغذاء لهم ضررا لزيادته في مادة أمراضهم، فإنهم /99 ظ/ أصلح حالا لأنهم يرغبون غذاء أبدانهم وخصبها. فإن بقيت عليهم بقية كانت زيادة في مادة المرض، كانت الطبيعة أو مهنة الصناعة تقدر على نفي ذلك وصرفه عنهم.

وكذلك الصنف من الماليخوليا الذي يعرض من ترقي السوداء من أسفل البدن إلى الدماغ، تلبسه من الأعراض ما يلبس هذا الصنف الذي يعرض في خاصّة الدماغ سواءً سواءً. ويزيد عليه أنه إنما كان يكثر عليهم الأحزان والفزع والخوف والأعراض الماليخولانية الوقت بعد الوقت، لأنه إنما يتصاعد إلى أدمغتهم من المرة السوداء بحسب ما يجتمع في البدن أولا فأولا.

فأمّا الصنف الشراسيفي من صنوف داء الماليخوليا، فإن الأعراض التي ذكرناها بدْيا تعمهم وتزيد فيهم ما يجدون من التزقق والتمدد في بطونهم من الرياح النافخة السوداوية. وربما وجدوا امتلاء وتزققا في ظاهر أبدانهم حتى تكاد تنفتق وتنشق، وربما وجدوا حيرة وثقلا في رؤوسهم، وربما قلبوا رطوبة حامضة سوداوية[2] لكثرة فيض المرة السوداء فيهم على فم المعدة. وقد رأيت ذلك أبرأ جماعة منهم وأكثر

(1) في الأصل: اسو.
(2) في الأصل: سوداية.

تليينهم من يبس بطونهم بأعراض رياح السوداء في مسلك الزبل من أمعائهم.

ومنهم صنف ترزم به الكآبة والفتور ومحبة الخلوة والظلمة والبعد من الناس. ومنهم من يحب الاستراحة إلى المواضع القاسية الفسيحة ويحبّ الركوب والنّزه والبساتين وسماع السِمَاع[1] ومحادثة الناس. فإن هو انفرد وخلا بنفسه شفي على الهلكة وساوره من عوارض العلة ما لا قوام له به. ومنهم من يأخذه بالنوم، ومنهم من يكثر بكاؤه، و[2] منهم من يكثر ضحكه. ولكلّ واحد من هذه الأعراض سبب عنه تكون في هذا المرض. على أنّ هذه الأعراض تعرض /100 و/ كثيرا للواحد فالواحد.

فأما الذين تدوم كآبتهم وفتورهم ومحبة الخلوة والظلام والتفرد من الناس ومن خلطتهم، فإن السبب فيه يجف البخار على الروح الحيواني والقلب وغلبة الخوف من توقع المكروهات وإحداث بخار أسود في الفنطاسيا، وهو قوة الوهم، وظلمة وسدف حتى تقبل بأشياء مكروهة، ويتوهم أمورا رديئة ولا ثمّة[3] مكروه ولا مخوف.

وأمّا من أحب منهم المواضع الفيّاحة والاستراحة إلى مجالسة الناس والتنزهات وسماع النغم الحسنة، فسبب ذلك فيه قلة رداءة[4] السوداء التي سببت علتهم وإرتقاء البخار إلى الفكر وجنايته على العقل بأكثر من إحراقه واضراره بالقلب. ولذلك كان برئهم أسرع وعلاجهم أسهل.

---

(1) السِماع هو الغناء وكل ما يلتذّ به السامع من الأصوات. محيط المحيط ص438.
(2) في الأصل: ومن منهم.
(3) في الأصل: لاثم.
(4) في الأصل: رداوة.

وأما من يكثر منهم النوم، فالسبب فيه ضعف القوة الحساسة وابتلاها وانغراقها ببخار المرّة السوداء، والمرّة السوداء فمن فعلها النوم في الماليخوليانين والسهريين منزلتين إن هي غليت بنفس جوهرها حتى تغرق الدماغ بكثرة بخارها أسبتت ونوّمت، وأن هي فعلت بمزاجها بأن تغدو أن تكون في طريق الاحتراق أو قد تكامل احتراقها، فإن كان احتراقها قد تكامل وصارت مرة سوداء مَحْضَة وكانت طبيعية فهي تفعل سباتا ونوما. وإن كانت في طريق الاحتراق فهي تجفف الدماغ وتلدغه وتعرضه برداءة[1] مزاجها وتفعل السهر، فعلى هذا يجري مجرى النوم والسهر من المرة السوداء في مرض الماليخوليا وفي غيره.

فأمّا من يكثر بكاؤه منهم، فهو من كل خلط السوداء التي به، الخلط الذي في طريق الاحتراق الرديء وكان حرقه كثيرا. فإن بكى، هو لا[2] يكثر لقرص البخار ونخسه لأدمغتهم وتخويفه واذعاره[3] لهم.

وأما من كان ضحكه كثيرا، / 100 ظ/ فهم الذين مرّتهم السوداء ليست بمتكاملة الرداءة وأبدانهم خصيبة من الدم الجيّد المزاج. ولذلك قد قال أبقراط علم الصناعة في كتاب الفصول[4]، إنّ ذهاب العقل الذي يأتي بالضحك يوثق به أي لا مكروه معه، والذي يأتي بالحد والعبوس لا يوثق به، أي هو بعيد من السلامة.

وكما أن الصبيان لاعتدال دمهم وصفائه يكثرون الضحك في منامهم لفرح النفس بما ترى من اعتدال أبدانهم، إذ كانت النفس تتبع البدن في

---

(1) في الأصل: برداة.

(2) المطلوب حذف اللا لسياقة المعنى.

(3) في الأصل: ادعاره.

(4) كتاب الفصول لأبقراط «وضمنه تعريف جمل الطب لتكون قوانين في نفس الطبيب يقف بها على ما يتلقاه من أعمال الطب» (ابن أبي أصيبعة، ص54) وهو بالفرنسية *Le livre des aphorismes*.

مزاجه. وكذلك نجد السكارى يكثر ضحكهم لفرح النفس فيهم باعتدال مزاج أبدانهم من رطوبة النبيذ.

ألا ترى أيضا كثرة كآبة المطحولين[1] وقلة ضحكهم لرداءة الدم وفساده وقلته في أبدانهم. فقد قيل أن الطحال أذاه[2] الضحك قد خيل، والقائل لذلك بلاديوس[3] الاسكندراني في تفسيره كتاب الفصول. وإنما ذهب في ذلك إلى باب لطيف جدًا بعيد العوز، وهوان الطحال إذا جذب عكر الدم ودِرْديه وما خالطه من شوائب المرّة السوداء صفى جوهر الدّم ضرورة. وصار الذي ينتشر وينبث في جميع البدن جيدا معتدل المزاج فائق الجوهر، والدم إذا كان بهذه الحال انبسطت النفس واسترسلت وأظهرت منها البهجة والسرور وأسباب الضحك.

وإذا ذكرنا الضحك فلنخبر بحدّه وكيف يكون صفة حدّ الضحك. فنقول أن حدّ الضحك تعجب النفس من شيء لم يقدر لها ضبطه. فأما بلاديوس، فإنه حده فقال إن الضحك أمر لا تدبره الكلمة، وأرى تحديدي إياه أبين وأوضح من هذا الحد. فأما فاعل الضحك، فالنفس المنطقية[4].

فأما آداته[5]، فالضحك بالطحال قد خيل كما قال بلاديوس، أو الكبد إذا كانت المصيّرة للدم / 101 و/ والباعثة لفضلة الدم إلى مساكنها من المرّة الصفراء والسوداء، أو القلب إذا كان الدم المنبعث منه أصفى وأرق وأجود وأكثر روحا حيوانيا من دم الكبد. وكان أيضا محل الحرارة

---

(1) المطحول هو المصاب في الطحال ومنه جاءت كلمة spleen للتعبير على الكآبة.
(2) كذا في الأصل والصحيح أداة.
(3) Palladius هو طبيب درّس في الإسكندرية في القرن السادس م، وقام بشروح على كتاب الفصول.
(4) في الأصل: النطقية.
(5) في الأصل: اذاته.

الغريزية التي هي جوهر الروح الحيواني ومحل الروح الحيواني نفسه. وأما مادة الضحك وثقله، فالدم الصافي المعتدل المزاج المنبثّ في جميع الجسم. فأما تمام الضحك، فوقوف النفس عند الضحك على معناه عند استبيانها غايته من هزل أو جد.

فلنرجع إلى ما كنا فيه، فنقول وقد نجد الضحك معدوما في المشائخ، والحزن والبكاء والكآبة والاختلاط وأسباب الماليخوليا حاضرة فيهم لعلة دمهم الجيد لا بل الدم بالجملة في أبدانهم رديئا كان أو جيدا، فهو فيهم نزر يسير، وغلبة البرد واليُبس على أعضائهم لفناء حرارتهم الطبيعية ورطوبتهم العنصرية من أبدانهم. وكفانا ما أحضرناه من هذه البراهين في هذا الفن عند ذكرنا الضحك والبكاء.

وربما ظهر في أبدان الماليخوليانين، أعني الأصناف الثلاثة، بهق أسود أو قوابي[1] صغار فينتفعون بها. فإن ظهرت بهم قروح كبار لم ينتفعوا بها، حتى أنها ربما قتلتهم. وربما آلت حالهم إلى أن يعرض لهم استرخاء فالجيّ بسبب نكاية المرة السوداء لأدمغتهم وأعضائهم وأن كنا لم نرى ذلك، ولكنا قد رأينا ما هو أعجب من ذلك.

ذكر انتقال داء الماليخوليا إلى الأبيلمسيا

وهو أنّا رأينا جماعة ممّن بهم الماليخوليا انتقلوا إلى حال الأبيلمسيا، وهو الصرع. ورأينا جماعة ممّن بهم الأبيلمسيا صاروا إلى الماليخوليا. ورأينا جماعة من المجذومين[2] انتقلوا إلى الماليخوليا، وكلّ هؤلاء فلم يبروا من أمراضهم. وقد قرأت في كتاب أفيديميا أن سبب / 101 ظ/ انتقال الماليخوليا إلى الأبيلمسيا، إذا فسدت المرّة السوداء لمزاج الروح

---

(1) جمع قُوباء وهي بثور مجتمعة ترشح الماء إذا حكّت ويكون مثل الدواير في الأكثر. التنوير في الاصطلاحات الطبية لأبي منصور ابن نوح القمري ص 63.

(2) المقصود هنا بالجذام داء الفيل المسمى باليونانية *elephantiasis*.

النفساني الذي في الدماغ وسددت بطونه وتجويفاته، فحينئذ تحدث الأبيلمسيا مع الماليخوليا. وأمّا إذا تبع الماليخوليا الأبيلمسيا، فإن سببه فساد مزاج الروح النفساني من المادة السوداوية السّادة لمجاري الدماغ. وإذا ذكرنا الأبيلمسيا، فلنخبر بحدّه وأصنافه.

ذكر أصناف الأبيلمسيا وأعراضها وحدّه :

فنقول إنّ الأبيلمسيا رطوبة منماعة تسدّ بطون الدماغ سدّا ناقصا، فيمتنع عن النفس من إظهار أفعالها إلى أن يزول ذلك العارض، أي إلى أن تهضم الطبيعة تلك الرطوبة السادة. ولذلك كانت القدامى تسمي هذا السقم فالجا صغيرا، لأن الفالج انسداد الدماغ انسدادا تاما.

والأعراض التي تحدث وتلحق الأبيلمسيا، فقدان الحسّ وبطلان الحركة الإرادية وذهاب العقل وفساد قواه المديرة الثلاثة. ويزيد عن ذلك بليّة هي أعظم من ذلك كله، وهو حدوث الداء المسمّى طاطيس، وهو التشنج بهم. فإن هذا الداء يبلغ من نكايته لحم الحيّ، إنه يحلل الروح الحيواني منه بسرعة ويتبعهم من الانخفاق وسيلان المني أو خروج البراز والبول بغير إرادة. ولذلك سمّى الحمقى هذا الداء المرض الإلهي لجلالة الرزية، وكانوا يقولون إن الله تبارك وتعالى إذا غضب على أحد من خلقه رماه بهذا السقم. وأمّا العوام، فكانت تسمّيه المرض الكاهني[1] لخفاه وخفاء أسبابه، ويذهبون إلى أنّه من قبل الجَان. وأمّا الأطباء فيسمونه المرض العظيم ويسمونه الصرع ويسمونه الجنون.

فأما بمن يكون، فيكون على صنفين: صنف مع الحمّى يكون من المرة الصفراء وهو مشهور. والصنف /102 و/ الآخر على نوائب معلومة في زيادة القمر ومحاقه، وهو صنفان : صنف من المرّة السوداء وهو

(1) في الأصل : الكاهبي.

الذي إليه أشرنا عند ذكرنا الماليخوليا المنتقل إلى الأبيلمسيا [والأبيلمسيا المنتقل إلى داء الماليخوليا، فانا إلى هذا الصنف أعني الصنف في الأبيلمسيا][1] الكائن من المرّة السوداء. وأمّا الصنف الآخر، فيكون من كيموس البلغم، ومنه أكثر ما يعرض هذا الداء. إلا أنّ جالينوس ذكر فيه شيئا ظريفا، وهو أنه قال إنّ من كان في الصرع في امتلاء الهلال ومبدأ نموّ القمر، فإن المادة التي كان عنها كثيرة الرطوبة جدا، لأن الأشياء الرطبة كلها تزيد بزيادة القمر وتنمو بنموه.

أما من الإنسان، فأخلاطه الأربع والدم خاصة والدماغ لرطوبته، كل هذه تزيد بزيادة القمر. فأمّا ما يعرض عنه عند نقصان القمر، فإن المادة التي كان حدوثه عنها باردة المزاج قليلة الرطوبة. وكفانا ما خبّرنا القول إليه من هذا الباب، فلنقطع مقالتنا هذه لفراغنا فيها مما أردنا أن نذكره من أمراض الماليخوليا والبحث عن أصنافه وأعراضه. فلنختم هذا الكتاب وننتقل إلى مقالة أخرى نضع فيها طريقة معالجة هذا المرض ونستعين بالله.

---

(1) الجملة ما بين المعقوفين منسوخة في الحاشية.

العامة على كل صنف منه وعلة القول في المرض كله . ذكر الاعراض
اللاحقة لكل صنف من الماليخوليا فنقول ان الاعراض العامة لاصحاب
الماليخوليا من اي الاصناف كان دوام الكابة والحزن والفزع مما لا يفزع
ولا يدعو وحديث النفس والتفكر الدائم في غير سبب يوجب التفكير
واخطار اشيا بالفكر مما تردع وتهول ليست لها معاني اصلا . ثم
ويجدون في حواسهم احساسا باشيا ليست بشي فمنهم من يرى بين
عينيه صورا شنعة مدعورة وسودا وغبرا كما كان ديوقلس يرى
في مرضه من هذا الداء سودانا يريدون قتله و زمارين وصناجين
يضربون ويرجحون في زوايا بيته . ومنهم من يتوهم ان لا راس له كمثل
ما رايناه قريبا بمدينة القيروان فانا ثقلنا راسه بقلنسوة عملناها
له من رصاص وجعلناها على راسه في محل الخوذة فحينئذ صح عنده
ان له راسا وكذلك حكى روفس انه راى ذلك ومنهم من يسمع مثل
خرير الما وقرع الرياح وعصفها واصوات معولة في الاذن وطنين
لا ينقطع ليلا ولا نهارا وكل ذلك ليس منه شي انما هو حس كاذب
ومنهم من يشم الريح منتنة من كل شي بسبب فساد شمه وبطلان
صحة حاسة شمه ومنهم من يبطل ذوقه للاشيا اللذيذة حتى ان
منهم من لا يلتذ بطعم الغذا ومنهم من لا يلتذ بطعم الماكل وذلك لفساد
مذاقه وبطلان صحة احساسه . ومنهم من يحس ببدنه خشنا
باكثر مما هو . ومنهم من يظن ان بدنه من خزف كما ظن ذلك الناقواني
الذي اعتل بهذا السقم ومنهم من يشتد مع ذلك ظنه وخطاسه
مثل من كان يهرب من المشي تحت السما خوفا من وقوعها عليه

ويتوق

الصفحة 98 ظهر من المخطوط وهي تبرز أن «المقالة في الماليخوليا» قد كُتبت بالقيروان

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

المقالة الثانية من كتاب الماليخوليا

وهي مقالتان. فالمقالة الثانية ذات فنّين: فنّ في طريق العلاج الكلي الصناعي وفنّ في العلاج الجزئي[1] المراسي وضعها في باب المداواة منها على طريق الصناعي وطريق العلاج الجزئي[2] معا.

هذه المقالة الثانية ذات الفنّين من كتاب الماليخوليا الذي وضعته في داء[3] الماليخوليا / 102 ظ/ جعلها في باب العلاج والمداواة لهذا الداء لتتمّ القسمة في تضمّنه باب العلم والعمل.

رأس الفنّ الأول من المقالة الثانية أن تقدمنا في باب العلاج والمداواة لهذا الداء لتتمّ القسمة في تضمّنه باب العلم والعمل.

(1) في الأصل: الجزوى.
(2) في الأصل: الجزوى.
(3) في الأصل: الدا.

رأس الفنّ الأول من المقالة الثانية أن قد تقدّمنا في المقالة الأولى من كتابنا هذا، فأخبرنا به بما يجب أن نخبر به من أمراض الماليخوليا، أعني ما هو وكيف يكون وعمّا[1] يتولّد من الأسباب الأولية القاصية إلى الأسباب القريبة الذاتية. فيجب علينا أن نتلُو ذلك ونُقَفَّوَهُ بذكر طريق المعالجة من هذه العلة، ونركّب في ذلك من الكلام الشريعة المُثلى التي تشبهه. أعني نوسّع الكلام ونتجاوز الإغماض قليلا والايجاز إلى الشرح والبيان لينفع الله بهذا الكتاب كلّ من أطلعه من أهل الصنعة الطبيَة وأهل المعرفة والأدبية من أوساط الناس وذوي المسكنة وأهل السلامة من الجهل المردي المُنْكي. وبالله العون.

فنقول: إنّه يجب في معالجة كل مرض مزمن أن يكون القصد فيه إلى حسم مادته ونفيها. إلاّ أن تكون أعراضه صعبة يُخاف منها التلف، فإنه حينئذ ينبغي أن يكافأ[2] العرض بالمداواة حتى يهدأ. ثم تصرف العناية إلى تنقية وتنظيف البدن.

ولمّا كان مرض الماليخوليا أعراضه النفسانية مهولة، وقد بيّناها فيما سلف به القول منّا، وجب أن تقابل الأعراض النفسانية بإزالة تلك الظنون الكاذبة والتخيّلات الفاسدة والخطرات الرديئة[3]، من الألفاظ العقلية اللطيفة، والحيل النظرية والنُظر المقنعة بما[4] يزيل ما وقر في النفس وانحبس في الخلد من المعاني الباطلة التي لا حقيقة لها بحركة الموسيقى وسقي الشراب، / 103 و/ إن أمكن ذلك، ووجد الطبيب من

(1) في الأصل: عم.
(2) في الأصل: يكافى.
(3) في الأصل: الردية.
(4) في الأصل: ما.

العليل فيه شفائه[1]. فأمّا الأعراض الجسدانية من الهزال والسهر وسوء[2] الهضم فليست بهائلة[3]، بل مُمْهلة تدبّر بالغذاء[4] فتصلح.

ولأن أصناف الماليخوليا تختلف، فكذلك تختلف الطريق في علاجه. والعلاج العام له إخراج المرّة السوداء[5] بالإسهال وتعديل الأسباب السّتة التي تنقلب فيها الناس، وقد تقدمنا فسميناها. وأمّا ما يخصّ صنفا صنفا من هذا المرض:

ذكر علاج خاص لصنف صنف من أصناف داء الماليخوليا

فهو أن الصنف الكائن[6] من الحمى علاجه مثل علاج البِرْسام[7] المسمى إفرنيطس سواء. وأمّا الصنف الذي يكون في نفس الدماغ، فإنّ العلاج الذي يخصّه صرف العناية إلى الدماغ بمثل الحلب على اليافوخ بعد حلق شعر الرأس بلبن النساء[8] أو بلبن الأتن أو بلبن الغنم حليبا حارا، والسعوط بلبن النساء وما يشبهه، مثل دهن البنفسج ودهن اللينوفر ودهن حب القرع الحلو وبالتخصيص على الرأس، والتنطيل بالمياه الفاترة المطبوخة بالبابونج وغلف الخشخاش وبزر الخطمي وورق البنفسج وأصل السوس وإكليل الملك وما هو لهذه شبيه.

وأمّا الصنف الذي يرتقي من أسفل الجسم إلى الدماغ، فالعناية به ينبغي أن تكون متوجّهة إلى جميع البدن بالسواء ولا يفصل الدماغ.

---

(1) في الأصل: مرضه وهو غلط.
(2) في الأصل: سو.
(3) في الأصل: هايلة.
(4) في الأصل: الغذا.
(5) في الأصل: السودا.
(6) في الأصل: الكاينة.
(7) والصواب هو السرسام.
(8) في الأصل: النسا.

وأمّا الصنف من مرض الماليخوليا الشراسيفي، أعني الذي يكون من انصباب كيموس السوداء إلى فم المعدة، فينبغي أن ينحو الطبيب فيه غرضين:

- أحدهما تنقية المرة السوداء المسببة للمرض، وتنقية كيموس أخر لعله ما تولّد في أجسامهم من فضول الأغذية وانحدر إلى المعدة مرارا أصفر كان أو بلغما[1].
- والغرض الثاني / 103 ظ/ العناية بأسباب الهضم والاحتيال بكل حيلة في سلامة الغذاء في المعدة من الفساد والإتخام والعناية به يوما يوما، بأن يُجمع في الغذاء ثلاثة أشياء: أحدهما أن يكون رطبا من الجهتين معا، رطبا بالفعل مثل الأغذية الرطبة والنقوة، مثل السمك الطري السِيالة، ورطبا بالقوة الحي والصخري والفاكهة الرطبة النضيجة. والثاني أن يكون معه كيفية حريفة لطيفة تعين على الهضم، وترقق غلظ المرّة السوداء، مثل الفودنج والنعنع. ولا يُدمن عليها لئلا[2] تفسد[3] جوهر الدم وتنقله إلى الزيادة في هذا الخلط الأسود. والثالث أن يورد عليهم من كلّ يوم الاستنقاع في الماء العذب الحار أو الماء البارد في صميم الصيف، والادهان بعد التنشف بالمناديل بالأدهان المفترة الكثيرة الرطوبة. ويأخذ شيئا بعد شيء من مياه الخشخاش مع بعض الأدهان المحللة التي من طبيعتها تحليل الرياح والنفْخ الشراسيفية ما كان معينا على صحة هضم غذائهم، وما يكون به ترطيب أبدانهم. ونحن ذاكرون تلك الأدوية في آخر كتابنا في المقالة السادسة بنسخ نرسمها لها.

---

(1) في الأصل: بلغم.
(2) في الأصل: ليلا.
(3) في الأصل: يفسد.

ونذكر أيضا الأدوية المسهلة للمرّة السوداء، منها ما يشرب في الربيع أو الخريف، وما منها يشرب في سائر[1] السنة. ولا ندع ذكر الأدوية المسهلة للسوداء التي فيهم إذا خالطتها المرة الصفراء أو البلغم، ونَصِفُ أدوية تعينهم[2] على الهضم وتحليل أرياح الشراسيف.

غير أنّا نبدأ بذكر هذه الأدوية التي نحن مستعدون لذكرها بذكر تعديل المواد الستة في أصحاب المرّة السوداء الماليخوليانية، فإن في ذلك ما أحاط بجملة ما أردنا تقييده في مقالتنا هذه من علاجهم، والقوة بالله.

القول في /104 و/ تعديل الأسباب السِّتة[3] على أصحاب مرض الماليخوليا، وكيف يقابلون بالعلاج منها:

وهي الهواء[4] المطيف بنا والبلد، والغذاء، والنوم واليقظة، والاستفراغ والامتناع، والحركة والسكون، والآلام النفسانية.

أمّا البلد المحمود سكناه لهذه العلة، فالبلد الذي[5] في سَمْتِ الشرق لاعتدال هوائه واستواء[6] مزاج تلك الناحية في جميع كيفياته. وينبغي أن تكون أبواب المنزل نحو مهبّ ريح الصّبا منحرفة[7] إلى الشمال قليلا، ويحرصون أن ينتقلوا من المواضع التي أصابتهم العلة فيها إلى غيرها، وكذلك في جميع الأمراض المزمنة وخاصة مرض الماليخوليا وفي حمّى الربع، هذا تدبيرهم في جهة الجوّ المستثنى النسيم.

---

(1) في الأصل:ساير.
(2) في الأصل: تعين فيهم.
(3) في الأصل: الست.
(4) في الأصل: الهوا.
(5) في الأصل: التي.
(6) في الأصل: استوا.
(7) في الأصل: منجزفا.

ويكون تدبيرهم ما يرطب سائر أزمان السنة، إلاّ أنّه ينبغي أن يميل إلى الحرارة وتقل رطوبته. أن يزاد في قدر الغذاء قليلا في الشتاء وينقص منه في الصيف ويزاد في تدبيره قليلا، ويبقى على حاله في الربيع والخريف. فأما تدبيرهم من جهة الغذاء، فقد ذكر جالينوس في تفسير كتاب فصول[1] بقراط أن الغذاء على ثلاثة أصناف: غليظ ولطيف ومتوسط.

فالغليظ هو الطعام، واللطيف هو استنشاق[2] الهواء، والمتوسط هو الشراب. وقد ذكرنا تغذيتهم بالهواء كيف ينبغي أن يكون إذا كان الغذاء بالتنسم يغذي الروح النفساني ويعدل الروح الحيواني. وأما الغذاء بالطعام والشراب فسنشرح منه ما في دونه كفاية. إلا أن جالينوس قال في الأفيديميا إنّ الاستنقاع في الماء ودخول الحمام وتمريخ البدن بالدهن يدخل في باب الغذاء، نعم.

وقعود العليل على نهر جار من مهبّ الشمال وملؤ[3] أجاجين ماء باردا عذبا وتصييرها بين أيديهم، مما ينفعهم نسيمها خاصة /104 ظ/ في القيظ.

ونحن ذاكرون الغذاء الموافق استعماله لهم ومتّبعوه بالشراب، ثم بالاستفراغ والمروخ بالدهن. وقد كنا أمرنا فيما سلف من قولنا أن نجعل غذاء أصحاب الماليخوليا ينْحو نحْو الرطوبة من الجهتين، من الطبيعة ومن الصنعة، وهو مثل لحم حولي الضأن والحُمْلان (فإن خاصة لحم الضأن والحُمْلان)[4]، فإن خاصة لحم الضأن تنفع[5] المرة السوداء

(1) في الأصل: اصول.
(2) في الأصل: استشنا.
(3) في الأصل: ملو.
(4) الواضح أن الجملة بين قوسين تكرار.
(5) في الأصل: نفع.

بالطبع. ومثل لحوم الجداء[1] الرضع فإنها تولد رطبا رقيقا جدا. وكذلك لحوم الفراريج الإناث لرطوبتها وتقادمها والفراريج الذكور المحتملة لرقة دمها ولطافتها، والحجل والدُراج والطَيْهوج[2] ينحو نحو هذه في توليد الدّم الرقيق الرطب الذي[3] متى وافى الخلط السوداوي[4] لطّفه وصار الكل من اختلاطهما واجتماعهما رقيقا.

والسمك الصغير النهري اللطيف المرعى الرضراضي القليل الزهومة، مثل بنات الشبوط والبني والراي والبُلْطي وسمك البحر اللّجي والصخري الصغير القليل الشحم، كل ذلك للمرّة السوداء وللماليخوليين نافع جدا لتوليده فيهم دما رقيقا لطيفا لزجا باردا.

وأنا أرى أنّ السراطين النهرية المشويّة أو المطبوخة في ماء الشعير أو في الماء والملح ينفعهم، لخاصة لحم السرطان في نفع الذبول والسلّ وأبدان الماليخوليين من جهة حرقيتها ويُبْسها تحتاج إلى الرطوبة والنداوة والبلل[5] كما يحتاج أبدان المسلولين إلى ذلك والمهازيل الناقهين من الأمراض. فإن تدبير كلّ هؤلاء ينبغي أن ينحى[6] به لحاجة الرطوبة كثيرا في كلّ وجه، أعني في الغذاء بالطعام والشراب، والنسيم البارد الرطب المعتدل، وبالاستنقاع[7] في الماء العذب المشروب، واغتذائهم من لحوم الحيوان /105 و/ التي وصفناها بعد أن نصرف صنعتها إلى طبخها بالماء والملح اليسير صلقا أحمد من جميع صنعتها، لأنّ كلّ ما

---

(1) في الأصل: الجدا.
(2) في الأصل: طهيوج وهو خطأ.
(3) في الأصل: التي.
(4) يطلق جالينوس اسم الخلط السوداوي على نوع من المرّة السوداء، غليظة تشبه عكر الدم وتتولد عن الأطعمة التي تنتج الدم الجاف أو الحار.
(5) في الأصل: البلد وهو خطأ.
(6) في الأصل: ينحى.
(7) في الأصل: الاستنقا.

خالطها مما سوى ذلك، فإنه ينقص رطوبتها ويغيّر جوهرها، مثل طبخها بالمَرّي[1] أو بالخل أو بماء البقول الحريفة أو بالتوابل وكذلك صنعتها بغير الطبخ بالماء يقل من رطوبتها وتغلظها ويُعسر انحدارها وانهضامها، مثل المقلي والمُطَجّن.

إلاّ أنّه لما كان الصنف من هذا المرض الماليخولياني الشراسيفي يعرض منه للغذاء وسوء الهضم بمخالطة المرّة السوداوية، وجب أن يُجْعل في أمراق الطبيخ شيء فيه أدنى حرافة بعد أن يميل إلى الرطوبة، شيء مثل أن يخلط فيها بصل فإنه قد تطيبه الطبيخ وتغذيته إياه يفتق له طعما لذيذا ويفيده حرافة تعترضها حلاوة ورطوبة وتليين للطبيعة، وتشهية للإكثار من الطعام وتنبيه لحرارة المعدة المنطفئة[2] الخامدة ببرودة السوداء، مثل ماء الحمص، فإن فيه حلاوة لذيذة وحدّة وملوحة لطيفة، وهو يلين الطبيعة قليلا.

وكذلك وجدنا الإقلال من ماء الكرّاث وماء النعنع يكسب الطبيخ طيبا وحدّة يسيرة تعين على أسباب الهضم ولا تضر، لانتشارها في كثير رطوبة المرق. واقتصارهم على أكل اللحمان التي وصفنا أحْمَد عندي لهم على التحرز من البقول، لأنّ في البقول ثلاث مضار، وإن كان يوجد في بعضها رطوبة توافق أصحاب هذا المرض:

- أحدها نزارة غذائها[3] ووقاحته.
- والثانية أنّ معها رطوبة فضلية اكتسبتها من الماء لا ينال البدن منها شيئ، بل يفسد جوهر الدم ويحدث رياحا ونفخا.

---

(1) المَرّي *murri* هو عبارة عن مستحضر ذي ملوحة كان يستعمل لتلذيذ الطعام. يسميه الرومان *garum* ويعدّونه من السمك، فأما العرب فكانوا يستحضرونه بالقمح والشعير. أندثر استعماله بعد ادخال البهارات من الشرق.

(2) في الأصل: المنطفية.

(3) في الأصل: غذاها.

• والمضرة الثالثة أنّها تكثر الرجيع وتتنفس جوهره وتملأ منه الأمعاء[1] وتخفي مقدارها، فيكون ذلك داعيا / 105 ظ/ إلى ملء[2] البطن بالزبل والرياح.

وهاتان خلتان مضرتان جدا بالصنف الشراسيفي من صنوف الماليخوليا. إلاّ أنّ في البقول خُلّة واحدة تُحْمَد، وهي أنها كلّها تليّن البطن وتسرع الهضم، وهذه خلة تفترق تلك المضار وتعفي عليها.

إلاّ أنه إذا كان الشيء المتداوي به من دواء كان أو غذاء أو غيرهما من سائر الأسباب التي تزيد على البدن المريض[3]، يرجى منه نفع ما ويخاف منه ضرر ما، فينبغي أن يقاس النفع بالضرر.

فإن كان النفع ثلاثة أجزاء والضرر جزء واحدا، فينبغي أن يُقْدم الطبيب على استعمالها واثقا مطمئنا لأنّه قادر أن يتلافى الضرر بعد زوال العلة وبرئها بأسهل السعي.

وأما إن كان الضرر الذي يخاف في الشيء الذي يُتعالج به مساويا لمنفعته المرجوة منه، أو كان ضرره أكثر من نفعه، فينبغي للطبيب أن يهرب من استعماله أصلا، فما حاجته إلى شيء ضرره مثل نفعه أو ضرره أكثر من نفعه، استعماله ذلك جهل وخطأ.

والبقول النافعة لأصحاب الماليخوليا، ما كانت فيه رطوبة زائدة أو قوته لذّاعة هاضمة محدرة. أمّا الرطوبة، فمثل السَّرْمق والخسّ والبقلة اليمانية والاسفاناخ والقرع والخبازى والملوكيّة وبقلة الرجلة. وأما، فضرب فيه كيفية محدرة وهاضمة بأن يغذو[4] أن يكون فيه بَوْرَقية أو

(1) في الأصل: الأمعا.
(2) في الأصل: ملي.
(3) في الأصل: المرضى.
(4) في الأصل: يغذوا.

حريفية أو جامعة للأمرين. أما البورقية، فمثل السلق وبقل الدرل[1]، وأما الحريفة فمثل البصل والكراث والحُرْف والحندقوقى[2] والجرجير والشبت والرازيانج والنعنع والفودنج والنمّام، فإن هذه إذا استعمل منها شيء في الطبيخ أو في الطعام أعانت معونة ليست باليسيرة في الهضم والإحدار.

ومن البقول ما يجمع أمرين من الملوحة والحرافة، مثل الكُرُنْب، فلا جرم أن ماءه[3] يحدر البطن مثل ما يفعل ماء العدس الأسود. ومن البقول ما يجمع الرطوبة مع حرافة يسيرة مثل الهلْيون، وقد رأينا بقلة الحرشاء[4] إذا طِيب بالمري والدهن يحدر الطبيعة ويسرع الهضم في البطن. وبقلة الخسّ الناعم متى أكلت مسلوقة بمري ودهن شيرج أو دهن لوز حلو تغذو غذاء مرطبا وتولد دما نقيّا أصلح ممّا تولّده البقول، وتحدر البطن بدهنيته ورطوبته وبتلذيع المري.

فأما الحلبة المثبوتة فهي تسهل بالرطوبة، سيّما إذا أكلت بالمري، إلاّ أنّ معها حرارة بينة. وأمّا اللبْلاب فقد رأيت قوما يأكلونه مسلوقا بالمري والزيت والخل اليسير، فيلّين بطونهم، إلا أنّي تمطقته فلم أجده طيّبا. والكُشُوت يؤكل بالعراق، يبان طعمه مثل طعم الهندبا[5] وفيه

---

(1) الأصح: بقلة الرمل والتي تسميها العرب بقلة البراري. يقول فيها ابن البيطار: توجد في آخر الشتاء المتتابع الأمطار، وتنبت بلا زرع وطعمها مالح تشوبه مرارة طيبة وتؤكل هذه البقلة نيئة ومطبوخة في شهر أيار وفي آخر نيسان. وهي مما تصلح الأمزجة وتقوّي الأحشاء والمعدة والكبد، وتنفع من خفقان القلب وتطيب النكهة وتشد فم المعدة، وإذا بخر بعروقها لحمى الربع والحمى البلغمية تنفع منهما وإذا وضعها إنسان تحت وسادته ونام رأى في منامه أحلاماً حسنة، وقد جرب ذلك فصح. (تنقيح الجامع ص 71).

(2) في الأصل: الحندقوتي والصواب الحندقوقى.

(3) في الأصل: ماه.

(4) في الأصل: الحرشا.

(5) الهندبا: وهي أيضا الهندباء.

قوة مسهلة. هذا ما ينفع أصحاب الماليخوليا في العلة الشراسيفية من ضروبه.

فأمّا ما يلائمهم من الحبوب، فهي كلها ضارّة لهم من جهة الرياح التي تولّدها وعسر الانهضام، خلا ماء الحمص إذا أكل لما فيه من الجلاء. والتين[1] فكيفيته الحلاوة والملوحة، وأما جوهره فنِفاخ يولد خلطا رديئا. وكذلك ماء اللوبياء[2] ربما نفعهم لإدرارها للبول وتليينها للبطن برطوبتها وجلائها. وحبة الماش في مرتبة بين ما يحبس ويطلق، وهي باردة قليلة الرطوبة، فإذا سلقت أو طبخت استفادت رطوبة من الماء، فإذا صرفت صنعتها إلى أن تطبخ بالبقول أو بالأدسام، ألانت البطن. وأمّا سائر القطانى فرديء لهم أكلها.

وأما الفواكه فقد ينفعهم منها أكل التين اليابس، والإقلال منه عند آخر الطعام لأنه يخرج الزبل في آخر الليل بسهولة، وكثير من الحلو يفعل ذلك بإرخائه آلات البطن وتسهيلها[3] خروج البراز، مثل العسل / 106 ظ/ والسكر والفانيد ومصّ القصب الحلو المشوي ليزول نفخه بالشيء. والزبيب المنزوع العجم ينفعهم لِلينه. وربما ينفعهم الرطب، إلا أن حرارته تضرهم لتوليده مرة صفراء مستعدة للانقلاب بسرعة إلى المرة السوداء. وأكل اللوز الأخضر واليابس يليّن قليلا برطوبته ودهانته. والجوز إذا أكل مع التين ربما فعل ذلك، وكذلك اللوز بالتّين. وأمّا مصُّ العنب النضيج الحلو، فيطلق البطن بإفراط.

وأما التين الرطب فلست أحمده، لأني رأيته ينفخ على جودة. ومصُّ الرمان الحلو المَليسي يليّن البطن. والجوز واللوز ربما ألان

(1) هكذا في الأصل ولعلها تحريف.
(2) في الأصل: اللوبيا.
(3) في الأصل: تستهيلها وهو خطأ.

البطن بحلاوته ورطوبته. ويسير البطيخ الحلو على الريق يليّن، إلا أنّه يفسد ويستحيل ويزيده تليينا أكله بالسكر. والأجاص إذا أكل الرطب منه الحلو النضيج وشرب عليه شربة من ماء العسل يطلق البطن، كما أمر جالينوس. والتّوت الأسود الحلو يفعل خاصة على الرّيق لما في لحى[1] أصله من القوة المسهلة. هذا ما علمته نافعا لهم من الفواكه، وأما سائرها فغير موافق لهم.

وقد رأيت بعضهم ينتفع بشرب الماء العذب من جهة رطوبته التي له بالطبع وبالفعل جميعا، ولا يضرهم برده بل ربّما وافى حر مزاج في المعدة بالطبع كان أو بالعرض فنفعهم. على أنّ القياس يوجب أن الشراب الممزوج أنفع لهم في أبدانهم وفي عوارض أنفسهم لسبب ما يحدث لهم من السوداء وطيب النفس وإزالة الشراسة والكزازة والزعارة عمن خلقه غضوب.

وقد حكى يعقوب ابن إسحاق الكندي[2] أنّ أرقاوس[3] واضع اللحون قال: إنّ الملوك تحضرني مجالسها لتَلْتذ وتلتهى بي، وأنا الذي أتلهى بها وأتلذذ، لأنّي أقدر أن أنقل أخلاقها من الغضب إلى الرضا، /107 و/ ومن الحزن إلى الفرح ومن الكزازة إلى الاسترسال ومن القطوب إلى البشاشة ومن البخل إلى الجود ومن الجبن إلى الشجاعة.

فإذا كانت صناعة التأليف وأوزان النغم تبلغ من مقاومة الأخلاق ومداواة أسقام النفس هذا المبلغ حتى تنقلها إلى ضدّها، فكيف يفعل الشراب في النفس؟ فإن قال قائل إنّا نجد الشراب يجني على العقل، ويخرج شُرّابه إلى السخف والاختلاط، فكيف ينتفع الوسواس السوداوي، وإنّما هو

---

(1) في الأصل: لحا.

(2) الكندي: أول فلاسفة العرب (801-873).

(3) أرقاوس Orphée هو بطل أسطوري يوناني تنسب إليه فضائل كثيرة منها قدرته على بهر الوحوش بألحانه.

داء مفسد للعقل محدث للوسواس والظنون الرديئة. أجبناه يوما بالدواء ويوما سادجا بغير دواء إلى أن يتمّ واحدا وعشرين يوما.

ومن الناس من يسقى منه مقدارا قليلا، فهذا ضرر عظيم لأنّه يخرج ضعيفا في إسهاله ويتحلل إلى أرياح غليظة لغلبة الهمّ عليه. وإذا شرب كثيرا غالب المرض وقهره وأسهل كثيرا. وينبغي أن لا نغذي[1] العليل في يوم شرب ماء اللبن بشيء أصلا، فإن أجهده الجوع في ليل أو[2] نهار، فليأكل خبز حواري مثرود في شراب ممزوج، فإن في خلط الخبز مع الشراب الممزوج مؤالفة عجيبة في تعديل ما رَدُؤَ[3] أو فسد من الأخلاط، وذلك أنه يقدر بلطافة الشراب وحرارته المألوفة أن يذيب المادة ويحللها إذا كانت غليظة أو كانت لزجة، وأن يزيل برطوبة الشراب ورطوبة الخبز ما كان منها لذّاغا أو رديئا. وذلك أن الشراب الممزوج بالماء يفيد من الماء برودة يسيرة ورطوبة كثيرة، والخبز يستفيد منها لطافة ورقّة وإزالة ما فيه من الدبقية واللزوجة. والشراب الممزوج يستفيد من الخبز رطوبة عَلِكَةً ملساء مملسة تكسر من حدّته وصورته.

نحن نجد ذلك عيانا من أنّا إذا جعلنا في النبيذ الصلب / 107 ظ/ الخشن كثيرا من الخبز قبل شربه ستّ ساعات ونقعناه فيه تلك الساعات، لان النبيذ وتليّن حينئذ وسلس في فعله ولم يقرع الذهن بحرارته وحدّته.

وقد زعم جالينوس أنّه ينبغي أن يشرب وزن درهمين أفتيمون مع ماء الجبن في كلّ شربة لإخراج المرة السوداء وخاصة في السرطان المتقرح. ونحن نرى هذا من قوله صوابا ونقبله من المعلّم إستكانة وخضوعا، وقد جربناه فرأيناه جيّدا نافعا لجميع أصناف المرّة السوداء. وخلطنا مع البثمون[4] مرّة بعد مرّة شيئا من سقمونيا وألفيناه منجحا.

(1) في الأصل: نغذو.
(2) في الأصل: و.
(3) في الأصل: ما يَرد.
(4) هكذا في الأصل، ولعلها الأفتيمون نظرا لمفعوله المسهل.

وقد أمر جالينوس أن يسقى السقمونيا بماء الجبن في علل اليرقان الكائن من انتشار المرة الصفراء في سطح البدن، وقد عملناه فأنجحناه. وسقيناه أيضا بالهليلج الأصفر للجرب والمرّة الصفراء، وأبرأنا به جماعة ممّن شربه. وقد سقيناه مرّة من الرمان بالهليلج الأسود لأصحاب البهق الأسود وللعلّة التي ينغش فيها الجلد وللآثار السمجية التي تظهر في سطح البدن من المرة السوداء، فينفعهم الله به.

وقريبا ما سقيناه لقروح غليظة جذامية قد ظهرت في الأكف والأطراف، فبرئ منه العليل في سبع شربات، إلاّ أنّ ذلك كان[1] بعد تدبير منقّي قويّ بالفصد والإسهال للخلط الأسود. ولا أحصى كم مرة سقيته بعصارة الأفستين لِلّذْغ الكائن في فم المعدة والحرقة العارضة[2] لأصحاب النبيذ والغم والخفقان العارض من المرة الصفراء المتشبثة بفم المعدة فأبرأت به هذه العلة. وسقينا أيضا من بكبده التهاب وسدد من الدم العكر بأيارج[3] فيقرا مرّة، فنفع الله به.

والكلام في سقي ماء الجبن بالأدوية /108 و/ المسهلة يخرج في جريانه وفي عليل عليل إلى شبيه بما لا نهاية له من تبيين الكلام. غير أنّا إذا أخذنا هذه المَرة في ذكره، تعلقنا في طرف منه، فلا بدّ لنا من استيفاء معاني قوانينه الكلّية ومذاهبه العامية لأن الكلام يتوشّح بعضه ببعض لارتباط المعاني والتحامها.

فالعلة التي يسقى لها الماء الجبن في علة علة، إسهاله المرة الصفراء لجهتين اجتمعتا[4] فيه. أحدهما، وهي أفعلهما به غلبة الرطوبة والبرودة

---

(1) اضافة لسياقة المعنى.
(2) في الأصل: عرضة.
(3) أيارج ومعناها دواء مسهل وهو دواء مركّب يدخل في تحضيره الصبر السوقطري، ومن أشهر الأيارج: أيارج فيقرا وأيارج لوغاديا وأيارج أركاغيس.
(4) في الأصل: اجتمعا.

عليه، فيخرجها بالمضادة والمقاومة والنفي والطرد لهرب الأضداد بعضها من بعض.

والجهة الثانية أنهم زعموا أن فيه حدّة بها جذب المرة الصفراء، إذ ليس للإسهال والاستطلاق وجد في الشيء المسهل المطلق سوى أن له قوة جذابة في طبعه بها جذب وسلب. وليس للقوة الجاذبة معنى تقوى على الجذب به، إلاّ الحرارة من فعلها واليُبس منها في نفسها. إلا أنّ الحرارة منها أكثر من اليبس لأنّ الحرارة نشافة جذابة، واليُبس مثبت للفاعل.

ولما كان زمان الجذب قصيرا، وجب أن تكون الحاجة إلى اليبس قليلة. مثل ما أن زمان القوة الدافعة في دفعها قليل، ذلك أعطيت من اليبس مقدارا قليلا ومن الحرارة مقدارا ضئيلا، لأن بالدفع أسلس من الجذب وأهون. ولذلك ما احتاجت القوة الماسكة إلى مقدار مفرط من اليبس لثباتها في الإمساك وطول المدة في ذلك، ومن الحرارة إلى مقدار دون، لتفعل به الإمساك. واحتاجت الهاضمة إلى الحرارة للتغيير والهضم وقلب جوهر إلى جوهر آخر. وذلك لا يكون إلاّ في رطوبة موضوعة للفعل بها، لذلك ما كانت الهاضمة تفعل بالحرارة والرطوبة.

فقد وجب من هذا الكلام أن تكون القوى كلها تحتاج / 108 ظ/ إلى الحرارة لأنها فاعلة، ولأنه لا يفعل الباردة لأنه موّات. إلا أن ذلك وقع لها، أعني الحرارة على أقساط مختلفة. فوقع للقوة الجاذبة جزء كبير جدا، إلاّ أن النّشف والجذب لا تكون إلاّ بالحرارة القوية الحامية. ووقع للماسكة والدافعة بمقدار أقل جدا لأنّ الماسكة مستقرة ففعلها بالحرارة ساكن. والدافعة فزمان الفعل فيها يسير[1] ومقدار الحرارة فيها

(1) في الأصل: يسيرة ولعلها قصير لسياق المعنى.

يسير. واحتاجت الهاضمة إلى حرارة مفرطة للطبخ وإلى رطوبة زائدة للتمشية والنضج.

فأما اليُبس فهو في القوة غَلِظُ الجاذبة[1]، متوسطا إذا كان في الماسكة، مفرطا لطول زمان الإمساك[2]، وفي الدافعة يسيرا لقصر زمان دفعها.

و أرى أن هذا الكلام خبرا كافيا وإن كان خارجا عن غرضنا، إلاّ أنّ من عادة الكلام وطبيعته أن يلتحم بعضه ببعض إذا ماسه وقاربه. وجالينوس المعلم قد أبان هذا المعنى في آخر المقالة السادسة من كتابه في العلل عند ذكره الحركة المكانية والكيفانية. فلنرُد قولنا إلى موضعه كما يرد الفرس الجموح باللجام الدِلاصي، فنرجع ونقول فماء الجبن إذا إنما أسهل المرّة الصفراء بالبرودة بمزاج الرطوبة والبرودة بالطرد والمضادة، وبقوّة الجذب والإسهال التي جاءته من قبل حدّته التي لجبلة جوهره الخاصية له، ولما كانت القوة الصفراء حارة يابسة وجب أن ينفيها ماء الجبن بالمزاج المضاد والخاصية معا.

ولما كان الاحتراق والانتقال إلى الفضول السوداوية إنما سببها الحرارة واليبوسة، وجب أن ينفعها[3] ماء الجبن بمضادة مزاج البرودة والرطوبة لمزاج الحرارة واليبوسة التي هي الاحتراق. /109 و/ فأنت إذا توجهت إلى علاج المرة الصفراء بماء الجبن، توجهت إلى استصلاحها بإخراج جوهرها بخاصية الإسهال وإبطال سواء مزاجها بالبرودة والرطوبة، فإذا توجهت إلى استصلاح الاحتراق وحال الانتقال والاستمالة إلى نفس المرة السوداء، احتجت إلى مقاومة ذلك ببرودة ماء الجبن ورطوبته، وإدخال جوهر بارد رطب عليه يزيل ببرودته حرارة الاحتراق وبرطوبته

---

(1) والأصوب هو: في القوة الجاذبة غَلِظٌ.
(2) الأصوب: الهاضمة لسياقة المعنى.
(3) في الأصل: ينفعها.

جفافه. لأن الاحتراق حرارة تأكل رطوبة، والبرد يبطل الحرارة، والرطوبة خلف من فقد الرطوبة التي في اليبوسة.

فقد قال جالينوس إنّه ينبغي أن تدبّر الأبدان التي تميل إلى المرة السوداء بكل غذاء بارد رطب، وإلى هذا المعنى ذهبنا. فأما خلطنا بماء الجبن في علاج المرة السوداء الأدوية المسهلة للسوداء، فذاك لمعنى لطيف بعيد عودة، فيه حِيَاطة عجيبة للعليل مع بدائع الحكمة فيه، وهو إنّا إذا أردنا أن نبرد أبدان السودانيين ونرطبها لنُعدمها الاحتراق ولأن تمنع الأدوية المسهلة من الإضرار بحرارتها أبدانهم، إذا كانت المرة السوداء لا تنفك ولا تُجيب بالإسهال إلاّ بكدّ وبكروب لسقي الأدوية مرارا كثيرة لغلظها ويبسها وعسر (تبرى)[1] إجرائها وصعوبة تحليلها وتفريجها حتى يسلس قيادها وتفارق موضعها. وهذا الكلام في ماء الجبن مجزي[2] مقنع لمن كان مستمسكا معتصما بشيء من الفهم. وبالله التوفيق.

صفة بنادق تسهل المرة السوداء في كل علّة عظيمة من عللها مثل الماليخوليا والجذام والصرع والسرطان

يؤخذ من الهليلج الأسود الهندي والأفتيمون من كلّ واحد عشرون درهما، سقمونيا درهمين. يدق وينخل ويُلت بأوقيتين دهن لوز / 109 ظ/ حلو، ويعجن بوزنها مرّة ونصف زبيب منزوع العجم أو عقيد غليظ ريحاني. ويجعل منه بنادق وزن كل بندقة أربع مثاقيل، وترفع في برنية ملساء. والشربة[3] منه بندقة بماء حار أو برب العنب يوما نعم ويوما لا. ويكون شربه بالغداة على حمية وعلى غير حمية. والطعام عليه وسط

(1) الكلمة غير واضحة.
(2) في الأصل: مجزي.
(3) في الأصل: والشرب.

النهار لحم ضأن حولي (أو) أسفيدباجه[1] ويبدل الماء بشراب رقيق كثير المزاج. وتشرب هذه البنادق شربا متواليا، أربعة عشر شربة، أقلها وأحد وعشرون، أوسطها ثلاثون شربة أكملها، أي يشرب الدواء يوما ويراح بمقدار القوة يوما أو يومين.

وإذا سمعتنا نذكر في كتابنا هذا دواء مما يسهل أصحاب الماليخوليا ويخرج عنهم المرة السوداء، فينبغي أن يخطر ببالك أن ذلك الدواء وذلك العلاج لمن كان منهم معتدل المزاج الطبيعي في أصله، معتدل الصحة ومعتدل الهيئة. فأما إن كان العليل نظيف البدن أو متخلخله أو ما يلاقي لونه إلى الأدمة أو منصدر العروق أو حار المزاج بالطبع أو كان كثير الأكل للأغذية الحارة المولّدة للدم الكثير، مثل اللحمان وشرب النبيذ، أو كان ممن يعتاد الاستفراغ بالفصد والحجامة، فينبغي أن يُقدَم آنفا على فصد من هو كذلك في الربيع خاصة لكثرة الدم في البدن بهذا الزمن بعينه. وليكن ذلك على شريطة، وهو أن ترى الدم ساعة يخرج أسود حُلكوكا قطرانيا. فإنه إن خرج كذلك، فتمادى في إخراجه مقدار قوة العليل إلى أن يفضى به إلى الغشي. فإن كان الدم قَرْمزيا أرْجُوَانيا، فلا يخرجن من الدم درهما واحدا وأقطعه من ساعته، فإن إخراجه خطأ وخطر. هذا بأمر من الطبيب ولفظ جالينوس في علاج هذا الصنف. /110 و/

صفة بنادق أخر تسهل المرة السوداء في داء الماليخوليا وفي غيره من الأسقام التي تهيج من المرة السوداء.

يؤخذ من الهليلج الهندي والهليلج الكابلي، من كل واحد خمسة عشر درهما، وأفتيمون ثلاثون درهما، وسقمونيا ثلاثة دراهم. يدقّ

(1) أسفيدباجه: كلمة من أصل فارسي وتعني عملية سلق اللحوم في الماء والملح والبهارات.

كلّ واحد منهما وينخل، ويدقّ بأوقيتين دهن لوز حلو. يعجن بشراب البنفسج مثله مرة ونصف، أو بعقيد العنب، ويعمل بنادق، كل بندقة وزن ستة دراهم إلى سبعة. فيؤكل ويداف في[1] شيء من الميبختج[2]، يشرب يوما ويترك يوما وإن كان العليل ضعيفا يشربه ويترك يومين.

ويجعل الغذاء على هذا الدواء لحم ضأن حولي مطبوخ أسفيدباجه، والشّراب شراب ريحاني[3] طيّب التيه، كثير المزاج من سِنّه. ويوالى أخذه لهذه البنادق أربعة عشر مرّة أو واحد وعشرين مرّة في الربيع خاصة والخريف. إن شاء الله تعالى.

صفة بنادق أخر تسهل المرة السوداء في خفة مؤونة وسهولة مأخذ، مما يجوز إعطاؤها لأصحاب علّة الماليخوليا في سائر أزمان السنة على حمية وعلى غير حمية.

يؤخذ من الهليلج الهندي وزن ثلاثين درهم، وأفتيمون ثلاثون درهم، وغاريقون وبسفايج من كلّ واحد عشرة دراهم. يدقّ وينخل ويُلث بثلاثة أواق دهن لوز حلو، ويعجن بوزن الدواء عسل وميبختج معقود على النار منزوع العجم والرغوة. ويجعل من ذلك بنادق وزن كل بندقة سبعة دراهم، ويشربه في كل ثلاثة أيام بندقة مدافة بميبختج قدر ربع رطل، يشرب يوما ويترك يوما، ويوالى شربها أربعة عشر مرّة، أو واحد وعشرين مرّة في فصل الربيع أو في الخريف. فإن ضَعِف الدواء عن الإسهال لإعتياض بطن العليل، / 110 ظ/ فليأخذ من البنادق في كل يوم اثنتين، واحدة بالغداة وأخرى بالعشى. ويكون الطعام آخر النهار

(1) في الأصل: من.

(2) غير واضحة في الأصل. الميبختج كلمة فارسية وتعني الشراب المطبوخ وهو رُبّ العنب.

(3) الشراب الريحاني شراب تضاف إليه الأعشاب والبهارات ويستعمل كدواء.

لحم خروف أسفيدباجه أو فروج أنثى سمين، ويغيّر الماء بشراب أحمر ريحاني ابن سنة إن شاء الله تعالى.

صفة بنادق أخرى في هذا المذهب

يؤخذ من الهليلج الهندي والهليلج الكابلي والأفتيمون وبسايج[1]، من كلّ واحد جزء. يدقّ وينخل ويلتّ بجزء من دهن السمسم، أو دهن حب القرع الحلو. ويعجن بوزن الدواء مرّة ونصف زبيب منزوع العجم أو رُب البنفسج السكري، وهو أرْطب وأعْون في باب الإسهال. ويعمل من ذلك بنادق، وزن كلّ بندقة ستة دراهم.

تؤخذ البندقة بالغداة، فتداف في ماء حار مقدار أوقيتين، ويلقى عليه نصف أوقية سكر سليماني أو فانيد أبيض ويشرب بالغداة. ويوالى شربه على أدوار معلومة ملزومة يوما شربا ويومين غبّا، حتى يشرب منها أربعة عشر شربة أو إحدى وعشرين شربة في فصل الربيع أو الخريف. فأما في الشتاء والصيف، فيكون المدّة التي بين الشربة والشربة متراخية، أما في الشتاء فلقلة انقياد الفُضَل بالجمود وأما في الصيف، فلضعف القوة عن التحلل وحمّى البدن بحرارة الجو.

وهذه صفة أخرى نافعة بإذن الله

لطفت لتركيبها في مطبوخ يشرب به بنادق للمرّة السوداء، فيغني عن البخاتج[2] ويقوم مقام ماء الجبن إذا لم يكن وجوده في غير أيام الربيع لفساد اللبن في سائر أيام السنة وجودته في الربيع، ويُكسر ببرده حرارة الدواء.

---

(1) والصواب: بسبايج (و هو البسفايج).
(2) في الأصل: نحاتج، ولعلها بخاتج جمع ميبختج.

يأخذ من لبّ الخيار شنبر وزن سبعة دراهم، وورق بنفسج يابس خمسة دراهم، /111 و/ وبزر خطمي وزن ثلاثين درهما، وحب السفرجل مثله، وأجاص عشرين عددا، وعناب ثلاثين، وزبيب عشرين درهما، ومخيطا ستين عددا، وأصول السوسن مقشّر مرضوض وزن خمسة دراهم.

يطبخ الجميع بخمسة أرطال ماء من مياه العيون النابعة، بنار ليّنة حتى يبقى رطل ونصف. ويشرب منه في كلّ يوم يشرب فيه الدواء، نصف رطل. وإن كان شاربه يريد به طريق ماء الجبن، فليشرب منه رطلا.

وإن أراد أن يشربه للمرّة الصفراء أو للنثر أو القروح الرديئة الكيفية، فليخلط في هذا الماء عند شربه درهمين هليلج أصفر ووزن ربع درهم سقمونيا، أو هما معا، إن شاء الله. وإن أراد أن يكسبه حلاوة وطيبا، بأن يخلط به رب البنفسج أو جُلاب أو سكر.

صفة بنادق امتحنتها نافعة بإذن الله في المجذومين وأصحاب الماليخوليا، فأبرأت بها خلقا لا أحصيهم كثرة وعليها الدستور[1] بالعراق.

يؤخذ من الهليلج الكابلي وزن خمسة وعشرين درهما، وأفتيمون منقى في ترابه سبعة وأربعين درهم، سقمونيا ثلاثة دراهم. يدق ذلك وينخل ويلت بثلاث أواق دهن لوز حلو وشُيُوح[2] طري. ويعجن بمائتي درهم زبيب أسود منزوع العجم مدقوق ناعم مثل المرهم ويخلط خلطا محكما في الهاون.

(1) المقصود هنا أنها مدموجة في دستور الأدوية.
(2) شُيُوح: جمع شيح.

ويعمل من ذلك بنادق، (وزن) كل بندقة سبعة دراهم. والشربة بندقة بالغداة، أما بالمطبوخ الذي وصفنا آنفا وأما بالميبختج، وأما بالشراب الحلو. ويكون شربه يومين متواليين ويومين راحة أو غياب[1]. ويداوم شربها أربعة عشر مرة أو إحدى وعشرين شربة.

صفة بنادق أخرى تسهل المرة السوداء

لا أعلم أني رأيت ألطف إسهالا منها، لاسيما إذا /111 ظ/ وافت طبيعة سهلة حسنة الإجابة للإسهال. فأمّا إن وافت بدنا مستحصفا مثل أبدان الأكره[2] والفلاحين، فإن شربها بأن يضاف إليها وزن دانق سقمونيا، يحل بندقة بها، ينفعهم ويثير المرة السوداء للإسهال.

يؤخذ من الشاهترج والهليلج الهندي وحب الأفتيمون من كل واحد وزن عشرين درهما. يدقّ وينخل ويلتّ بثلاث أواق دهن سمسم أو دهن لوز حلو أو دهن حب قرع حلو أو دهن بنفسج، ويعجن بوزن الدواء عقيد ريحاني أو برب البنفسج.

ويعمل منه بنادق، كلّ بندقة سبعة دراهم. تشرب البندقة بماء حار وماء زوفا[3]، ويكون أخذها بالغدوات على تدبير مستقيم. يؤخذ يوما ويترك يوما، أو يؤخذ يومين متتابعين ويغيب يومين، أو يشرب ثلاثة أيام متصلة ويغيب ثلاثة أيام. يفعل من ذلك ما رأيته يحتمل جسم المريض وطبيعته. ويدوم على استعمالها إذا كنت واثقا بالزمان والقوة وكثرة المادة ثلاثين مرة.

---

(1) في الأصل: وأغياب.
(2) الأكره: الشداد.
(3) في الأصل: مازوفا.

وإن تعذر بعض وحضر بعض، مثل أن تمكن القوة وأن لا يمكن الزمان، ولا يكون المرض كثير المقدار ويكون الزمان ممكنا، ولا تمكن القوة ويكون مقدار المرض قليلا، فيقتصر منها على خمسة عشر بندقة أو عشرين بندقة، إن شاء الله تعالى.

ذكر أدوية مختصرة تسقى لإسهال المرة السوداء فتخرجها، قد سقينا منها المجذومين وأصحاب الماليخوليا مرارا كثيرة فنفعناهم، مع تعاهد القدر فيها وخفة مؤنتها[1].

أن[2] يسقى من الهليلج الأسود الهندي وزن مثقالين، بماء شاهترج رطب ثلثي رطل معصور فقط، وعشرة دراهم سكر أبيض سليماني في كلّ غداة. وأولى ذلك سبعة أيام أو عشرة ينتفعون / 112 و/ به. فإن اتفق أن يوافي منهم من بطنه عسر بطيء الإسهال، فليتخذ الدواء بوزن ثُمن درهم سقمونيا في كل يوم، إن شاء الله.

وإن سقي ماء الشاهترج في كلّ غداة مقدار ثلثي رطل معصور، مع أفتيمون وزن مثقالين مسحوق، وأوقيتين ميبختج في كلّ غداة، ووالى ذلك سبعة أيام أو عشرة أيام، انتفعوا به. فإن كان بطن العليل معتقلة، فليأخذ الأفتيمون بوزن ثمن درهم[3] سقمونيا مسحوقة[4] إن شاء الله.

وإن سقي من ماء الشاهترج مقدار الثماني أواق، مع وزن مثقال هليلج كابلي مسحوق، وحب أفتيمون مسحوق مثقال، مع وزن عشرة دراهم سكر سليماني مسحوق أو ميبختج ريحاني قدر أوقيتين مفتر، كل ذلك بالغداة في كل يوم، وأديم عليه سبعة أيام أو عشرة، نفعهم نفعا بيّنا، لاسيما في أيام الربيع ولمن طبيعته سهلة[5] مواتية.

---

(1) في الأصل: مونتها.
(2) في الأصل: أي.
(3) في الأصل: دراهم، وهو غلط.
(4) في الأصل: دراهم.
(5) في الأصل: سهلا.

وإن سقي كل يوم من البسبايج المسحوق وزن درهمين ونصف، مع مقدار سكرجة من خيار شنبر، ووالى على ذلك سبعة أيام، نفع ذلك لأصحاب الماليخوليا والجذام.

وإن أخذ مع القرب من حب الأفتيمون المسحوق المنخول وزن أحد عشر درهم، يصرّ في خرقة كتّان دخانية وأنقع في مقدار ثلثي رطل شراب حلو، ويترك إلى الصباح. ثم عصرت الخِرقة في الشراب الحلو حتى يجذب الشراب قوة الأفتيمون، ثم صفى. وألقي في الشراب أوقية جُلاّب أو شراب بنفسج وقطرات من دهن لوز حلو ويشرب بالغداة ووالى[1] عليه أسبوعا أو عشرة أيام، نفع أصحاب الماليخوليا وأسهل منهم المرة السوداء.

وقد ذكر روفس الطبيب أنه إن أخذ في فصل الربيع من الأفتيمون وزن عشرة دراهم، وهي شربة تامة منه، ويشرب بالغداة وأسهل /112 ظ/ إسهالا واسعا مرّة سوداء. ولكن ينبغي أن يكون وهو مسحوق مذوب بالميبختج. وقد ذكر جالينوس في رسالته في الترياق إن الأفتيمون يسهل المرة السوداء ويخرجها من الأسفل.

صفة جوارش هليلج يشبه في صنعته الجوارشن السفرجلي المسهل، ويخرج في طنه[2] ملوكي

فإنه لأهل[3] الترف[4] والنعمة، ويسهل مرة سوداء مستحيلة على احتراق المرة الصفراء. وقد امتحناه في المجذومين وأصحاب القروح الغليظة الخريفية وأصحاب الماليخوليا الحرار الأمزجة، مما يجوز إعطاؤه في

(1) في الأصل: اولا.
(2) الطنُ هو بدن الانسان (محيط المحيط ص 557).
(3) في الأصل: اهل.
(4) في الأصل: .الترف.

كلّ حين فصل وفي كل سنّ لسلامته وطهارته وحسن ما لطف به وأحتيط في تركيبه.

يؤخذ من الأجاص الرطب اليابس السمان مائة عددا، ومن لُب الخيار شنبر الطري المنقّى من قصبه وحبّه مائة درهم، وترنجبين ممّا يؤتي به من جهة المشرق مائة درهم، وتمر[1] هندي منقى من حبه وزن رطل، وعُنّاب سمان رطل، وسبستان دسم أسود وزن مائة درهم، وورق بنفسج يابس، وأصل السوس[2] مقشر مرضوض، من كلّ واحد خمسين درهم، وبزر خطمي وملوخيا، وحبّ سفرجل من كلّ واحد وزن ثلاثة وثلاثين درهما، وهليلج هندي منزوع النوى مرضوض جدًا وزن ثلاثمائة درهم.

يجمع ذلك ويطبخ بخمسين رطل من ماء العيون النابعة الحارة في الشتاء، الباردة في الصيف، حتى يصير إلى الربع، وهو اثنى[3] عشر رطلا. ثم ينزل ويبادر بتصفيّته في غربال شعر ضيق، ويجعل في إجّانة ويرمي بأتفال العقاقير، ثم يردّ إلى النار ويطرح عليه من السكر أربعة أرطال. وتنزع رغوته، ثم يعقد بنار ليّنة حتى يصير مثل الفالودج، ثم يبسط / 113 و/ في خوان خلنج نظيف لم تصبه زهومة، أو غُضار أملس. ثم يترك حتى يبرد ويجمد.

ثم يؤخذ من ورق الأترج، فيقطع الدواء المعقود بالسكين قطعا مربعة، وزن كلّ قطعة أربعة مثاقيل، وتلفّ من ورق الأترنج وتربط بخيوط رقاق وترفع. والشربة منه قطعة كلّ يوم، ويتجرّع عليه ماء حار وميبختج. فإن أردت أن يكون إسهاله، فألق فيه أوقيتين سقمونيا

(1) في الأصل: ثمر.
(2) في الأصل: السوسن.
(3) في الأصل: اثنا.

مسحوقة قبل بسطه في الخوان[1] وقبل تقطيعه. ويوالى شربه ثلاثة أيام ويترك ثلاثة، ويكون شربه إن شئت متّصلا إذا كانت العلّة قويّة ظاهرة. وإن كانت دون الصنعة، فليشرب هذه الجوارشن في كلّ شهر عشرة أيام أو ثلاثة أيام. والطعام لحم ضأن حولي أسفيدباجه، إن شاء الله.

وإن أردت أن يكون هذا المعجون الجوارشي نافعا في العلّة الشراسيفية المالنخولية[2]، فليضاف إلى هذا الدواء إذا هو صار في محل الفالودج، وزن ثلاثين درهم فودنج نهري وحاشا وأنيسون ودار صيني خالص، من كلّ واحد خمسة عشر درهم، ويخلط به خلطا محكما ثم يقلع بالسكين ويلف في ورق الاترنج ويستعمل.

صفة جوارشن معجون خفيف المؤونة يقوم مقام هذا فما فوقه في إسهال المرة السوداء المتوسطة، وهو مليح ظريف.

يؤخذ من الهليلج الكابلي و[3] الهندي من كلّ واحد مائة وخمسين درهما، ومن لبّ الخيار شنبر مائة وخمسين درهما، ومن الترنجين مائة درهم. ويجمع ذلك ويطبخ بثلاثين رطلا ماء حتى يبقى منه عشرة أرطال، ويُمْرس ويصفى في غربال، ثمّ يطرح الأتفال[4] ويرد الماء إلى القدر، ويلقى عليه أربعة أرطال ميبختج، ورطل سكر سليماني، ويوقد تحته بنار ليّنة حتى يصير في محلّ ألف الفرد. /113 ظ/ ثم ينزل ويبرد ويبسط في طبق غُضَار، ويقطع بالسكين قطعا مربّعة وزن كلّ قطعة أربعة مثاقيل، ويلف في ورق الأترنج[5] ويرفع. وإن أردت أن يتخذ الدواء، فأعجن به أوقيتين سقمونيا مسحوقة وقطعه وارفعه.

---

(1) في الأصل: اخوان وهو خطأ.
(2) في الأصل: الماليخوليا.
(3) اضافة، ساقطة في الأصل.
(4) الأتفال: جمع تفل، أي الزبد.
(5) في الأصل: اترج.

صفة سفوف لمبادئ المرة السوداء المولّدة للماليخوليا ولحديث النفس والوسواس والتوحُش من خلطة النّاس، ممّا قد امتحناه فوجدناه نافعا.

يؤخذ من الهليلج الهندي والهليلج الكابلي والهليلج الأصفر ،من كلّ واحد وزن عشرة دراهم ،ومن التربد الأبيض وزن اثنى عشر درهما، ومن الغاريقون ثمانية دراهم ،وسقمونيا وأنيسون وكهربا ،وبسد محرق وعود صرف وحّب كزبرة يابسة ولؤلؤ الكحل وورق الورد وطباشير ومصطكى من كلّ واحد وزن ثلاثة دراهم ،وزُرنباد ودرونج من كلّ واحد وزن درهمين ،وسكر طبرزد بوزن جميع الأدوية .ويدقّ ذلك وينخل نخلا ويُخْلط بالسكّر(1). ويُسْتف منه وزن خمسة دراهم، ويوالى أياما كثيرة. ويكون شربه بماء، ويكون الطعام فروجا أسفيدباجه، ويغيّر الماء بشراب ريحاني أو بشراب الورد الطري.

صفة سفوف لمبادئ الماليخوليا يقوّي القلب ويذهب بحديث النفس والوسواس الجاذب.

يؤخذ من الورد والطباشير من كلّ واحد وزن خمسة دراهم، ومن بزر البقلة الحمقاء عشرة دراهم، وحاشا وشكاعا وباداورد ولؤلؤ الكحل وكهربا وبسد وزرنباد ودرونج وحرير خام محرق ومصطكى، من كلّ واحد وزن ثلاثة دراهم، ومسك وزن ربع درهم. يدق كلّ واحد على حدة وينخل ويخلط ويمزح بها وزنها سكر طبرزد. والسفّة / 114 و/ منه مثقالان بماء بارد، إن شاء الله.

(1) في الأصل: السكر ويخلط.

صفة دواء المسك الذي ركبناه لضعف القلب والفزع والرعب الدائم والرجف والخفقان.

يؤخذ من الزرنباد والدَرُونج والبهَيْمنيْن الأحمر والأبيض، من كلّ واحد وزن خمسة دراهم، وورد أحمر سبعة دراهم، وطباشير أربعة دراهم، ومن بَزْر الحبق القرنفلي، ومن بزر البادروج وهو حبق، وحرير خام محرق ومصطكى، ونعنع أو نمام وعود صيني صرف وجندبادستر ولؤلؤ الكحل والكهربا وبسد محرق وحب كزبرة يابسة وأنيسون وبزر الرازيانج ومن كلّ واحد وزن ثلاثة دراهم، وفودنج نهري خمسة دراهم، وسنبل ودار صيني ومسك، يثنى من كلّ واحد وزن درهم.

يدق كلّ واحد على حدة وينخل بحريرة ويعجن بعسل منزوع الرغوة مثل وزن الأدوية، ويرفع في برنية غضار بيضاء ويتوثق من شدّه، ويدفن في الشعير ستة أشهر.

والشربة منه وزن نصف درهم إلى مثقال، يشرب بشراب الورد أو بالماء البارد أو بماء العود والمصطكى. فإن كان العليل محرورا جدا، فليكن شربه بمقدار أوقيتين بماء التفاح أو بماء الرمامين أو شراب الرّمّان السادج. فإن لم يكن محرورا، فبالذي يعمل مع حبق الفودنج.

ولأنّا ذكرنا هذا الشراب، فلنصف صناعته على أحسن ما نعلم وأجوده، فإنه[1] شراب ينفع الفواق الكائن من الخلط البارد والخلط الحار ومن القيء العارض ومن المرة الصفراء أو البلغم ومن الخلط المتشبث بفم المعدة، المُرّي أو السوداوي أو البلغمي.

---

(1) في الأصل: بأن.

يؤخذ من عصير الرمان الحامض المعصّر بحبه الداخل مقدار خمسة أرطال [و][1] من ماء الفودنج الرطب أربعة أرطال، ومن الشراب الريحاني أربعة أرطال. يجمع ذلك على النار ويطبخ حتى / 114 ظ/ يتنصف[2]، ثم يصفّى في غربال ويردّ إلى النار، ويلقى عليه ثلاثة أرطال سكر طبرزد أو بميبختج. ويوقد تحته نار لينة حتى يصير له قوام. ويصير في الشمس سبعة أيام، ويستوثق من رأس الزجاجة بالطين والشعر. والشربة منه نصف أوقية بماء بارد كثير.

صفة دواء مسك آخر يسهل في طريق هذا الأول، ويخرج المرة السوداء من المعدة والبلغم العفن المحترق.

يؤخذ من أيارج فيقرا وزن عشرة دراهم، وعصارة أفسنتين مثله، وهليلج كابلي عشرين درهم، وبزر الفرنجمشك وبزر البادرنجوية ونعنع يابس ومصطكى وعود صرف وكهربا، وبسد محرق، وأنيسون، وفودنج نهري، ولؤلؤ الكحل، من كلّ واحد أربعة دراهم، ومسك وزن مثقال، وعسل أبيض منزوع الرغوة وزن مائة وستين درهما.

يدق كلّ واحد على حدة وينخل ويعجن بالعسل ويخلط خلطا جيّدا، ويرفع في غضارة ملساء، ويشدّ شدّا وثيقا، ويدفن في الشعير أربعة أشهر، ثم يستعمل. الشربة منه وزن مثقالين بشراب ريحاني ممزوج بماء بارد، ويوالى عليه. ينفع بخاصة في مبادئ الماليخوليا ولوجع النساء الذي يسمّى خانوق الرحم[3] إذا كان مع العلة خفقان ورجيف شديد.

---

(1) الواو: ساقطة في النص.

(2) في الأصل: يتصنف.

(3) خانوق الرحم: اختناق الرحم هو تقلصها من مكانها إلى فوق أو ميلها إلى أحد الجانبين (التنوير في الاصطلاحات الطبية لأبي منصور ابن نوح القمري ص 61). إلا أن الرجوع إلى النصوص اليونانية وكذلك إلى ابن الجزار(زاد المسافر ص 547) يفيدنا أن المقصود بخانوق الرحم هو الداء المعروف بالهستيريا.

صفة سفوف للخفقان والوسواس، يسهل بخفة مؤونة.

يؤخذ هليلج هندي وزن أوقيتين، وعود ومصطكى وسنبل وفودنج وبزر ريحان وكهربا وبسد محرق من كلّ واحد وزن درهمين، مسك وزن دانق. يدق ذلك ويخلط بوزن الدواء كلّه سكر طبرزد، ويرفع. والشربة منه عند الحاجة إليه ثلاثة مثاقيل إلى أربعة، بماء بارد. يوالى شربه، فإنه يلحس الخلط الأسود لحسا، لاسيما إذا كان في المعدة راسبا[1]، مع التحفظ في الغذاء /115 و/ إن شاء الله.

صفة أرياج ممّا استخرجنا تركيبه للصنف من مرض الماليخوليا الشراسيفي

ينقّي معدهم من الفضول التي تتولّد فيها يوما بيوم من المآكل والمشارب سواء ما ينصّب إليها من المرّة السوداء، ويليّن بطونهم اليابسة ويحلل رياحهم النافخة المُمَدِة لبطونهم وجنوبهم.

يؤخذ من الفودنج النهري والجعدة والحاشا والأسطوخودس من كلّ واحد وزن عشرة دراهم، ومن الغاريقون وزن عشرة دراهم، ودار صيني وسنبل وعيدان البلسان وحب البلْسان وقشر سليخة ومصطكى وفقاح إذخر وأسارون وكمادريوس وكمافيطوس وأفسنتين رومي، من كلّ واحد خمسة دراهم، ومن الصبر الصقطري والمرّ الأحمر اليماني بعد غسلهما بماء الأفاوية من كلّ واحد خمسة وأربعون درهما، ومن شحم الحنظل خمسة عشر درهما.

يدقّ ذلك كلّه وينخل ويرفع وهو ذرور[2]. والشربة منه مثل الشربة من أيارج فيقرا. وهذا أفضل منه وأكثر تنقية وأشدّ لطافة. يشرب بعسل

---

(1) في الأصل: واسبا.

(2)في الأصل: درور.

وماء حار على حمية، فإنه يسهل ما بين أربع مجالس إلى سبعة. وإن شرب منه نصف هذا المقدار وهو وزن مثقال، ألان[1] البطن لينا ظاهرا وأسهل زبلا وفضولا يسيرة.

صفة أيارج فيقرا آخر مذهبه مذهب هذا الذي تقدم، ينقّي المعدة والبدن من المرّة السوداء والرياح الغليظة النافخة للشراسيف.

يؤخذ من حبّ البلسان وعود البلسان وقشور السليخة والسنبل والفو والمو والفودنج النهري وفقاح الأذخر والسادج الهندي والجعدة والساسالي والحاشا والأسطوخودس والأفسنتين الرومي ،من كلّ واحد وزن خمسة دراهم ،وصبر أحمر مغسول مثل وزن جميع الأدوية، وهليلج هندي / 115 ظ/ مثل وزن الأدوية كلها وهو مائة وأربعون درهما. يدقّ ذلك وينخل واحدا واحدا ويخلط ويترك ذرورا مسفوفة، ويرفع مستوثقا منه في برنية. والشربة منه مثقالان إلى ثلاثة مثاقيل، بما قد طبخ فيه فودنج وعسل.

وَصْفَتُه أن يؤخذ رطل عسل فيلقى عليه سبعة أمثاله ماء ويصير فيه عشرة دراهم فودنج نهري، ويوقد تحته بنار لينة حتى ينتصف وينزل، ويشرب هذا الدواء نصف رطل. ويكون شرب هذه الأيارجية في أيام الربيع أوْفق وأصْلح منه في غيره.

فإذا أراد مريد أن يجعله في طريق الأيارجات الكبار، فليزد فيه من الخربق الأبيض والبسفايج والسقمونيا من كلّ واحد وزن عشرين درهما، وأفتيمون وزن أربعين درهما. يدق ذلك وينخل بالأدوية الموصوفة،

---

(1) في الأصل: لان.

وينزع بعسل منزوع الرغوة وزن ثمان مائة درهم، ويرفع في الشعير ستّة أشهر والشربة منه أربعة مثاقيل.

وهذا الدواء عندي أفضل من لوغاديا ومن أيارج أركاغبيس[1]، ومن التيادريطوس. وينبغي أن يكون شرب هذه الأيارج بوزن دانقين ملح نفطي[2] ويذاف في الماء الذي وصفنا أنه ينبغي أن يشرب به الأيارجات الكبار، إن شاء الله تعالى.

صفة ذرور يقوم مقام أيارج فيقرا في تنقية الخلط الزدي من فمْ المعدة ويجمع مع ذلك أنه يخرج المرة السوداء بالإسهال، وينفع العلة الشراسيفية النفيخة.

يؤخذ من الأيارج المركب على نسخة جالينوس الذي ذكرناه في كتابنا هذا وزن ثلاثين درهما، ومن الأفتيمون المدقوق المسحوق المنخول بخرقة حرير، المغسول بماء ورق البنفسج المنقوع المستخرج قوّته بإنقاع البنفسج في ماء حار يوما وليلة، /116 و/ وإخراجه وتصفيته ثلاثة أيام بلياليها حتى يفيد لينا وتتكسر[3] خشونته وزن ثلاثين درهما. ووردا أحمر خمسة دراهم، ويخلط ويرفع. والشربة منه مثقالين إلى ثلاثة بميبختج وماء فودنج مطبوخ بدار فلفل، قدر ما يرقّ قوام الميبختج ولا يَبْخَنُ[4] في المعدة فيبقى مبخرا.

صفة تركيب الهليلج الهندي والكابلي ليسهل شربه في أسفل المرة السوداء.

يؤخذ من الهليلج الهندي والكابلي من أيّهما حضر، وزن رطل بعد نزوع[5] نواه ودقّه وسحقه، فيصب عليه مقدار ثلاثة أرطال من لبن الأتن

---

(1) ابن سينا يسميها أيارج اركاغنيس (القانون ج 3 ص 437) وهو الطبيب اليوناني Archigène.
(2) الملح النفطي أجوده المنتن الرائحة حار يابس يعين على القيء ويسهل السوداء.
(3) في الأصل: تتكثر.
(4) بخن: نام.
(5) الأصح: نزع.

الحليب الحار، ويكون في موضع بارد، ويسحق بالفَهْر على صَلاية حتى يذهب اللبن ويبقى الهليلج جافا. ثم يرفع. والشربة خمسة دراهم أو سبعة دراهم بوزنه فانيد أبيض، ويسف برُبِّ العنب الرقيق الريحاني بالغداة. وإن لزم هذا السفوف سبعة أيام، أبرأ برءا محمودا.

صنعة بسامح[1] تحتمل في المقعدة، يسهل البطن زبلا ومرارا في سوداء وصفراء

يصلح أن يستعمله[2] أصحاب داء الماليخوليا في جميع أصنافه، وخاصة في العلة الشراسيفية لقوة اليبس فيهم وما يجدوه من الآلام فيهم[3] إن شاء الله.

يؤخذ من علك البُطْم والعسل ومِرار البقر والحُضُض من كلّ واحد عشرة دراهم. فيذاف على النار في صدفة أو في قدر نحاس حتى يصير منعقدا في محل الناطف، ثم ينزل ويذرّ عليه من الخربق الأسود سبعة دراهم مسحوق منخول، من شحم الحنظل وزن درهمين، وسقمونيا ونطرون أحمر، من كلّ واحد خمسة دراهم.

يخلط خلطا محكما في هاون ويجعل منه مثل أمثال البلوط الرقيق، ويجفف في مهبّ الريح [في][4] موضع رائح لكي لا يذوب. ويحتمل منه بعد الطعام واحدة، فإن تحركت تحريكا قويّا اقتصر عليها، وإن خدمت بشيء يسير عدت بأخرى. /116 ظ/ ولا يجترئ على احتمالها من به انجراد في أسفله ولا بواسير ولا شقاق في مقعدته، ولا يحتملها إلا صحيح الأسفل سليمه، إن شاء الله.

---

(1) بسامح: كذا في النص ولعلّها الفتايل أو الأشياف ولم نجد الكلمة، لا في القواميس ولا في المعاجم الطبية.
(2) في الأصل: أصحاب.
(3) في الأصل: فهم.
(4) اضافة.

صفة سافح[1] آخر يجري مجراه ويخرج الزبل والمرة السوداء من أسفل ويعين على تحليل الرياح النافخة بمن به علّة شراسيف الماليخوليا.

[يؤخذ][2] من السكر والسكبينج والحضض وعلك الأنباط من كلّ واحد وزن خمسة دراهم، يعقد على النار كما يفعل بالأول حتى يصير كالناطف وينزل ويصير في هاون، ويذر عليه خمسة دراهم خربق أسود مسحوق وخمسة دراهم بورق. ويجعل منه أمثال البلوط، ويمسح الأصابع عند اتخاذه بدهن شيرج، ويجفف في الظل في مهبّ الريح، ويحتمل الواحدة بعد الواحدة من أسفل بعد[3] الطعام بعد أن يمسح الحلقة بدهن شيرج. فإنها منجحة إن شاء الله.

صفة سافح أخرى في هذا المذهب ينفع للعلة الشراسيفية الماليخوليانية ويخرج الزبل والمرة السوداء.

يؤخذ من علك البطم عشرة دراهم، وسكر خمسة دراهم. فيعقد على النار حتى يصير غليظا وينزل ويذرّ عليه وزن ثلاثة دراهم أفتيمون مسحوق، ووزن درهمين شحم حنظل، ودرهم بورق، ودرهم سقمونيا. ويخلط به خلطا محكما في الهاون، ويمسح الأصابع به من الخلّ. ويعمل منه فتائل أمثال البلوط، ويجفف في الظل، ويجعل منه من أسفل بعد الطعام بعد أن يمسح الحلقة[4] بدهن شيرج. فإن بلغت واحدة في النفع ما قد رسمنا، وإلاّ في أخرى إن شاء الله.

(1) سافح : كذا في النص. ولعلها الفتايل، أمثال البلوط أو الأشياف، كما ورد في النص.
(2) اضافة.
(3) اضافة.
(4) في الأصل: الحلفة.

يؤخذ من الحُضض الهندي وزن خمسة دراهم، ومن الفانيد مثله، ومُقْل اليهود ثلاثة دراهم. ويذاف ذلك على النار، ثم ينزل ويصير في الهاون، /117 و/ ويذر عليه وزن درهمين سقمونيا مسحوقة وثلاثة دراهم خربق أسود ودرهم شحم حنظل ودرهم بورق. يمسح الأصابع بدهن شيرج ويجعل منه أشياف أمثال البلوط، ويجفف في الظل ويحتمل منه الواحدة بعد الواحدة بعد مسح المقعدة بدهن بنفسج. ويكون ذلك على إثر الطعام إن شاء الله.

صفة أشياف يحتمل في[1] المعقدة فيسهل زبلا ومرارا أسود، ويحلل الرياح الممدودة للشراسيف السوداوية، في من به العلة الشراسيفية الماليخوليانية.

يؤخذ من الوشق والقنة والجواشير والعلك واللوز والحمص ومرار البقر والعسل والميعة السائلة، من كل واحد وزن ثلاثة دراهم، سقمونيا خمسة دراهم، وشحم الحنظل وخربق أسود من كلّ واحد سبعة دراهم، وبورق ثلاثة دراهم. يذاب الأصماغ على النار حتى تصير في محل الناطف، وتدقّ الأدوية وتنخل وتخلط في مهراس، ثم يمسح الأصابع بدهن خلّ، ويجعل منه شياف أمثال البلوط، ويجفف في الظل ويحتمل من أسفل بعد أن يمسح الأسفل بدهن بنفسج. ويكون ذلك بعد الطعام. فإن بلغت واحدة الحاجة، وإلاّ ثانية، إن شاء الله.

قال إسحق: وما حاجتي الإطناب والإسهاب في هذا، والتركيب يخرج إلى ما لا نهاية له إذا كان الصانع له ماهرا حاذقا بمعرفة فعل

(1) في الأصل: من.

الدواء أو قليله وحاره وبارده[1] وما قوته القوية منتشرة في كثيره دون قليله[2] وفي قليله وكثيره. فإن الحذق بهذه الصناعة أعني صناعة تركيب الأدوية عظيم أَلفْنَا في الطب جدا. ولولا أن يطول الكتاب ويخرج عمّا له قصدنا، لاختصرنا في هذا الموضوع عنه. ولكنّا ألغيناه إذ كان لا يجري فيه من الكلام إلا أجلّه وأفخمه وأوسعه.

وفيما / 117 ظ/ ذكرنا من هذه الأدوية المركبة دلالة وطريقة واضحة إلى الاتساع في التركيب، إلاّ أنّنا ذكرنا المفردات التي تدخل في هذه الشيافات. فإن في ذكرنا لها وصْلاً إلى تأليفها بسهولة من كان في يده مسكه من الصناعة، وقد كان سلامتها مقدار اسمها بعد أن يكون وطيه صناعية ودربه عملية. فيما يسهل البطن لأسفل لا محالة، ويحرك القوة الدافعة ويجبرها بدفع ما فيها الناطف مع البورق. والحضض وحده إذا دنا من النار واتخذ منه شيافا واحتمل من أسفل، قطف الأمعاء من الزبل، وأكثر منفعته للصبيان.

والسكبينج مفرد يفعل مثل ذلك، وكذلك الراتينج. فإن روفس قال في كتابه «في تدبير العوام» : إن أخذ منه في كل يوم مقدار جوْزة وشرب، ألان البطن. فإن خلط بشيء من بورق، ألان لينا كثيرا، وأبهم الكلام في هذا الموضع. إلاّ أنه ينبغي أن يفهم عنه أنه أراد المعنيين جميعا أعني أن يشرب من فوق وأن يحتمل من أسفل واحتماله من أسفل أشبه وأَلْيَقُ لباب العلاج من شربه من فوق لشناعة هذا التركيب وبشاعته. على أنّا قد امتحنا الأمرين جميعا، فوجدنا احتماله من أسفل أنجح في الإسهال من شربه من فوق.

---

(1) في الأصل قليلة وحارة وباردة. وهو خطأ.

(2) في الأصل: قليلة.

فأمّا إن جعل في الراتينج شحم حنظل، فإنه يسهل خاما كثيرا. فإن جعل فيه شيء من خربق أسود وعمل فتيلا، أسهل المرّة السوداء. فأما الوشق والمقل والجواشير والقنة، فليس معها قوة تسهل البطن من أسفل إلا ضعيفة، وقضايا كثيرة ما يفعل لنا يسيرا.

والرأي أن يضاف إليها بعض الأشياء الحدية القوية الإسهال مثل شحم الحنظل والسقمونيا والخربق الأسود والأبيض والفربيون وما يجري هذا المجرى. إلاّ أنّه لمّا كان تكلفنا في هذا الكتاب / 118 و/ علاج المرة السوداء للذين[1] قد وقعوا في الماليخوليا، وجب أن يميل مثل الخربق والأفتيمون لإخراج المرة السوداء في هذا القبيل بعد أن يُحَد، أما ببورق وأما سقمونيا وأما شحم الحنظل.

وأزبال الحيوان كلها إذا ربطت ببعض هذه الأدوية الدبقية واحتملت من أسفل شيافا، أسهلت إسهالا واسعا وخاصة خرء الذئب[2] الذي يعتلف في البراري، وخرء الحمام البري الذي يعتلف القرطم، وخرء الفأر وزبل الكباش والماعز الذي يفعل ذلك، مشروبا ومحمولا من أسفل شيافا[3].

والميعة السائلة[4] ومِرارُ البقر إذا عقد مع شيء من عسل وألقي عليه بورق وصبر و[5] سماقا واحتمل، فعل فعلا محمودا في إيلانه البطن. وفي ما مثلنا ورتبنا كفاية في هذا الكتاب. والله أعلم.

---

(1) في الأصل: الذي.
(2) في الأصل: الذيب.
(3) في الأصل: شيافه.
(4) في الأصل: العالية.
(5) ساقطة في الأصل.

صفة نطول يصب على رأس[1] أصحاب الماليخوليا إذا كثر سهرهم وهياتهم وتحزكهم بالوثوب على الناس.

يؤخذ من غلاف الخشخاش عشرة عددا، وبابونج قبضة، وإكليل الملك، وورد أحمر وخطمي مصرور في خرقه، وورق بنفسج يابس، من كلّ واحد خمسة دراهم. وإن حضر اللينوفر أخذ منه عشرة دراهم، وشعير مرضوض عشرين درهما، وبزر قطونا سبعة دراهم.

يجمع ذلك ويطبخ بعشرين درهما من ماء عذب حتى يتنظف ويصفى، ويجعل في إبريق ضيّق فَمّ الأنبوب، ويسكب على اليافوخ سكبا رقيقا قليلا قليلا وهو فاتر متمكن، بعد حلق الرأس بالموسى، وبعد النطل بهذا الماء إن احتاج إلى حلب لبن النساء ولبن الأتن أو لبن الغنم الحار في آخر موضوعاته. فإنه يكون حينئذ أنفذ وأوْصل برطوبته وتدومه وفتورة مزاجه إذا كان اللبن موضوعا في طبيعته بين مزاج الدم الذي هو معتدل، /118 ظ/ وبين مزاج البلغم الذي هو أبرد الكيموسات وأرطبها، كقول المعلم جالينوس. وسكب على الدماغ بالماء الحار أو باللبن الحار ساعة يحلب من الضرع، ويصير فيه دهن البنفسج والنيلوفر ودهن حب القرع الحلو على اليافوخ، مما يرطب الدماغ ويقوم في أصحاب الماليخوليا وفي أصحاب البرسام الحكر.

والاسعاط بهذه الأدهان التي وصفنا آنفا وبلبن النساء المرضعات الحراري يفعل ذلك أيضا. وقد وصف الأوائل لطوخات توضع على السرّة وعلى فم المعدة وعلى الموضع المسمى المعلقة من ظاهر البطن، فيطلق إطلاقا كثيرا ويقي قيئا[2] عميقا. إلاّ أنا تركنا ذكرها متعمدين لذلك لما معها من الخطر، وذلك أنها أدوية بعضها يتوعات وبعضها شحم

(1) في الأصل: الرأس.
(2) في الأصل: يفي فيا.

حنظل وبعضها فربيون وبعضها شبرم مثل المازريون وعيدان شبرم ولبن الشبرم، وعصارة قثاء[1] الحمار المسمى أومازا. وهذه كلها إنما تسهل بقوة فيها مسهلة للماء الأصفر، وتخرج الرطوبات وتفسد مزاج الجوف بسوء مزاج حرارتها السمّية.

وأصحاب الماليخوليا أغنى خلق الله عن مثل هذا الذي يخرج الرطوبات عن أبدانهم، وتزيدهم يبسا إلى يبسهم وجفافا إلى جفافهم. فقد صحّ إذا وبَان أن تركنا هذا العلاج الصائر لعلّة الماليخوليا، فأنّا على صواب وسداد، إن شاء الله تعالى.

صفة دهن إذا احتقن به في المقعدة نفع أصحاب علل الماليخوليا الشراسيفية، أسهل الرياح وحلل الرياح الراعدة[2] لبطونهم الممدة لجنوبهم السوداوية، وأخراج المزة السوداء.

يؤخذ من الخربق الأسود وشحم الحنظل، والأفتيمون والسكبينج الاصبهاني، من كل واحد رطل، /١١٩ و/ وحسك وقنطريون رقيق، من كلّ واحد ثلاثة أرباع الرطل، وحبّ خروع مقشر نصف رطل. يجمع ذلك ويطبخ بثلاثين رطل ماء من ماء العيون، في قدر برام حتى يصير إلى الثلث وهو عشرة أرطال. وينزل ويترك بقية يومه وليلته. فإذا كان بالغداة، أعيد إلى النار حتى يرق أجزاؤه المندفعة[3] ويسهل خروج الصفراء من المصفاة عند تصفيته. ثم يصفى ويعزل ذلك الصفو، ثم تعاد الأدوية إلى القدر من الرأس، ويطبخ بعشرين رطل ماء من ماء العيون حتى يصير إلى الربع، ويصفى ويضاف هذا الربع الذي هو خمسة أرطال إلى العشرة المعزولة. ثم يجمع ذلك في القدر، ويلقى عليه

(1) في الأصل: قثا.
(2) في الأصل: الراعد.
(3) غير واضحة في الأصل.

خمسة أرطال دهن شيرج طري ويطبخ بنار لينة جمر[1]، حتى يبقى الدهن ويذهب الماء. ويحتقن منه بنصف رطل دهن مفتر، ونصف رطل ماء حار عذب مضروب بأوقية مري شعري أي قليل الملوحة بعد الطعام، إن شاء الله.

وقد يجوز أن يشرب من هذا الدهن، أصحاب القولنج القديم البارد السبب، ولأصحاب البلغم والمرة السوداء الغلاظ الأجسام الرزين، فينتفعون به جدا. وشربته لهم مثقالين بماء حار، إن شاء الله تعالى.

صفة دهن ألطف من هذا يلين البطن في علّة الماليخوليا الشراسيفية وينفعهم.

يؤخذ من شحم الحنظل والخربق الأسود والقنطريون ومقل اليهود، من كلّ واحد نصف رطل. يطبخ ذلك بخمسة عشر رطلا من ماء عذب حتى يصير إلى خمسة أرطال، ويمرس ويصفى، وتطرح الأدوية، ويردّ إلى النار. ويلقي عليه مَنًا من دهن الشيرج الطري.

وإن كان الزمان صائفا والعليل مزاجه حار، فليجعل على بدنه / 119 ظ/ دهن البنفسج. وإن كان العليل بارد المزاج والنفخ كثير والزمان شتاء والبلد بارد، فليجعل دهن خروع، ويطبخ بنار لينة حتى تذهب هذه[2] العقاقير، ويبقى الدهن. وينزل ويصفى، ويرفع في قارورة، ويحتقن منه عند الحاجة إليه بخمسة أواق، مضروب بماء عذب[3] حار، نصف رطل، وأوقية شعري[4] ضعيف الملوحة. وربما سقيناه من هذا الدهن للقولنج وزن مثقالين مع الأيارج الفيقرا، ومع ماء طبيخ الأصول، فنفعناهم.

---

(1) في الأصل: حمر.
(2) في الأصل: هذا.
(3) في الأصل: مربد (غلط نسخي؟).
(4) في الأصل: شعر.

قال إسحق: هذان الدهانان اللذان وصفتهما قد يجوز أن يحتقن بهما في صميم الشتاء عند المنام سبع ليال متوالية، وعشرا، أو أربعة عشر، بعد أن يخلط بمقدار ثلث رطل من الدهن مع مقدار سكرجة من الحشائش والبزور الحارة الفاتحة للسُدّة، المذيبة للفضول، فتنفع علل أصحاب الشراسيف الماليخوليانية نفعا تاما.

ويجوز أن تخلط بربع رطل من هذا الدهن من بعض هذه الأدهان وأجلّها التي أسمِّي ويحتقن بها ليلا قدر سكرجة، ينفع الله بها أصحاب وجع الوركين، وعرق النِّسا ووجع المفاصل، وأصحاب الخلع، وعلة القولنج القديمة، وأصحاب الفالج، والاسترخاء والخدر وجميع علل الأعضاء، والعلل البلغامنية، بعد أن يتقدموا، فيحتقنوا بالنهار من ماء الأدوية التي تدخل في الحقنة الكبيرة من الأصماغ والبزور والحشائش بمقدار نصف رطل مفتر على النار، مع شحم الحنظل والمري والعسل، مما لا يمكن رسمه في كتابنا هذا لطوله.

وتلك الأدهان هي حد هذه: دهن القرطم، دهن الكتان، زيت الزيتون الحار، دهن الفجل، دهن الرند، دهن قثا الحمار، /120 و/ دهن النرجس، دهن السوسن، وزنبق، وشيرج، القسط[1] الأبيض، دهن البابونج، ودهن السنبل، دهن الشِبْت، دهن الجوز، دهن الخردل، دهن الناردين، دهن القسط، دهن اللوزين، دهن حبة الخضراء، دهن الصرف، دهن الفستق، دهن الخروع، دهن الشاهدانج، دهن القريص.

كلّ هذه وما هو شبيه لهذه مثل: دهن الحنظل ودهن الفريبون وغير هذه مما يدخل في الحقن هذه. وربما شرب للعلل الباردة البلغمية بعد أن يلزم سبع ليال أو[2] أربعة عشر ليلة، إن شاء الله.

---

(1) في الأصل: السقط وهو غلط.

(2) في الأصل: و.

وربما وجد الأطباء يُسْعِطون أصحاب الماليخوليا الكائن من وجع الدماغ بالسعوطات الحارة المعطّسة، فينفعهم[1] هذا.

على أن الخلط رديء خبيث، فلم أجد لذلك شيئا أكثر ما تكون العلة قديمة، ويكون الروح النفساني قدام معكره وأغلظ جدا، وسُدّت بطون الدماغ من الخلط الأسود. فيكون السعوط بحدته وبقوته المُفَتِّحَة. ويَلْطُفُ ذلك الخلط وينضج حتى يرق ويتحلل ويتهذب وينتقل إلى حال هي ألطف وأصلح.

والسعوط الذي وجدناه ينفعهم، مثل الحضض مع الكندس، ومثل المر مع الكندس، ومثل أيارج فيقرا مع الكندس والبورق، ومثل الجندبيدستر مع الكندس، ومثل الشونيز ومرارة الثور والحضض والمسك والزعفران والكندس، بعد أن يكون مقدار ما يسعط به من هذه ومقدار دانقين أو أقل، ويدخل أسطوخودس مع هذه، والجندبيدستر أيضا.

وإن أخذ بعض الأيارجات الكبار أو المعجونات أطوارا، فخلط في مقدار دانق ونصف منها، ثمن درهم كندس، وعجن به ثم أديف بماء المرزنجوش وأسعط به، نفع بإذن الله. / 120ظ/

وهذه صفة سعوط نافع لهم وللمجذومين وأصحاب الصرع والدوار والشقيقة القديمة استثنيناه ها هنا وجعلناه خاتمة كتابنا ليعرف به جملة التركيب.

ويؤخذ من الجندبيدستر[2] درهم، وبورق درهم، وزعفران ومسك صيني ودار فلفل من كلّ واحد ربع درهم، وحضض وأيارج فيقرا،

(1) في الأصل: فينفعونهم.
(2) في الأصل: جندبندستر وهو غلط وهو أيضا الجندبادستر.

ومرّ يماني من كلّ واحد درهم ونصف، وكندس درهمين وثلاثة أرباع الدرهم. يدق كل واحد وينخل ويعجن بماء الثوم وبماء المرزنجوش. ويحبب[1] كبارا ويجفّف ويسعط منه بوزن ربع درهم أقله، وثلاثة أثمان أكثره، مداف في وزنه درهمين ماء نعنع معصور ونمام ومرزنجوش أو فودنج رطب مغلى مصفى.

فإن كان يوجد بعد حرقة شديدة، فيسعط على إثره بلبن جارية مرضعة وزن درهمين، أو دهن بنفسج أو نيلوفر. يوالى السعوط أربعة أيام بعد بلوغ الغاية بالتنقية وكنس البدن من الكيموسات الرديئة.

وقد أرانا الغاية في هذا الباب، فلنختم من هاهنا الكتاب، فإنه قد أكثر الخطاب. ولأن العسل لا يطيب جدا عند بلوغ التحلّي[2] والقصد، إن شاء الله تعالى.

تم كتاب الماليخوليا، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) في الأصل: يجيب.
(2) يمكن أن تقرأ أيضا التمني.

ومن صفته سعوط نافع لهم وللمجدوميين واصحاب الصرع والدوار والشقيقة القديمة استثنيناه هاهنا وجملناه. خاتمة كتابنا ليعرف بمجملة التركيب يوخذ من الجندبادستر درهم وبورق درهم وزعفران ومسك صيني ودارفلفل من كل واحد ربع درهم وحضض وايارج فيقرا وعود يماني من كل واحد درهم ونصف وكندر درهمين وثلاثة ارباع الدرهم يدق كل واحد وينخل ويعجن بالتربد وبالمرزنجوش ويحبب كبارا وصغار ويسعط منه بوزن ربع درهم او اقل وثلثه اثمان اكثره مذاف في وزنه درهمين ما نعنع معصور وعام ومرزنجوش اوخوخ رطب مثلي مصفى فان كان يوجد بعد حرقه شديدة فيسعط على اثره بلبن جارية مرضعة وزن درهمين او دهن بنفسج اونيلوفر بوالي السعوط اربعة ايام بعد بلوغ الغاية بالتنقية وكنس البدن من الكيموسات الردية وقد بلغنا الغاية في هذا الباب فلنختم من هاهنا الكتاب فانه قد اكثر الخطاب. ولان العسل لا يطيب جدا عند بلوغ الغلو والقصد ان شا الله.

تعالى.

تم كتاب المالنخوليا والحمد لله رب العالمين

قال اسحق ابن عمران قد رايت نسخ الايارجات هنا على ما وجدناه في النسخ على ما ارمته على رويتي واعملت فيه رايي فوجدته صحيحا اجزته وما انكرته نبهت عليه وابدا بنسخه. ايارج لوغاديا الحكيم الذي وصفه لتنقية البدن من الكيموسات الغليظات الفاسدة وتنظيفه دم جميع البدن منها وخاصة نفع جميع اوجاع الراس مثل

الشقيقة

صورة من الصفحة الأخيرة من مخطوط «مقالة في الماليخوليا»

فهرس الأدوية التي من أصل نباتي
الواردة في كتاب الماليخوليا

الرقم	الاسم العربي الوارد في الكتاب	الاسم بالانقليزية	الاسم بالفرنسية	الاسم العلمي و الفصيلة
		- أ -		
1	أترج- إترنج (ورق)	Adam's apple	Cédrat	Citrus medica Risso Rutaceae
2	أجاص = اجاص (انجاص- كمثرى)	Pear	Poire	Pyrus communis L. Rosaceae
3	اذخر (فقاح الاذخر)	Shœnanthe ; Lemon grass ; Sweet rush	Souchet odorant ; Shœnanthe ; Jonc odorant ; Citronnelle	Andropogan Shœnanthus L. Poaceae
4	أسارون	Asara lacca ; Cabaret ; Wild-nard	Asaret ; Nard Commun; Cabaret; Nard sauvage	Asarum europaeum L. Aristolochiaceae
5	أسطوخودس= أسطخودس (تونس: الحلحال)	Lavander stœchas	Lavande stœchas Stœchas arabique	Lavandula stœchas L. Lamiaceae
6	أسفاناخ - اسفانخ (تونس: سبناخ)	Spinach	Epinard	Spinacia oleracea L. Chenopodiaceae
7	أفتيمون (=كشوث)	Dodder of thyme	Cuscute ; Epithym ; Cheveux de Vénus	Cuscuta epithymum Murr Cuscutaceae
8	أفستين- أفسنتين رومي	Absinth	Absinthe	Artemisia absinthium L. Asteraceae
9	إكليل الملك	Common melilot ; Melilot	Mélilot ; M. officinal	Melilotus officinalis L. Fabaceae
10	أنيــون	Anise ; Sweet cumin	Anis	Pimpinella anisum L. Apiaceae

Latin	Français	English	العربية	رقم
-ب-				
Chamaemelon nobile L. (ex.Anthemis nobilis L.) Asteraceae	Camomille; C. romaine	Camomile	بابُونج	11
Picnomon acarna Coss Onopordon acanthium L. Asteraceae	Chardon ; Ch. acanthin	Cnicus ; Thistle	بَاداوَرْد (وهو الشُكاعَى)	12
Ocimum basilicum L. Lamiaceae	Basilic	Basil	بادرونج (بزر) = الحبق (= باذروج)	13
Melissa officinalis L. Lamiaceae	Mélisse ; Citronnelle	Balm	بادرنجوية . (بزر) = بادرنجبوية - باذرنبوية . (تونس : حشيشة الذهبي)	14
Solanum melongena L. Solanaceae	Aubergine ; Mélongène	Brinjal ; Aubergine	باذنجان	15
		أنظر رقم 7	بشمون : ولعله : افتيمون-	16
Plantago major L. Plantaginaceae	Grand plantain	Waybread	بقل الحرشاء	17
Portulaca oleracea L. Portulaceae	Pourpier ; Pourcellaine	Purslane	بقلة الحمقاء (=درفاس)	18
Amaranthus blitum L. Amaranthaceae	Blette ; Amarante blette	Blite	بقلة يمانية	19
Polypodium vulgare L. Polypodiaceae	Polypode commun ; P. de chêne	Polypody ; Common polypody	بسبايج = بسفايج	20
Pistacia terebinthus L. Anacardiaceae	Térébinthe	Terpentine	بطم (ثمره = الحبة الخضراء، صمغه = الضرو)= علك الانباط - حب المنسم	21

Citrullus vulgaris Schrad Cucurbitaceae	Melon d'eau ; Pastèque ; Arbouse	Water melon	بطيخ (حلو)	22
Commifora opobalsamum Engl. Terebinthaceae-burseraceae	Baumier Baume de la Mecque ; b. de Judée	Balsam of Mecca ; Balm of Gilead	بلسان (عيدان- حب)	23
Viola odorata L. Violaceae	Violette	Violet	بنفسج (ورق - دهن)	24
Centaurea behen L. Asteraceae Statice limonium L. Plumbaginaceae	Behen-blanc ; Rhapontic blanc Behen rouge ; Lavande de mer	White behen ; White rhapontic Sea-lavander	بهيمن = بهمن بهيمنان : ابيض واحمر	25
	Manne d'Orient ou de Perse		ترنجبين	26
Pyrus malus L. Rosaceae	Pomme	Apple	تفاح (ماء تفاح)	27
Phoenix dactylifera L. Palmaceae	Palmier, dattier	Date-palm	تمر(ج. تمور)	28
Tamarindus indica L. Ex Leguminosae	Tamarinier	Tamarind	تمر هندي	29
Morus nigra L. Moraceae	Murier noir	Black- mulberry	توت اسود (حلو)	30
Ficus carica L. Moraceae	Figuier ; figue	Fig	تين	31
Opopanax Chironium Kock Apiaceae	Opopanax	All heal opopanax	جاوشير	32
Eruca sativa Mill. Crucifereae	Roquette	Rocket	جرجير	33
Teucrium polium L. Lamiaceae	Pouliot de montagne ; Germandrée tomenteuse ; Polium	Cat-thyme ; Hulwort ; Mountain-germander	جُعْدة (تونس : قطابة الاجراح)	34

Juglans regia L. Juglandaceae	Noyer	Walnut	جوز (دهن)	35
		ح		
Thymus capitatus LK. Lamiaceae	Thym	Headed thyme	حاشا	36
Pistacia terebenthus L Anacardiaceae	Térébinthe Faux- pistachier	Turpentine	حبة خضراء (زيت- دهن)	37
Phaseolus sp. (radiatus ?) ex Leguminosae	Haricot mungo	Haricot ; bean	حبة الماش	38
Ocimum pilosum, var. basilicum Willd Lamiaceae	Calament ocinos	Soft haired basil	حبق قرنفلي (=فرنجمشك)	39
Sinapis arvensis L. Brassicaceae	Moutarde sauvage ; M. des champs	Charlock ; Wild-mustard	حرشاء (=خردل بري)	40
Nasturtium officinale R. Br. Brassicaceae	Cresson de fontaine	Water-cress	حرف (دهن) = حب الرشاد	41
Tribulus terrestris L. Zygophylaceae	Tribule terrestre	Caltrops	حسك	42
Trigonella foenum graecum L. Fabaceae	Fenugrec	Fenugreek	حلبة	43
Lycium afrum L. Solanaceae	Lyciet ; Jasmin d'Afrique (suc)	Box -thorn ; African tea tree	حُضُض =عوسج= فيلزهرج	44
-	Lyciet ou lycium d'Inde ?		حضض هندي	45
Cicer arictinum L. Fabaceae	Pois chiche	Chick-pea	حمص (ماء الحمص)	46
Trigonella coerulea Ser. Fabaceae	Mélilot bleu ; Lotier odorant	Blue-melilot	حندقوقي= حندقوقا	47
Citrullus colocynthis Shrad. Cucurbitaceae	Coloquinte	Colocynth	حنظل (زيت - شحم) =علقم	48

		-خ-		
Malva rotundifolia L. Malvaceae	Mauve commune	Common mallow	خبازى = خبيز	49
Helleborus albus L. Ranunculaceae	Hellébore blanc	Black-hellebore	خربق ابيض	50
Helleborus niger L. Ranunculaceae	Hellébore noir ; rose de noël	Christmas-rose	خربق اسود	51
Sinapis alba L. S. nigra L. (= Brassica nigra L.) Brassicaceae	Moutarde blanche ; M. noire	Black mustard White mustard	خردل- خردل أبيض	52
Ricinus communis L. Euphorbiaceae	Ricin	Palma-christi ; Castor-oil plant	خروع	53
Lactuca sativa L. Asteraceae	Laitue cultivée	Lettuce	خس	54
Papaver somniferum L. Papaveraceae	Pavot blanc	White poppy Opium poppy	خشخاش	55
Althea officinalis L. Malvaceae	Guimauve officinale	Marsh Mallow	خطمي (بزر)	56
-	Vinaigre	Vinegar	خل	57
Cassia fistula L. Leguminoseae	Canéficier ; casse	Indian laburnum	خيار شنبر	58
		-د-		
Cinnamomum cassia Bl. Lauraceae	Cannelle de Chine	Chinese cinnamon	دار صيني	59
Piper longum L. Piperaceae	Poivre long	Long pepper	دار فلفل	60
Doronicum scorpioides Lam (ex – Compositae)	Doronic	Leopard's- bane	دروج = درونج	61
		-ر-		
Pinus pinea L. Abietaceae	Résine (de pin)	Resin (of stone -pine)	راتينج (صمغ شجرة الصنوبر)	62

Foeniculum vulgare Mill. Apiaceae	Aneth doux ; fenouil	Fennel	رازيانج = بسباس	63
Punica granatum L. Punicaceae	Grenadier ; balaustier	Pomegranate	رمان (عصير) (نواره : جلنار) ملاحظة : يذكر المؤلف : رمان حامض-رمان حلو مليسي- ماء الرمامين	64
Laurus nobilis L. Lauraceae	Laurier noble	Laurel	رند	65
		-ز-		
Vitis vinifera L. Vitaceae	Raisins secs	Raisins	زبيب (منزوع الرغوة)	66
Aristolochia - Longa. L. -Rotunda L. Aristolochiaceae	Aristoloche -longue -Ronde	1° Birth - wort 2° Round , aristoloch ; Apple of earth	زراوند - طويل - مدحرج	67
Zingiber zerum-bet Rosc Zingiberaceae	Zérumbet ; Amome sau-vage .	Wild - ginger; broad- leaved ginger	زرنباد (= زرنباد)	68
Crocus sativus L . Iridaceae	Safran	Saffron	زعفران	69
Iris florentina L. Iridaceae .	Iris ; Iris de Florence	Iris	زنبق = إيرسا	70
Hyssopus officinalis L. Lamiaceae	Hysope officinal	Hyssop	زوفا (ماء الزوفا)	71
Olea europea L . Oleaceae	Olivier	Olive-tree	زيتون	72
		-س-		
Cinnamomum citriodorum Th. Lauraceae	Feuille indienne ; Cannelle de Malabar	Indian leaf ; Malabar cinnamon	ساذج (هندي) = ساذج = مالا بثرون	73

Leviticum officinale Koch ou Tordylium off .L. Asteraceae	Séséli ; livéche ; Séséli commun ou : Séséli de Crète	Lavage ; Small hartwork	ساسلي	74
Cordia myxa L. Borraginaceae	Sébestier ; arbre aux sébestes	Sebesten ; Cordia ; assyrian plum	سبستان (اسود) = مخيطا	75
Atriplex hortensis L. Chenopodiaceae	Arroche ; Belle-dame	Orach ; mountain – spinach	سرمق	76
Cydonia vulgaris Pers . ou : pyrus cidonia Rosaceae.	Cognassier ; coing	Quince	سفرجل	77
Convolvulus scammonia L. Convolvulaceae	Scammonée	Scammony	سقمونيا	78
Ferula scowitziana D.C. Apiaceae	Sagapenum	Sagapenum	سكبينج سكبينج اصفهاني	79
Saccharum Poaceae	Sucre ; saccharose	Sugar	سكر	80
Poaceae	Sucre blanc et raffiné	Refined and white sugar	سكر سليماني ابيض	
Poaceae	Sucre blanc durci (tabarzed)	White hard sugar)(tabarzed	سكر طبرزد	
Beta vulgaris L. Chenopodiaceae	Blette ; Bette	White -beet	سلق	81
		راجع مادة دار صيني رقم 59	سليخة (قشور)	82
Sesamum indicum L. Pedaliaceae	Sésame ; Jugeoline	Gingelly Sesame	سمسم (تونس : جلجلان)	83
Valeriana jatamansi Jones ou Nardostachys Jatamansi D.C. Valerinaceae	Nard indien ; Epi de nard	Spicanard ; Nard	سنبل	84

Glycyrrhiza glabra.L. Fabaceae	Racine de Réglisse	Liquorice root	سوس - أصل السوس	85
Lilium candidum L. Liliaceae	Lis Blanc ; Lys	Lily	سوسن = رازقي (اصول - دهن)	86
		-ش-		
Fumaria officinalis L. Fumariaceae	Fumeterre	Fumitory	شاهترج	87
Cannabis sativa L. Var. indica ou Cannabineae	Chanvre indien ; bang ; haschisch	Indian hemp	شاهدانج (دهن) = قنّب	88
Anethum graveolens L. Apiaceae	Aneth ; Fenouil puant	Dill ; anet	شبت	89
Euphorbia pithyusa L. Euphorbiaceae	Epurge	Spurge	شبرم	90
Hordeum vulgare L. Poaceae	Orge	Barley	شعير	91
Onopordon acanthium L. Asteraceae	Artichaut sauvage; chardon acanthe	Cotton thisthe ; wild artichoke	شكاعى	92
Nigella sativa L. Ranunculaceae	Nigelle ; Cumin noir	Black-cumin ; fennel-flower	شونيز (تونس : سينوج) = الحبة السوداء	93
Sesamum indicum L. Pedaliaceae	Huile de sésame	Gingelly oil	شيرج = دهن السمسم (تونس: الجلجلان)	94
		-ص-		
Aloe vera L. ; Aloe divers (A. socotrina Lamk) Liliaceae	Aloès ; Aloès socotrin	Aloe ; Aloe of Socotra	صبر صبر صقطري	95
Caesalpinia sappan L. Ex Leguminosae	Bois de sapan	Sapan - wood	صرف (دهن)	96

Pinus pinea L. Abietaceae	Pin pignon ; pin cultivé	Stone - pine	صنوبر	97
Bambusa arundinacea Will Poaceae	Concrétions siliceuses de bambou	Bamboo manna	طباشير	98
Lens esculenta Monch . Fabaceae	Lentille	Lentil	عدس - عدس اسود	99
		انظر : بطم - رقم 21	علك البطم = صمغ البطم =علك الانباط	100
Zizyphus jujuba LAM. Zizyphus sativus Gaertn Rhamnaceae	Jujubier	Jujube ; Zyzyphus	عناب	101
Vitis vinifera L. Vitaceae	Raisin doux (vigne)	Sweet raisin	عنب حلو	102
Leontice leontopetalum L. Berberidaceae	Léonure commun ; pied-de-lion	Lion's -leaf ; Lion's - turnip	عسلج -ج : عساليج = آذربويه	103
Aloëxylon Agallochum Lour. Ex Leguminosae	Bois d'aloès ; agalloche ; Bois de calambac	Agallochum ; Indian aloe	عود (الخشب) = عود صرف = عود هندي	104
Polyporus officinalis Fr. Polyporaceae	Agaric ; Agaric blanc. Polypore officinal	Agaric ; Fungus laricis ; Agaricus albus	غاريقون	105
Penidia ou saccharum penidiatum Poaceae	Pénides ; Sucre tors ; Epénides		فانيد - فانيد ابيض	106

Raphanus sativus L. Brassicaceae	Radis cultivé	Radish	فجل (دهن)	107
Euphorbia resinifera BERG. Euphorbiaceae	Euphorbe	Euphorbium Gum plant	فربيون (دهن)	108
Ocimum pilosum ; var-basilicum Willd Lamiaceae	Calament ocinos	Soft haired basil	فرنجمشك (بزر) (= حبَق قرنفلي)	109
Pistacia vera L. Anacardiaceae	Pistachier	Pistachia	فستق	110
Rubia tinctorum L. Rubiaceae	Garance	Madder	فو = فوة - فوا	111
Mentha pulegium L. Lamiaceae	Menthe pouliot ; pouliot	Pennyroyal	فودنج =فوتنج - حبق فليّو - افليو	112
Mentha aquatica L. Lamiaceae	Menthe aquatique ; calament des marais	Water – mint	فودنج نهري = فليّو نهري	113
-ق-				
Ecbalium elaterium Rich. Cucurbitaceae	Concombre sauvage ; c. d'âne	Squirting - cucumber	قثاء الحمار (دهن) (تونس : فقوس البهائم)	114
Urtica pillulifera L. Urticaceae	Ortie romaine	Roman nettle	قريص (دهن) = انجرة (تونس : حُرّيقة)	115
Carthamus indicus L. Asteraceae	Carthame ; Safran d'Inde ; Safran bâtard	Safflower ; Bastard saffron	قرطم	116
Cucurbita maxima D. Cucurbitaceae	Courge ; potiron Citrouille	Large gourd ; Potiron	قرع حلو (دهن الحب)	117
Costus arabicus L. Zingiberaceae	Costus arabique	Arabian costus	قسط	118

Arundo donax L. Gramineae	Roseau ; canne	Bamboo ; Cane	قصب حلو	119
Vicia sp. Ex Leguminosae	Vesce	Vetch ; tare	قطاني	120
Brassica oleracea, var. botrytis Brassicaceae	Chou-fleur	Cauliflower	قنبيط = قرنبيط	121
Ferula galbaniflua Bois. Apiaceae	Galbanum	Galbanum plant	قنة	122
Centaurea centaurium L. Asteraceae	Centaurée	Centaury	قنطريون	123
			- ك -	
Linum usitatissimum L. Linaceae	Lin	Flax	كتان (دهن)	124
Allium porrum L. Liliaceae	Poireau	Leek	كراث (ماء الكراث)	125
Apium graveolens L. Apiaceae	Céleri ; ache	Celery	كرفس	126
Brassica oleracea L. Var. capitata Brassicaceae	Chou potager	Cabbage	كرنب = بقلة الانصار	127
Coriandrum sativum L. Apiaceae	Coriandre	Coriander	كزبرة (حب) (تونس : تابل)	128
Cuscuta .epithymum L Cuscutaceae	Cuscute ; épithym ; cheveux de Vénus	Dodder of thyme	كشوت = اكشوت	129
Teucrium chamaedrys L. Lamiaceae	Germandrée Petit-chêne	Common germander	كمادريوس	130
Gypsophilla Struthium L. Caryophyllaceae	Saponaire d'Orient S. d'Egypte	Soap root	كندس	131
Pityoxylon succinifer Krauss (Résine fossile)	Ambre jaune ; succin	Yellow amber	كهربا	132

		-ل-		
Convolvulus arvensis L. Convolvulaceae	Liseron des champs	Bindweed	لبلاب = البقلة الباردة	133
Vigna sinensis L. ou Dolichos catjang L. Fabaceae.	Bonnette; Dolique à œil noir	Bean	لوبيا	134
Prunus amygdalus Stock Amygdalus communis L. Rosaceae	Amandier	Almond	لوز حلو (دهن - دهن اللوزتين)	135
Nymphaea lotus L. Numphaeceae	Lotus ; Nénuphar	Nenuphar	لينوفر = نيلوفر (دهن)	136
		-م-		
Phaseolus mungo L. Ex Leguminosae	Haricot mungo	Green gram	ماش - حبة الماش	137
Cordia myxa L.		انظر رقم 75	مخيطا = سبستان	138
Commiphora myrha Engl. Burseraceae	Myrrhe (du Yémen ; arbre à myrrhe)	Myrrha	مر يماني	139
Origanum majorana L. Lamiaceae	Marjolaine ; origan	Sweet -marjoram	مرزنجوش = مردقوش	140
Pistacia lentiscus L. Anacardiaceae	Lentisque ; Mastic	Mastic-tree	مصطكى	141
Commiphora mukul Engl. Burseraceae	Bdellium	Indian bdellium	مقل = مقل اليهود	142
Corchorus olitorius L. Tiliaceae	Corette ; mauve des juifs ; mélochie	Jew's-mallow	ملوخيا = ملوخية = ملوكية	143
Liquidambar orientalis Mill. Hamamelida-ceae	Styrax liquide	Liquid storax	ميعة سائلة	144

		- ن -		
		انظر رقم 84	ناردين (دهن) = سنبل	145
Narcissus poeticus L. Amaryllidaceae	Narcisse ; narcisse des poètes	Poet's -narcissus	نرجس = عبهر	146
Mentha piperita Smith. Lamiaceae	Menthe poivrée	Peppermint	نعنع (ماء) (تونس : نعناع)	147
Thymus glober Mill. Lamiaceae	Serpolet	Wild-thyme	نمّام	148
Terminalia citrina Roxb. Combretaceae	Myrobalan citrin ; Terminalier citrin	Hara nut tree	هليلج أصفر = إهليلج أصفر	149
Terminalia chebula Retz. Combretaceae	Myrobalan chébule M. de Kaboul ;	Black-myrobalan Chebulic-myrobalan	هليلج كابلي	150
Terminalia horrida Stend. Combretaceae	Myrobalan indien	Indian-myrobalan	هليلج هندي (هليلج هندي شعيري)	151
Asparagus officinalis L. Liliaceae	Asperge	Asparagus ; Sparrow-grass	هليون (تونس : سكوم)	152
Cichorium endivia L. Asteraceae	Endive ; Chicorée blanche	Endive ; Chicory	هندبا- هندباء	153
		- و -		
Rosa alba L. Rosaceae	Rosier blanc	White rose	ورد (ورق) (ورد ابيض)	154
Rosa gallica L.	Rosier rouge	Common rose	ورد احمر	155
Dorema ammoniacum Don Apiaceae	Dorème ammoniac ; Gomme ammoniac	Dorema ; Gum ammoniacum	وشق	156
		- ي -		
		انظر: فربيون- رقم 108 (Plantes à latex)	يتوع : ج . يتوعات	157

ملاحظة هامة : إن أسماء النباتات الطبية وفصائلها وكذلك الأسماء باللاتينية الواردة في هذا الفهرس، مطابقة للأسماء العلمية الحديثة الى موفى شهر ديسمبر 2008 .

الأشكال الصيدلانية الواردة في الكتاب

Les formes pharmaceutiques citées dans l'ouvragePharmaceutical Forms

Français	English	العربية	
Huiles médicinales	Medicinal oil	أدهان (ج. دهن)	1
Suppositoires	Suppository	أشياف (ج. شياف) (التي تحتمل من أسفل)	2
Hieras	Hiera	أيارج	3
Suppositoires	Suppository	بسامح (أو بسائج؟) (تحتمل في المقعدة)	4
Pilules (de la grosseur d'une noisette)	Pills ; Tablets	بنادق (ج. بندقة)	5
Julep	Julep	جلاّب	6
Electuaires	Electuary	جوارشنات (ج. جوارش)	7
Poudre médicinale (pour l'usage externe)	Medicinal powder (for external use)	ذرور	8
Poudre médicinale (pour l'usage interne)	Medicinal powder (for internal use)	سفوفات (ج. سفوف)	9
Poudres nasales	Nose powders	سعوطات (ج. سعوط)	10
Onguents ou liniments (pour oindre)	Liniments or Ointments	لطوخات (ج. لطوخ) (توضع فوق الصرة)	11
Confitures ; pâtes médicinales	Jams ; Medicinal pastes	معجونات	12
Décoctions (chaudes, on y trempe la tête du malade)	Hot decoctions	نطولات (ج. نطول) (تصب على الرأس)	13

فهرس الأوزان الطبية
الواردة في كتاب الماليخوليا[1]

Equivalences (usuelles) des poids médicinaux cités dans l'ouvrage

Dirham	3,09g غ	درهم
Mithqâl	4,12g غ	مثقال
oukia Ouqia ; once ;	33,10g غ	أوقية
Ratl	397,20g غ	رطل[1]
Dâniq	0,514g غ	دانق[2]
Soukourrajah ; écuelle	79,45g غ	سكرّجة[3]

(1) - هذه التسويات أوردناها على سبيل التقريب وذلك نظرا لاختلاف الأوزان حسب البلدان.
(2) رطل : يساوي 12 أوقية .
(3) الدانق: يساوي سدس الدرهم
(4) سكرجة: توجد نوعان : الصغيرة، وهي تساوي 3 أواقي
: الكبيرة وتساوي 6 أواقي

1. ابن أبي أصيبعة: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ـ دارالفكر، 2ج - بيروت 1957 (ج 3- ص. ص. 58-56).
2. ابن أحمد (الخليل): «كتاب العين» ـ مكتبة لبنان 2004 .
3. ابن البيطار: «تنقيح الجامع لمفردات الأدوية و الأغذية ـ تحقيق وتهذيب محمد العربي الخطابي، بيروت 1990 .
4. ابن الجزار (أحمد): «كتاب زاد المسافر و قوت الحاضر»، 2 ج، تحقيق محمد السويسي- الراضي الجازي- فاروق العسلي- جمعة شيخة. طبع بيت الحكمة ـ قرطاج، تونس 1999 .
5. ابن الجزار (أحمد): «كتاب طب الفقراء و المساكين» ـ تحقيق الراضي الجازي وفاروق العسلي. طبع بيت الحكمة ـ قرطاج، تونس 2009.
6. ابن الجزار (أحمد): مخطوطة: «رسالة في النسيان وعلاجه» ـ مخطوطة رقم 292ms. v. مكتبة أكاديمية العلوم بلشبونة -البرتغال.
7. ابن جلجل (أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي): «طبقات الأطباء والحكماء» ـ تحقيق فؤاد السيّد. مؤسسة الرسالة -طبعة ثانية- بيروت 1985 (ص. ص. 87-84).
8. ابن سينا: «القانون في الطب» 3 ج، دار الفكر بيروت 1999 .
9. ابن عذاري: «البيان المُغرب» 4 ج، دار الثقافة، بيروت 1983 (ج. 1-ص. 122).
10. ابن ميلاد (أحمد): تاريخ الطب العربي التونسي- طبعة تونس 1980 .

11. ابن مراد (إبراهيم): بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب- طبع دار الغرب الإسلامي 1991 .
12. ابن نوح القمري (أبو منصور) «التنوير في الاصطلاحات الطبية»، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض 1991 .
13. لسان العرب لابن منظور، طبع دار صادر بيروت 1300 هـ.
14. البستاني (بطرس) : محيط المحيط ـ قاموس مطوّل للغة العربية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1998 .
15. الجازي (الراضي): اسحاق ابن عمران- مجلة الصيدلي التونسي، عدد 13- سبتمبر 1984 (ص. ص. 44-43).
16. الجزائري (عبد الرزاق): «كشف الرموز» المطبعة الثعالبية- ردوسي قدور- الجزائر 1927 .
17. دوزي: «المكمل للقواميس العربية» 2 ج، طبعة لايْد ـ هولندا -1881، طبعة ثانية بيروت 1981 .
18. عبد الوهاب (حسن حسني): «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية» 3 ج، مكتبة المنار ـ تونس ـ 1972- 1981 (ج. 1 ص. ص. 236-233).
19. عيسى (أحمد): «معجم أسماء النبات» ـ دار الرائد العربي، طبعة ثانية، بيروت 1981 .
20. الطويلي (أحمد): «حدث بالقيروان، ـ من فتح افريقية إلى 1981» نشر بيت الحكمة ، تونس 2009 .
21. كازيمرسكي: «كتاب للغتين العربية و الفرانسوية» ج 2، طبعة ميزوناف ـ باريس 1960 .
22. محفوظ (محمّد): «تراجم المؤلفين التونسيين» 5 ج، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1982.

فهرس الأعلام
الذين وقع ذكرهم في الكتاب

I. الأعلام القدامى:

1) أفلاطون (428 ق م ـ 347 ق م) Platon

هو فيلسوف و طبيب يوناني من أثينا ذكره إسحاق مرّتان: ص.ص. 29، 39.

2) روفس الإفسيسي Rufus d'Éphèse

عاش من نهاية القرن الأول م. إلى بداية القرن الثاني م. ويلقّبه ابن عمران «بروفس الحكيم» أو «روفس الطبيب» و يذكر كتابه «تدبير العوام» وكذلك «في المالنخوليا» الذي يعدّ على الإطلاق أهم كتاب حل هذا المرض في العصر القديم . ذكره إسحاق 7 مرّات: ص. ص. 29، 44، 49، 82، 94.

3) جالينوس (131-201 م). Claude Galien

طبيب يوناني ولد بمدينة برغامة بتركيا Pergame وعاش وتوفي برومة. يلقبه إسحاق بالمعلم و يصفه دارمبرغ Daremberg «بالقمّة الشاهقة للطب اليوناني» le point culminant de la médecine grecque ينسب لجالينوس أكثر من 200 كتاب. اعتمده إسحاق 23 مرّة: ص. ص.30، 36، 39، 41، 57، 64، 70، 71، 72، 74، 76، 82، 90، 96.

4) أبقراط Hippocrate

أشهر طبيب في التاريخ، ولد بجزيرة كوس Cos سنة 460 ق. م. وتوفّي سنة 356 ق.م. يذكر ابن عمران كتابيه « الأفديميا» Épidémies و«الفُصول» Aphorismes وأشار إليه 3 مرّات: ص. ص. 40، 46، 53.

5) أسقليبوس **Asclepius**

طبيب يوناني عاش بالإسكندرية بين القرنين السادس والسابع ميلادي وتنسب إليه شروح على كتب أبقراط. . ذكره إسحاق مرّة واحدة ص. 46.

6) ديوقلس **Dioclès de Caryste**

طبيب يوناني عاش في القرن الثالث ق. م. أثنى عليه جالينوس في كتبه ونسب إليه تحديد الداء الشراسيفي. ذكره إسحاق مرّة واحدة ص. 49.

7) بلاديوس **Palladius**

طبيب يوناني يلقّب بالإسكندراني، درّس بالإسكندرية في القرن السادس وشهر بكتابه «شرح كتاب الفصول لأبقراط». ذكره إسحاق 3 مرّات: ص. ص. 54.

II. الميثولوجيا:

أرقاوس: «واضع اللحون» و شاعر. **Orphée**

بطل أسطوري، مذكور في روايات الميثولوجيا الإغريقية خاصة كمشارك في «رحلة الأرغو» Argonaute. تنسب إليه فضائل كثيرة، منها قدرته على بهر الوحوش بألحانه. ذكره إسحاق مرّة واحدة في المقالة الثانية ص. 70.

III. الأعلام العرب:

الكندي: (-801 873 م.) **Al Kindy**

هو أول من اشتهر بالفلسفة عند العرب يذكر ابن عمران «يعقوب ابن إسحاق الكندي» مرّة واحدة ص. : 70.

Ishâq Ibn Imrân

TRAITÉ DE LA MÉLANCOLIE

Présentation, traduction française
et commentaires
par le Dr. Adel OMRANI

Académie tunisienne des Sciences,
des Lettres et des Arts
Beït al-Hikma

Traité de la mélancolie d'Ishâq Ibn Imrân / Adel OMRANI-Tunis: Académie tunisienne des Sciences, des Lettres et des Arts *Beït al-Hikma*.2009
(Tunis : imprimerie Maghreb Editions) 244p, 24cm - Relié.
I.S.B.N: 978-9973-49-087-2

Il a été tiré de cet ouvrage 700 exemplaires
dans sa première édition.

Carthage, 2009

Sommaire

Avant-propos

L'Académie tunisienne « Beït al-Hikma » a entrepris, depuis de nombreuses années déjà, la réhabilitation du patrimoine scientifique arabe, en publiant notamment ce qu'il est convenu d'appeler « l'encyclopédie médicale » d'Ibn Al-Jazzar. Le présent ouvrage, dû à Ishâq Ibn Imrân, a été écrit à Kairouan, vers la fin du IX^{ème} siècle après J.C. Il est le plus ancien manuscrit entièrement dédié à la mélancolie qui nous soit parvenu et le plus ancien livre connu de médecine arabe en Ifriqiya. Grâce aux Professeurs Adel Omrani et Radhi Jazi qui en ont établi une remarquable édition critique, le lecteur pourra découvrir ce livre, traduit en latin par Constantin l'Africain et demeuré pendant des siècles une des principales références pour le traitement des « dérèglements de l'atrabile ».

Sur le plan historique, il constitue un instantané des conceptions médicales de l'époque et permet de comprendre la continuité de la médecine arabe avec les apports grecs et romains. Sur le plan clinique, il offre une fine description de la maniaco-dépression. En reprenant les formes décrites par Galien, Ibn Imrân se démarque des conceptions purement thymiques et insiste sur l'importance, que revêt pour le diagnostic, de connaître le tempérament prémorbide.

Aujourd'hui, ce traité nous paraît d'une surprenante actualité : définition de la mélancolie, étiologie, formes cliniques et pathogénie, formes associées, puis le traitement qui fait à lui seul l'objet de tout le second essai. Pour l'étiologie, l'auteur avance des causes anténatales, des causes physiques ou psychiques. Il n'attribue aucune influence aux causes surnaturelles, démonologiques ou magiques. Sur le plan thérapeutique, Ibn Imrân a peut-être accordé trop d'importance aux pratiques de purgation, mais il a réussi à

esquisser les grandes lignes de l'éventail thérapeutique du trouble bipolaire.

Nous avons donc affaire à un modèle du genre, selon le chercheur allemand H. Schipperges, qui a souligné, dès 1967, son influence décisive sur la médecine psychosomatique en général.

Le Président de l'Académie

Abdelwahab Bouhdiba

Remerciements

Tout d'abord, je tiens à remercier le Pr Hagop Akiskal, professeur de psychiatrie à l'Université de Californie à San Diego (UCSD) qui a été le véritable instigateur de ce travail. Il s'était étonné d'apprendre qu'une œuvre de cette importance n'a été ni traduite, ni éditée. Il est clair que l'histoire de la mélancolie ne débute pas en 1621, avec « The Anatomy of Melancholy » de Burton.

Je remercie aussi mes collègues, les Docteurs Chamseddine Mabrouk et Fethi Nacef qui m'ont communiqué des documents relatifs à cette œuvre. Ma reconnaissance va aussi au Professeur Saïda Douki pour l'intérêt qu'elle a porté à ce travail et pour l'immense effort qu'elle consent pour sensibiliser les psychiatres de notre pays aux troubles de l'humeur.

Je voudrais aussi dire tout le bonheur que j'ai eu à collaborer avec le Dr Radhi Jazi, éminent historien de la pharmacie et éditeur de plusieurs œuvres d'Ibn al-Jazzar. J'ai pu, ainsi, profiter de son érudition et de sa jeunesse d'esprit ; j'espère, pour ma part, avoir réussi à prolonger la longue amitié –vieille de cinquante ans- qui le lie à mon père.

Pour terminer, je voudrais remercier le Pr Abdelwahab Bouhdiba, mon professeur de sociologie et président de l'Académie Tunisienne des Sciences, des Lettres et des Arts «Beït al-Hikma» pour avoir accepté de publier cet ouvrage. Ceci permettra, pour la première fois, de mettre ce monument médical tunisien à la disposition des publics arabophone et francophone. J'espère que sa lecture participera à aiguiser notre conscience de notre riche passé et stimulera notre effort pour un avenir meilleur.

Tunis, le 10 octobre 2009

Dr Adel Omrani

Psychiatre

Maître ès sociologie

GÉNÉALOGIE DE LA MÉLANCOLIE

Place et importance de la *Maqâla fi-l mâlîkhûlîa* d'Ishâq Ibn Imrân dans l'histoire de la psychiatrie

INTRODUCTION

Lorsqu'il entreprit d'écrire son traité sur la mélancolie, Ibn Imrân avait déjà derrière lui une longue expérience de la vie ; mais pouvait-il, un seul instant, se douter du destin tragique qui allait, dans peu de temps, s'abattre sur lui ? Pouvait-il s'imaginer que tous ses livres, excepté la *Maqâla fi-l mâlîkhûlîa*, allaient être perdus et que, durant plus de mille ans, son apport à la médecine allait être totalement occulté ? Il est clair qu'il était loin de s'imaginer tout cela.

Ishâq Ibn Imrân était, certes, un grand médecin mais il n'avait ni la valeur d'un Avicenne ni le prestige d'un Hunain. Aussi, s'effaça-t-il rapidement des mémoires jusqu'à ce que, progressivement, on redécouvre son manuscrit sur la mélancolie(1). D'un point de vue historique, cette découverte est d'une importance considérable car **le *Traité* est le plus ancien ouvrage au monde entièrement dédié à la mélancolie, qui nous soit parvenu entier**.

A partir de la fin du XIXème siècle, on assista à un regain d'intérêt pour Ibn Imrân ; ce fut d'abord Lucien Leclerc(2) qui le fit connaître en Europe ; plus tard, des lettrés tunisiens et maghrébins, peut-être attirés par son destin hors-norme, vinrent à s'intéresser à lui. En 1908, Ahmed Chérif(3), dans sa thèse de médecine, présenta le *Traité*

(1)Manuscrit Fond arabe ms. 805 dans un recueil de 282 pages. Bayerische Staatbibliothek München, RFA.

(2) L. Leclerc, *Histoire de la médecine arabe* Paris, 1876, pp.408-409.

(3) A. Chérif, *Histoire de la médecine arabe en Tunisie*, Thèse de médecine N° 33, Bordeaux 1908, pp. 31-42.

et en traduisit, en français, de larges extraits. En 1954, Ben Yahia[1] démontra que *De Melancholia* n'était en fait que la traduction latine de la *Maqâla*. En 1977, Garbers[2] publia, en allemand, une étude comprenant aussi bien le texte latin de Constantin l'Africain que le fac-similé du texte arabe d'Ishâq. En 1979, Ben Mabrouk[3], encadré par Sleim Ammar, présenta une analyse du *Traité* pour ce qui allait devenir la première thèse de médecine en arabe soutenue à la Faculté de médecine de Tunis. En 1980, R. Boubaker[4] présenta à Paris, une thèse de médecine avec une traduction en français de la *Maqâla*. Cette traduction, d'une bonne qualité philologique, trahissait cependant une méconnaissance de l'histoire des idées sur la mélancolie ainsi que de la clinique fine de la maniaco-dépression. Elle comportait aussi de multiples confusions concernant les médicaments simples utilisés par Ibn Imrân dans ses préparations.

Cet inventaire des études sur le *Traité* montre l'intérêt croissant pour Ibn Imrân ; en même temps, il révèle quelque chose d'inimaginable : **plus de mille ans après sa rédaction, le *Traité de la mélancolie* reste encore non publié dans sa langue d'origine!** A. Chérif, B. Ben Yahia et S. Ammar avaient, chacun à son tour, promis de le traduire et de le publier; leurs innombrables responsabilités ainsi que la difficulté de la tâche ont dû les empêcher de réaliser ce vœu. C'est donc un desideratum que nous essayons de combler aujourd'hui et c'est à la mémoire de ces trois pionniers, que ce modeste travail est dédié.

---

(1) Boubaker Ben Yahia « *Les origines arabes du « De Melancholia » de Constantin l'Africain.* » Revue d'histoire des sciences et de leurs applications, Année 1954, Volume 7, Numéro 2, p. 156 – 162.

(2) K. Gerbers. *Maqala Fi L-Malihuliya*: Abhandlung uber Die Melancholie, H. Buske, 1977.

(3) Hamouda Ben Mabrouk Chemceddine « *A propos du Traité de la mélancolie d'Issac Ibn Omrane* » Thèse de médecine Tunis. Année 1979/80 N° 425.

(4) Boubakeur Rokaya, *Kitab Al Malikhulia ou Monographie sur la mélancolie d'Ishâq Ibn Imrân*-Thèse de Médecine, Paris VI, 1980, N° 16, 176 p.

LA VIE ET L'ŒUVRE D'ISHAQ IBN IMRÂN

On sait très peu de choses sur la vie d'Ibn Imrân avant sa venue, vers 877, à Kairouan. Ibn Joljol se contente de préciser qu'Ishâq est « de confession musulmane et originaire de Bagdad ». Néanmoins, une chose est sûre : il devait être suffisamment célèbre pour qu'Ibrahim II l'invite à être son médecin personnel. Ce prince aghlabide « passionné de mathématiques et d'astronomie » souffrait d'insomnies rebelles à un tel point, qu'il a décidé de bâtir sa nouvelle capitale près d'une clairière où il a pu se laisser facilement prendre dans les bras de Morphée. La capitale s'appellera Raqada, "le lieu qui amène le sommeil".

Ishâq n'avait pas la stature d'un Bakhtishu, aussi a-t-il dû accepter la proposition d'Ibrahim II pour offrir un nouvel horizon à sa carrière. Sa méfiance vis-à-vis de l'aghlabide devait être grande puisqu'il exigea un sauf-conduit écrit de la main du prince qui lui permettra de retourner dans son pays quand bon lui semblera. La suite des événements lui donnera raison : son "aventure ifriqienne" finira par lui coûter la vie.

Après l'abdication forcée d'Ibrahim[1] et l'arrivée au pouvoir de Ziyadet Allah III, les relations entre ce prince sanguinaire et son médecin se dégradèrent à un tel point que le despote lui fit suspendre sa pension et le mit en prison. Leur dernière discussion pris un cours dramatique et aux sarcasmes du prince, il aurait rétorqué: « Espèce de mélancolique ! »[2]. Ibn Imrân payera de sa vie, sa franchise : Ziyadet Allah lui fit ouvrir les veines pour le faire saigner à mort, ensuite il ordonna de crucifier son corps, suffisamment longtemps pour qu'un oiseau de proie en fasse son nid !

Telle fût la fin d'Ishâq Ibn Imrân, dont Ibn Joljol disait qu'il était : « un médecin habile, versé dans la composition des médicaments, expert dans le diagnostic des maladies; comparable aux Anciens par sa science et par la qualité de sa pensée.»

---

(1) Ibrahim II a été forcé à abdiquer par le Calife, en 902, suite aux plaintes répétées de ses sujets excédés par sa tyrannie.

(2) Le récit de cette rencontre est relaté par Ibn Joljol.

L'œuvre connue d'Ibn Imrân comprend 13 livres ; les douze premiers ont été cités par Ibn Abi Usaybiaa, le dernier par Carl Brockelmann :

1. Le livre des médicaments simples.
2. Le livre du principe et du complément en médecine.
3. Monographie sur l'hydropisie.
4. De la récréation de l'esprit.
5. Traité de la mélancolie.
6. Traité des saignées.
7. Monographie sur les coliques, leurs variétés et examen de leurs remèdes.
8. Le livre du pouls.
9. Le livre des urines d'après Hippocrate, Galien et autres auteurs.
10. Questions se rapportant au vin.
11. Essai sur la blancheur du pus, les dépôts urinaires et la blancheur du sperme.
12. Eclaircissement sur les remèdes réputés antalgiques.
13. Le livre des fruits.

De tous les livres d'Ishâq Ibn Imrân, seul le *Traité de la mélancolie* survivra. Ben Yahia cite quatre autres lettres et chapitres qui ont été également conservés :

1. Un fragment de pharmacopée, Escurial, é, 887, 6 ; c).
2. Une lettre à l'un de ses amis dans *Al-Iqd al-Farid* العقد الفريد t. VIII, p. 47-48, Le Caire, 1949.
3. Une épître de sept pages sur la conservation de la santé (Hygiène) qui fait partie d'un manuscrit appartenant à Fouad as Sayed.
4. Un chapitre sur les tryphera qui fait immédiatement suite au *Traité de la mélancolie*.

Parmi les ouvrages d'Ibn Imrân, deux se détachent du lot : le *Traité de la mélancolie* et le *Livre des simples* qui est cité plus de 150 fois par Ibn al-Baïtar dans son *Kitab al-Jami fi al-Adwiya al-Mufrada*.

LES ÉCRITS ARABES SUR LA MÉLANCOLIE, AVANT IBN IMRÂN :

Le chroniqueur Ibn Joljol précise dans sa biographie d'Ibn Imrân, que la *Maqâla* était une œuvre pionnière, « qui n'a pas eu son pareil » [1](لم يسبق إلى مثله). Ceci pourrait soit signifier une antériorité chronologique, soit témoigner de la qualité de l'œuvre.

Toutefois, il existe des éléments qui laissent penser que la mélancolie a intéressé les auteurs arabes bien avant Ishâq. Pour commencer, un fait est sûr : le livre de Rufus sur la mélancolie a été traduit en arabe à Bagdad ; mais quand et par qui ? A-t-il été directement traduit du grec à l'arabe ou l'a-t-il été à partir d'une version syriaque ? Nul ne le sait vraiment. Pormann, citant Gutas[2], affirme que le traité de Rufus a été traduit à Bagdad par des nestoriens chrétiens. S'agit-il vraiment de Hunain (qui est en fait jacobite) ou d'un autre traducteur, d'autant que Hunain s'attribue un livre sur le traitement des mélancoliques[3] et non une traduction ?

Nous citerons aussi, Sarabiyun Ibn Ibrahim (à ne pas confondre avec Jean Sérapion) qui a écrit les *Chapitres essentiels de la médecine des Maîtres*[4] où il expose plusieurs histoires de cas, dont six se rapportant à des mélancoliques. Dans un livre à paraître, Eghigian[5], publie trois cas cliniques attribués par Sarabiyun à Rufus et le situe aux alentours de 873, alors que Pormann le situe au XIIème siècle puisqu'il citerait Avicenne[6]. Ces éléments contradictoires et incertains laissent penser que le savoir sur la

(1) On pourrait aussi traduire par précurseur.

(2) Nous avons relu plusieurs fois l'excellent *Pensée grecque, culture arabe* de Gutas sans retrouver cette information.

(3) C'est le *Livre de traitement des mélancoliques* (كتاب في تدبير السوداويين) qui est cité par Ibn Abi Usaybiaa p. 273 et dont on n'a, malheureusement, aucune trace. De plus, ce dernier attribue à Ibn Masawaih, le maître de Hunain, un traité sur la mélancolie.

(4) Le titre arabe de l'ouvrage est : الفصول المهمة في طب الأئمة.

(5) Greg Eghigian, *From Madness to Mental health*, à paraître en 2010.

(6) Rufus of Ephesus: *On Melancholy* (ed. Pormann P. E). Mohr Siebeck 2008, p. 18.

mélancolie était plus qu'épars, lorsqu'Ibn Imrân décida d'écrire son *Traité*.

Dans le préambule de son livre, ce dernier explique ses motivations :

« Puisque l'étude de ce mal et de ses causes était dans un tel état de négligence de la part des Anciens, en particulier chez Galien, qui ne lui consacre aucun ouvrage spécial, se contentant d'en parler incidemment dans ses écrits, nous avons jugé nécessaire de composer un traité sur cette affection, sur ses formes et sur son traitement, en utilisant un discours précis, riche, exempt de longueurs et de redondances. »

1. L'ambition d'Ibn Imrân est très explicite : il s'agit de **combler un vide** et de **structurer un savoir**. L'ouvrage à composer se doit d'être condensé, clair et pratique ; on est plus sur un projet de précis que sur celui d'un compendium.

2. Ibn Imrân se met d'emblée sous l'autorité des Anciens, sans toutefois la subir vraiment. Ainsi, tout en louant Rufus pour son effort, Ishâq précise que son ouvrage est incomplet et qu'il nécessite d'être mis à jour[1]. Galien a beau jouir d'une aura incontestée, Ishâq nous informe qu'aucun de ses écrits (environ 200) n'est consacré à la mélancolie dont il n'a parlé que d'une façon disséminée. Ibn Imrân a une démarche constructive, il est conscient de la difficulté d'écrire sur la mélancolie, « aussi remerciements et éloges sont-ils dus à quiconque qui apporte la moindre parcelle de vérité dans l'intérêt de tous. »

3. Son public est bien défini : l'ouvrage est destiné, avant tout, aux gens de la profession médicale, ensuite à tous les érudits et toutes les personnes cultivées de toutes les classes. Ibn Imrân, à qui

(1) Razi fait remarquer dans le *Hawi* que Rufus n'a décrit que le type hypocondriaque de la mélancolie et s'étonne que Galien n'ait pas relevé cela. Ce constat renforce l'opinion, selon laquelle Ibn Imrân est loin d'être un simple imitateur de Rufus.
«و لم يذكر روفس إلاّ هذا الضرب وإنّي لأعجب من جالينوس كيف لم يقل أن روفس لم يذكر شيئا ولا علاجا إلاّ لضرب واحد من ضروب هذه العلّة» الحاوي- الباب الثالث.

Ibn Joljol attribue un intérêt pour la philosophie, renoue ici avec la tradition antique où la médecine était un sujet de discussion public.

ETAT DES SAVOIRS SUR LA MELANCOLIE A L'AUBE DU IXème siècle.

Pour essayer de comprendre la place qu'occupe la *Maqâla* dans l'histoire de la mélancolie, il conviendrait au préalable de se faire une idée sur l'état des connaissances sur cette maladie depuis les origines du concept jusqu'à ce qu'on a convenu d'appeler l'âge des traductions.

Nous restons conscient qu'une telle démarche est risquée, tant il est hasardeux de vouloir résumer en quelques pages un sujet qui dépasse très largement notre domaine de compétences. Nous écrivons ici en tant que médecin, non en historien de la médecine et encore moins en philologue.

D'habitude, les historiens de la psychiatrie analysent l'apport ancien de manière chronologique. Ils citent les différents auteurs en précisant l'apport de chacun d'eux, ses liens avec ses prédécesseurs et l'influence qu'il a eue sur ses successeurs. A l'opposé de cette démarche classique, nous avons préféré classer les principaux maîtres antiques selon trois « idéaltypes » ou catégories : les inventeurs, les organisateurs et les compilateurs.

LES INVENTEURS

Les inventeurs sont ceux qui ont découvert la maladie, défini ses formes cliniques ou déterminé ses modalités évolutives. Nous avons inclus dans cette catégorie : Hippocrate, Dioclès et Arétée de Cappadoce.

Hippocrate est l'auteur de l'aphorisme fondateur : « **Quand la crainte et la tristesse se prolongent, c'est un état mélancolique** » (Aphorismes VI, 23). En inscrivant deux symptômes ordinaires dans la diachronie, Hippocrate créa la mélancolie.

Un autre texte fondateur est la *description princeps* N°72, dans *Maladies II*[1] :

(1) Littré É., *Œuvres complètes d'Hippocrate*, Tome VII p.p.109-111; Baillière, Paris 1851.

« Souci, maladie difficile : le malade semble avoir dans les viscères comme une épine qui le pique ; l'anxiété le tourmente, il fuit la lumière et les hommes, il aime les ténèbres ; il est en proie à la crainte, la cloison phrénique fait saillie à l'extérieur ; on lui fait mal dès qu'on le touche, il a peur, il a des visions effrayantes, des songes affreux, et parfois il voit des morts. La maladie attaque d'ordinaire au printemps. A ce malade, on fera boire de l'hellébore, on purgera la tête ; et après la purgation de la tête, on donnera un médicament qui évacue par le bas.»

Avec cette définition et la description de cas, Hippocrate aura, pour longtemps, défini le cadre conceptuel de la mélancolie.

Asclépiades serait, selon Celse, l'auteur de la première division systématique de la maladie mentale en 3 catégories : 1) la ***phrenîtis***, de début brutal, est accompagnée de fièvre ; 2) une **tristesse** que la bile noire paraît provoquer, plus persistante et qui n'accusait pas de fièvre ; 3) une forme tout à fait chronique qui résulte soit d'un **désordre de l'imagination**, tantôt triste et tantôt gaie, soit **d'un désordre de l'intelligence**.

Dioclès a été consacré, par Galien, inventeur de l'hypocondrie. Lui-même ne revendiquait pas un tel honneur puisque dans son livre *Affection, cause, traitement,* il en concède la paternité à d'autres : « Il existe une autre affection de l'estomac différente des précédentes : les uns l'appellent mélancolique, les autres flatulente. ». Galien reprendra le concept, le corrigera au passage et scellera ainsi le destin commun de l'hypocondrie et de la mélancolie pour plus de mille cinq cents ans.

Arétée de Cappadoce occupe une place de choix dans l'histoire de la mélancolie, car il a été le premier à insister sur la transformation de la mélancolie en manie et *vice versa*. Cette notion négligée jusqu'au XIX^{ème} siècle, jouit actuellement d'un grand succès avec le concept de trouble bipolaire. Arétée semble, aussi, avoir été le premier à incorporer les causes morales et passionnelles dans le déclenchement de la mélancolie. L'apport du Cappadocien à la médecine est considérable ; n'empêche, il a été

très largement ignoré par les traducteurs arabes : était-ce à cause de son dialecte ionien archaïsant ou bien à cause des ses penchants pneumatiques ou éclectiques ?

LES ORGANISATEURS

Les organisateurs structurent le savoir et en fixent les modalités d'usage. Tel **Galien** qui, en quelques pages *Des Lieux affectés*, a pu fixer pour plus de mille cinq cents ans la classification de la mélancolie. Ses successeurs n'ont fait, au mieux, que le paraphraser et il faudra attendre Kraepelin pour assister à un nouveau grand ménage en psychiatrie.

Klibansky résume bien le rôle central du médecin de Pergame : « Par l'intermédiaire de son grand représentant Galien, l'éclectisme allait désormais s'imposer de manière quasi-incontestée, et Galien se donna comme tâche suprême de rétablir l'ancien humorisme, tel que l'esprit de l'époque l'avait modifié. L'éclectisme reprit parfois à son avantage le diagnostic et les découvertes des "asclépiadiens" et des "méthodiques", mais il ne pouvait reconnaitre aucune valeur d'autorité à leurs notions étiologiques.»[1] De plus, Galien, grâce à ses travaux anatomiques et physiologiques[2], donnera plus de solidité et de puissance aux écrits qui se réclameront de son école.

La place de **Rufus** dans cette typologie est beaucoup plus difficile à cerner. Certes, son *Traité* est le plus grand ouvrage sur la mélancolie de toute l'Antiquité, mais en l'absence du texte original, il sera difficile d'en évaluer toute la portée. Déjà, Ibn Imrân soulignait les lacunes de ce traité en précisant que Rufus « a toutefois limité son art à un cas particulier de cette maladie, le mal hypocondriaque, en occultant totalement ses autres formes.»

Vivian Nutton résume bien cette situation lorsqu'elle affirme que « Rufus occupe indiscutablement une place distinguée parmi

(1) Klibansky, Panofsky & Saxl: *Saturne & la mélancolie*. *nrf* 1985, p.99.

(2) Daremberg Ch., *Œuvres anatomiques, physiologiques et médicales de Galien*, 2 tomes. Baillière, Paris 1856.

les médecins de l'Antiquité ; mais en quoi consiste cette place, tout cela reste obscur.»[1]

Pour sa part, Van Der Eijk[2] précise qu'en l'absence de nouveaux éléments, Rufus reste au moins un grand commentateur des écrits hippocratiques, en particulier des *Epidémies*. Il le considère aussi comme un important doxographe et un compilateur rapportant des doctrines et préservant les fragments d'auteurs antérieurs. A l'opposé de Galien, Rufus polémiquait peu et citait encore moins ses sources, ce qui a rendu le traçage de sa pensée très ardu.

Les compilateurs

Les compilateurs rassemblent dans leurs ouvrages des informations provenant de différents auteurs. Ces informations peuvent être très importantes, mais elles ne modifient pas fondamentalement la conception que nous avons de la maladie et n'entrainent pas de changement radical dans la pratique, autant clinique que thérapeutique. Dans cette catégorie, on retrouve **Celse, Soranus** et son continuateur **Caelius Aurelianus** ainsi que les médecins byzantins **Oribase, Aetius, Alexandre de Tralles** et **Paul d'Egine**.

Soranus, par exemple, a introduit la notion de suspicion chez les mélancoliques. Elle ne quittera plus les descriptions cliniques de mélancolie jusqu'au XIX[ème] siècle où, grâce à Greisinger, elle intégrera la paranoïa. Du fait de l'éclectisme qui caractérisa le galénisme alexandrin tardif, les méthodes thérapeutiques de Soranus seront incorporées dans l'arsenal de soins de la mélancolie : ainsi les cataplasmes et la psychothérapique côtoieront, sans contradiction aucune, les saignées et les purgations.

A côté de ces médecins illustres, des noms beaucoup moins célèbres tels Palladius et Asclépius joueront un rôle de premier

(1) V. Nutton, « *Rufus of Ephesus in the Medical Context of his Time* » in Rufus of Ephesus: *On Melancholy* (ed. Pormann P. E). Mohr Siebeck 2008, p. 140.

(2) P. Van Der Eijk, « *Rufus 'On Melancholy and Its Philosophical Background* » in Rufus of Ephesus: *On Melancholy* (ed. Pormann P. E). Mohr Siebeck 2008, pp. 159-160.

plan dans la transmission du savoir médical hellénique aux Arabes. C'est que nous sommes à six siècles de Galien et que l'enseignement dispensé à Alexandrie se fait désormais à travers des summaria ou abrégés qui consistent en des commentaires (et parfois même des commentaires sur le commentaire) des textes d'Hippocrate ou de Galien. Ainsi, nous pouvons dire que l'héritage médical ancien est arrivé à l'orée du VIII^{ème} siècle semblable à un millefeuille condensé par les savoirs accumulés durant plus d'un millénaire, avec tout ce que cela suppose comme télescopages, blocs erratiques et contradictions. Vouloir présenter cet héritage comme un ensemble clair, cohérent et facilement disponible est certainement loin de la vérité.

LES DIFFÉRENTES ESPECES DE MÉLANCOLIE SELON IBN IMRÂN :

Il existe 3 espèces de mélancolie, pouvant chacune comporter plusieurs variétés selon le type d'humeur impliquée et son degré de transformation.

I. Une forme essentiellement cérébrale qui prend naissance dans le cerveau lui-même :

Elle se manifeste sous deux formes :

1. Une forme avec fièvre aiguë qui provient d'une **bile jaune** qui a commencé à se consumer, mais sans atteindre le terme de sa noirceur, ni le potentiel de nuisance propre à la bile noire. C'est le birsam, appelé par les Grecs ***phrenîtis***.

Le birsam se manifeste cliniquement par une agitation, une loquacité et des perceptions visuelles sans objet.

2. L'autre forme cérébrale comporte, elle-même, deux variétés :

i. Une mélancolie "idiopathique" qui a sa source dans la **bile noire naturelle** du cerveau. Quand cette atrabile locale domine la complexion du cerveau, elle provoque une **mélancolie léonine.**

Ses manifestations cliniques sont celles du tableau de manie franche; cette forme est dure à soigner, difficile à guérir.

ii. Une forme qui provient soit d'une **bile noire corrompue** qui ressemble à la lie du sang, soit d'un **chyme noir** qui n'est pas arrivé à son terme.

Sa symptomatologie et son évolution se ramènent à celles de la variété secondairement cérébrale.

II. Une forme générale et secondairement cérébrale :

Ici, **toutes les humeurs** peuvent se transformer sous l'effet de la chaleur naturelle et donner une véritable bile noire. Celle-ci va se répandre dans tout le corps et va progressivement s'élever des jambes jusqu'au cerveau qui sera, par conséquent, atteint "par sympathie".

Si la transformation est **complète,** elle donnera une véritable mélancolie. Les manifestations se feront par à-coups, en rapport avec les montées de bile noire.

Si la transformation est **incomplète,** on aura des formes mineures, cachées ou trompeuses de mélancolie.

III. Une forme hypocondriaque :

Quand la **bile noire** abonde dans le corps, elle le submerge et va se déverser **dans l'estomac** à travers le cardia ; il s'en suivra des conséquences graves pour "le corps et pour l'âme":

i. le cerveau est atteint par co-affection : directement, par les exhalations de vapeurs atrabilaires qui vont perturber l'esprit rationnel ; et indirectement, à travers l'altération de l'esprit animal situé dans le cœur par la chaleur du cardia tout proche.

ii. la faculté digestive est perturbée, d'où une mauvaise coction des aliments et création d'un cercle vicieux ; c'est pourquoi selon Ibn Imrân l'hypocondrie est si difficile à guérir.

Ullmann[1] -une autorité dans le domaine de l'histoire des sciences islamiques- laisse penser qu'Ibn Imrân n'a fait, dans une grande mesure, que reproduire la classification de Galien

(1) M. Ullmann, *La médecine islamique* ; PUF , Paris 1995, p.83-90.

et mentionner les mêmes symptômes. Ce jugement nous paraît excessif et ce pour plusieurs raisons :

1° La typologie d'Ibn Imrân est plus développée, plus affinée, moins «en vrac» que celle de Galien. Elle conserve les trois entités rufusiennes en les détaillant : d'où sept formes cliniques contre seulement quatre chez Galien.

Il est important de signaler ici, que le premier objectif d'une typologie est de rendre compte de la réalité clinique telle qu'elle est perçue –ou supposée être perçue- par le praticien au contact du malade. Elle répond aussi au besoin d'explication causale de la variabilité de la symptomatologie. Enfin, une typologie prépare l'intervention thérapeutique qui sera adaptée à chaque type clinique et, en dernier ressort à chaque étiologie.

2° Cette nouvelle classification laisse supposer une accumulation de savoir clinique (observations, nouveaux symptômes, etc.) depuis Galien jusqu'à l'époque d'Ibn Imrân. L'analyse des textes des auteurs byzantins et alexandrins tardifs (Oribase, Aetius, Alexandre de Tralles, Paul d'Egine) le confirme bien. Que l'ensemble de la partie clinique du *Traité* puisse ne pas être l'œuvre exclusive d'Ibn Imrân nous paraît une évidence; mais de là affirmer qu'il n'a fait que compiler des observations anciennes, ceci nous semble injuste. Bien sûr, on retrouve chez lui certaines descriptions cliniques ou "vignettes" recueillies chez les Anciens, comme cette femme qui avait peur que le ciel ne lui tombe sur la tête (Rufus, Galien) ou l'homme qui se croyait sans tête (Rufus, de Tralles) ou encore l'histoire du potier déjà citée par Archigène et légèrement modifiée par Rufus. Ces exemples, équivalents de nos « textbook cases », étaient repris à cause de leur grand pouvoir pédagogique et sont la preuve d'une remarquable stabilité de la sémiologie à travers les siècles. De nos jours encore, il n'est pas impossible de rencontrer des mélancoliques, avec un syndrome de Cotard, qui ressemblent comme deux gouttes d'eau aux patients d'Archigène, de Rufus ou d'Ibn Imrân.

3° La principale originalité clinique du traité réside, à notre avis, dans une élégante description des formes mineures de mélancolie,

celles qui affectent surtout le comportement et le relationnel et qu'une certaine littérature psychiatrique appelle aujourd'hui, selon les cas, névrose ou psychose de caractère. On y trouve aussi abordé, le problème de l'insight et de la compliance chez ce type de malades.

Pour expliquer la difficulté du diagnostic de ces formes cachées, Ibn Imrân précise que les mœurs humaines sont, par nature, variées et que la connaissance de la mentalité des gens, un par un, n'est possible que suite à une longue compagnie et à une fréquentation continue et dans la mesure où le praticien est un visiteur assidu, observateur averti des caractères, du tempérament, de l'apparence des gens. Pour lui, **la connaissance de l'état naturel aide à mieux identifier le malade** et à le soulager de façon non négligeable, en lui prodiguant précocement des soins. Lorsque le médecin est informé du caractère du patient alors qu'il est sain, il est à même de déceler rapidement la maladie dès qu'elle l'atteint.

Il s'agit là d'une grande leçon de clinique qui, malheureusement, reste encore incomplètement intégrée par nombre de praticiens. Car, contrairement à d'autres maladies mentales, la mélancolie ou maniaco-dépression se définit moins par la présence de certains symptômes que par une variation d'état. Pour Ibn Imrân; la maladie se définit à l'aune de la personne atteinte et non pas à celle d'un savoir médical théorique, fût-il immense. Il essaye ainsi de décentrer le problème, à savoir que la mélancolie n'est pas difficile à diagnostiquer en raison de la multiplicité de ses symptômes, certes réelle, mais en raison de la nature même de l'âme et aussi à cause de la diversité des êtres. Ibn Imrân exprime clairement cette difficulté lorsqu'il écrit que les symptômes de cette maladie sont « imperceptibles à cause de la diversité des caractères et de la complexité de l'esprit humain. ». Il ajoute aussi que la complexité de la mélancolie « laisse perplexes d'habiles médecins, qui n'ont pas une profonde connaissance de ce mal et de ses accidents. »

Ibn Imrân évoque aussi dans son *Traité* le problème de la compliance chez les mélancoliques, sujet déjà effleuré par les Anciens mais avec moins de pertinence : « Ils sont de toutes les

créatures de Dieu, celles qui réclament avec le plus d'insistance la présence du médecin, ils le supplient et lui prodiguent de l'argent. Mais s'il se présente à eux et accepte de les soigner, ils ne l'écoutent pas et ne suivent pas ses conseils. Cette attitude est spécifique aux mélancoliques et leur est indissociable. » Son expérience avec Ziyadet Allah, son patient et futur bourreau semble, pour une large part, lui avoir inspiré cette réflexion.

4° Contrairement à Razi, Ibn Imrân ne fait pas trop cas de la physiognomonie chez les mélancoliques : certains signes comme le blèsement (zozotement), le don de prophétie, le regard à terre, le raidissement du médius (introduit par de Tralles), la nature du pouls ne seront pas incorporés dans ses descriptions. Par contre, nous le voyons citer, dans la partie thérapeutique, des signes "hippocratiques" de mélancoliques comme la peau brune et les veines saillantes.

Enfin, Ibn Imrân n'abordera aucunement la notion de tempérament lié aux humeurs, laquelle, il est vrai, ne se structurera que beaucoup plus tard.

5° Dans sa tentative de classification, Ishâq écartera de la mélancolie certaines entités qui seront pourtant conservées par certains de ses illustres successeurs tels que Razi ou Avicenne. Il s'agit principalement de la lycanthropie ou *Qutrub*[1] (القطْرُب), de l'hydrophobie et de la mélancolie par possession démoniaque. Il assimilera la passion divine qui frappe les anachorètes et les ermites à une forme de mélancolie amoureuse mais il négligera l'acédie, ce démon de midi, qui après avoir frappé les moines d'Egypte, allait bientôt s'abattre sur les monastères d'Europe.

« Simplifier, c'est avancer » disait Klibansky : la profusion diagnostique en psychiatrie crée plus de confusion qu'elle n'en

---

(1) La lycanthropie clinique est une maladie psychiatrique dans laquelle le patient se croit transformé en loup ou, par extension, en tout autre type d'animal. La représentation dont se faisaient les Anciens, en particulier Avicenne, la rendait plus proche du mythe ; ceci pourrait expliquer son exclusion, par Ibn Imrân, du cadre de la mélancolie.

supprime. Avec ses 297 diagnostics, le DSM-IV n'a certainement pas rendu la pratique psychiatrique plus aisée.

6° Un aspect frappant du traité d'Ibn Imrân est l'absence de toute explication surnaturelle, magique ou démoniaque de la maladie mentale. On pourrait expliquer cela par son attachement au manifeste somatique d'Hippocrate, exprimé dans *Maladie sacrée*, et aux positions de Galien sur ce sujet. Ce « matérialisme médical » pourrait aussi avoir été renforcé par la suprématie, tout au long du IX[ème] siècle, du courant mutazilite. La conjonction de ces deux facteurs a dû rendre la position d'Ishâq intellectuellement plus confortable et lui permettre, tel Laplace, de négliger le surnaturel dans ses explications des processus de pathologie mentale. Rappelons, par ailleurs, que le mot arabe *waswas* (وسواس), qui signifie obsession, possède une forte connotation diabolique dans la religion musulmane. Ibn Imran peut ainsi, dépasser la position de Platon qui distinguait dans *Phèdre* « deux espèces de folie (*mania*), l'une qui est due à des maladies humaines, l'autre à un changement, sous l'influence divine, de nos usages ordinaires.»

Un siècle plus tard, Avicenne se sentira obligé de répondre, quoique d'une manière subtile, à certains médecins qui attribuaient aux Djinns un rôle dans la survenue de la mélancolie :

« Nous ne nous soucions pas, lorsque nous étudions la médecine, de savoir si les Djinns pourraient ou pas causer la mélancolie. Le fait est que cette maladie est provoquée par l'atrabile et ceci est sa cause immédiate et peu importe que la cause lointaine soit les Djinns ou toute autre chose. »[1]

Après Avicenne, la rationalité médicale aura, de plus en plus, du mal à s'imposer et personne ne sera étonné de voir Burton en 1621, consacrer dans son *Anatomy* environ 25 pages aux mélancolies divine, démoniaque, par possession et par sorcellerie.

(1) قد رأى بعض الأطباء أن المالنخوليا قد يقع عن الجنّ، ونحن لا نبالي من حيث نتعلم الطب أن ذلك يقع عن الجنّ أو لا يقع بعد أن نقول: إنه إن كان يقع عن الجنّ، فيقع بأن يحيل المزاج إلى السوداء، فيكون سببه القريب السوداء، ثمّ ليكن سبب تلك السوداء جنّا أو غير جنّ. (القانون 2 ص105)

LA MÉLANCOLIE ENTRE LE GÉNIE ET L'ÉPUISEMENT INTELLECTUEL

Depuis ses origines, la mélancolie a connu une paternité partagée. Conçue dans le creuset de la mythologie, elle a été consacrée maladie par Hippocrate, avant d'être révolutionnée par les péripatéticiens à travers le Problème XXX, 1. Ce texte, attribué à Aristote mais probablement écrit par son gendre Théophraste, pose la question du rapport entre le génie et la folie :

« Pour quelle raison tous ceux qui ont été des hommes d'exception, en ce qui regarde la philosophie, la science de l'État, la poésie ou les arts, sont-ils manifestement mélancoliques [....] saisis par des maux dont la bile noire est l'origine, comme ceux que racontent [...] les récits [...] consacrés à Hercule. Ses accès de folie contre ses enfants [....] rendent cela manifeste »[1]

Pigeaud avait raison d'écrire que « La mélancolie est la pointe la plus avancée de la réflexion médicale vers la philosophie »[2]. Cette condition a valu à la mélancolie d'être un sujet d'étude tellement partagé qu'Esquirol, en 1820, jugera le terme galvaudé et proposera de le laisser aux moralistes et aux poètes et de construire pour les médecins un nouveau terme plus rigoureux : la lypémanie.

Rufus, a été le premier à rétablir le lien, d'abord énoncé dans le Problème XXX, 1., entre la mélancolie et l'intellect, que les autres médecins avaient rompu[3]. Lui aussi voyait dans l'intellectuel, « l'homme de grande intelligence et d'esprit subtil », une victime potentielle de la mélancolie. Il rejoignait en cela Aristote qui dit : « Ceux dont l'intelligence est très fine et pénétrante tombent facilement dans la mélancolie.»

Mais il existait entre le médecin et le tenant de la philosophie naturelle un désaccord capital: pour l'auteur du Problème XXX, 1.,

(1) J. Pigeaud, *Aristote. L'homme de génie et la mélancolie*. Editions Payot et Rivages. 2006, p.81.

(2) J. Pigeaud, *La maladie de l'âme*. Les Belles Lettres 3e édition, Paris 2006, p. 124.

(3) Klibansky, Panofsky & Saxl: *Saturne & la mélancolie*. *nrf* 1985, p. 100.

la prééminence intellectuelle était une conséquence directe de la mélancolie naturelle ; pour Rufus, **l'activité de l'esprit devint la cause directe de la mélancolie maladive**.

Ce renversement d'optique sera déterminant pour l'histoire à venir de la mélancolie. Désormais, « il existera une opposition entre certaines perspectives et visées spécifiquement médicales et les vues propres aux tenants de la philosophie naturelle ou morale »(1).

Avec le galénisme tardif disparurent les dernières traces d'héroïsme dont était auréolé le mélancolique ; le lien qui unissait la mélancolie à la « réflexion profonde» ne sera totalement retrouvé qu'avec Ibn Imrân. Ceci pourrait expliquer, du moins en partie, le peu d'intérêt accordé par les médecins arabes aux *Problèmes* de Théophraste.

La même réflexion pourrait être faite à propos des *Lettres* du Pseudo-Hippocrate(2). Ibn Imrân qui a consacré un long développement sur le rire ne fait aucune allusion à celui de l'Abdéritain ni à la question de l'ambigüité de la folie, à savoir « qui est réellement fou? »; cette attitude tranche fortement avec le succès rencontré, après la Renaissance, par ces *Lettres*. Cet engouement pour la littérature médico-philosophique culminera chez Burton, qui placera sa somme sur la mélancolie sous l'égide de Démocrite.

Or, les médecins reprochent aux philosophes de ne voir dans la mélancolie qu'un potentiel de génie et d'oublier que cette terrible maladie est avant tout une souffrance et une dévastation de la créativité ; et s'il se trouve parmi les mélancoliques des êtres d'exception dotés d'une prééminence intellectuelle, c'est précisément **l'exception et non la règle**.

---

(1) J. Pigeaud, *La maladie de l'âme*. Les Belles Lettres 3e édition, Paris 2006, p 125.

(2) Y. Hersant, *Hippocrate. Sur le rire et la folie*. Rivages Poche, 1989.

Ibn Imrân semble avoir reçu une solide formation philosophique, selon la tradition du « médecin philosophe » héritée de Galien. Il cite fréquemment des philosophes (Platon, Al Kindy), analyse la mélancolie selon les catégories de connaissance ; il a même écrit une épître philosophique sur *La récréation de l'esprit*. Ibn Imrân semble aussi avoir été influencé par le néoplatonisme, alors en vogue en Orient. Toutefois, sa démarche procède plus de la "méthodologie philosophique" que d'une véritable philosophie ; un exemple typique de cette démarche est retrouvé dans le *Colliget* d'Averroès, où ce philosophe essaye de présenter la question médicale avec une démarche philosophique. Cette vocation d'associer philosophie et psychiatrie perdurera, au moins jusqu'au *Traité médico-philosophique sur l'aliénation mentale* de Pinel.

Dans un recueil sur Rufus, Toohey [1]suggère que les traits de personnalité obsessionnels-compulsifs, tels qu'ils sont définis par le DSM-IV, pourraient cadrer avec ceux du penseur mélancolique brossé par Rufus et développé par Ibn Imrân. Il est vrai que la personnalité obsessionnelle par son souci du détail, son perfectionnisme et sa dévotion au travail est une victime potentielle idéale pour le surmenage. Toutefois, ces traits sont partagés par d'autres profils tempéramentaux tels que le tempérament dépressif défini par Akiskal[2] ou le Typus melancholicus de Tellenbach. De plus, pour s'épuiser, encore faut-il avoir de l'énergie au départ et c'est pour cela qu'on retrouve une forte association entre les traits obsessionnels-compulsifs et la personnalité de type A.

A ce sujet, Ibn Imrân introduisit une notion très intéressante qui pourrait nous aider à trancher, à savoir que la méditation et la recherche de l'*apódeixis* chez ces intellectuels « dénote de la sagacité de leur pensée mais est, aussi, un signe de leur **morosité**

---

(1) Peter Toohey « *Rufus of Ephesus and the tradition of the Melancholic Thinker* » in *On Melancholy*, p. 240.

(2) Hagop Akiskal, *TEMPS-A: progress towards validation of a self-rated clinical version of the Temperament. Evaluation of the Memphis, Pisa, Paris, and San Diego Autoquestionnaire*. Journal of Affective Disorders 85 (2005) 3–16.

et de leur combustion par la mélancolie » et il ajoute que cette morosité est **naturelle** chez eux. Pour résumer, selon lui, les gens qui recherchent ce type de réflexion ont un penchant mélancolique naturel ; ceci nous rapproche plus des tempéraments dépressifs que de la personnalité obsessionnelle-compulsive proprement dite.

IBN IMRAN CONSACRE L'EXPLICATION PSYCHOGÉNIQUE DE LA MÉLANCOLIE

Dans sa revue des étiologies de la mélancolie, Ibn Imrân consacre définitivement l'importance des causes psychologiques dans la genèse de la mélancolie. Encore appelés événements psychiques ou émotions, les facteurs psychologiques font partie des six éléments fondamentaux, dont le juste équilibre détermine la bonne santé de l'individu.

L'observation montrait qu'à côté des mélancolies acquises à la naissance (la mélancolie naturelle des philosophes) et celles par rupture de l'équilibre naturel (alimentaire, purgation ou autre), il existait des mélancolies provoquées par des facteurs psychologiques ***al ahdath ennafsanya***. Rufus avait déjà évoqué cette étiologie dans ses commentaires sur les *Épidémies* d'Hippocrate[1], mais c'est à Ibn Imrân que reviendra le mérite de réaliser une belle et claire synthèse de la question.

Klibansky affirme qu'Ibn Imrân « alla plus loin que ses prédécesseurs : c'est essentiellement lui qui permit que les facteurs spirituels vinssent à nouveau au premier plan du tableau médical, tant dans le champ de l'étiologie que dans celui de la thérapeutique. »[2]

Schématiquement, nous pouvons regrouper les **causes psychologiques génératrices de mélancolie**, en trois catégories :

---

(1) Dans une de ses études de cas, Rufus relate l'histoire d'un jeune homme qui sombra dans la mélancolie après avoir été sauvé de la noyade. Voir Rufus *On Melancholy*, 2008, p. 70.

(2) Klibansky, Panofsky & Saxl: *Saturne & la mélancolie. nrf* 1985, p.144.

1° **L'ascèse émotionnelle** qui est à différencier de l'ascèse physique (jeûne et veille). Elle est aussi très différente de l'acédie qui serait à son opposé ; l'ascète d'Ibn Imrân est studieux, animé de désirs ou de craintes, contrairement à ces moines atteints par le démon de midi.

Ibn Imrân intègrera ici, avec beaucoup de subtilité, la **mélancolie amoureuse** dont le prototype sera l'amour exagéré de Dieu : « Ils tombent dans l'inquiétude et la passion qu'éprouvent les amoureux, au point d'altérer tout aussi bien le fonctionnement de leur âme que celui de leur corps, attendu que le corps suit l'âme dans ses actions et, inversement, l'âme suit le corps dans ses accidents.»

2° Le **labeur de l'esprit** et la recherche effrénée de vérité, lorsqu'ils ne sont pas satisfaits, conduisent aussi à la mélancolie.

3° La **perte d'objet** : le manque d'un être cher, les revers de fortune ou la perte d'un objet irremplaçable favorisent la fatigue psychique, qui est pire que la fatigue physique, et conduisent à la mélancolie. Cette formulation n'est pas sans rappeler certaines conceptions psychanalytiques sur la dépression.

Finalement tous les manques et toutes les pertes consument le corps de ces éprouvés. « Leur sang diminue, ce qui le corrompt et le transforme en bile jaune. Si un tel état persiste, dure et s'étend, le sang perd sa nature et son humidité nourricière et devient trouble, grossier et atrabilaire ; il mène ainsi à la mélancolie. »

Ainsi, à côté des causes somatiques, les causes psychologiques sont aussi sont des étiologies primaires et des principes causals de cette maladie.

LE VIN, LE SEXE, ET LE SUICIDE CHEZ LES MELANCOLIQUES D'IBN IMRÂN

Ces thèmes, communément rencontrés dans les autres écrits sur la mélancolie, soulèvent chez Ibn Imrân quelques interrogations légitimes.

Le vin :

A la lecture du *Traité*, on ne peut qu'être étonné par la large place accordée au vin dans l'étiologie et dans l'arsenal thérapeutique de la mélancolie. De plus, Ibn Imrân consacre de longs passages expliquant la physiologie du vin et son action sur les esprits. Ceci a soulevé l'étonnement de plusieurs lecteurs musulmans qui, comme Boubaker[1], dans sa thèse sur Ibn Imrân, s'étonnait de la liberté de prescription que prenait ce musulman par rapport au vin. Ceci a même laissé croire à certains, qu'Ibn Imrân pouvait être juif ou chrétien, d'autant qu'il a aussi écrit tout un recueil sur des « questions se rapportant au vin ».

Il serait important de préciser, dans ce contexte, que tous les grands médecins musulmans considéraient le vin comme un aliment chaud et humide, donc utile aux mélancoliques, et comme un moyen thérapeutique. Par conséquent, sa prescription était une chose courante indépendamment des avis théologiques. Toutefois, Ibn Imrân n'utilisait le vin que dans la pure tradition hippocratique : il s'agissait soit de vin coupé d'eau, soit de vins médicinaux dits aromatiques (mélangés d'herbes et d'épices), soit encore de vin pris avec du pain sec[2].

Il ne faudrait pas, non plus, oublier qu'Ibn Imrân est originaire d'Iraq et qu'au IXème siècle se côtoyaient à Bagdad, la ville des Mille et une nuits, une mosaïque de communautés et de confessions dont certaines, même, utilisaient le vin pour la liturgie, tout cela loin du rigorisme malékite de l'Ifriqiya.

Parallèlement à tout cela, Ibn Imrân n'a pas cessé de souligner les méfaits liés à la consommation du mauvais vin et à son abus, en évoquant une longue liste de maladies qui lui sont imputables.

---

(1) Boubakeur Rokaya, *Kitab Al Malikhulia ou Monographie sur la mélancolie d'Ishâq Ibn Imran*-Thèse de Médecine, Paris VI, 1980, N° 16, 176 p.

(2) Alessi, Robert. «*Le vin dans les Épidémies d'Hippocrate.*» In *Vin et santé en Grèce ancienne* (ed. Jacques Jouanna, Laurence Villard, Daniel Béguin), 105-112. Athènes - Paris: Ecole française d'Athènes; diff. De Boccard, Paris., 2002.

Le suicide :

Une autre particularité du *Traité de la mélancolie* est l'absence, le long de ses 61 pages, de toute allusion au suicide. Notre collègue Ben Mabrouk[1] y a vu un signe d'équilibre de la société musulmane de l'époque. Toutefois, en grattant un peu cette image d'Épinal, on pourra lire dans le *Viatique* d'Ibn al-Jazzar, élève indirect d'Ibn Imrân, que certains mélancoliques « **aspirent très ardemment à la mort et la désirent** »[2] ; ceci montre clairement que les médecins kairouanais n'ignoraient rien du potentiel suicidaire lié à la mélancolie. Cependant, il se pourrait que cette conscience soit uniquement livresque et héritée de Rufus qui écrivait : « Pourquoi se donnent-ils la mort ? Sans doute parce qu'ils supposent qu'ils se délivrent ainsi de maux plus grands; à moins qu'il ne leur vienne cette pensée qu'il est beau de mourir, comme à certains peuples barbares. »[3]

La sexualité des mélancoliques :

Pour Rufus, l'acte sexuel est un acte naturel ; pratiqué de manière modérée, il évacue la pléthore et apaise les mélancoliques. L'avènement du Christianisme, en prônant plus de continence, constituera une dissociation par rapport au corpus médical hippocratique. Forts de la tolérance de leur religion sur ce point, les médecins musulmans auront, au sujet de la sexualité, une attitude plus proche de l'héritage grec.

Toutefois, on constate chez Ibn Imrân une absence totale de références sur la sexualité qui contraste avec l'intérêt manifeste pour le sujet de son traducteur Constantin[4]. Celui-ci a écrit dans *De Melancholia* que « les rapports sexuels peuvent avoir une action

---

(1) Hamouda Ben Mabrouk Chemceddine « *A propos du Traité de la mélancolie d'Issac Ibn Omrane* » Thèse de médecine Tunis. Année 1979/80 N° 425.

(2) Ibn al-Jazzar, *Viatique* op. cit. p. 110, «و منهم قوم يشتاقون إلى الموت شوقا كثيرا جدا ويشتهونه» (زاد المسافر ص 110)

(3) Daremberg & Ruelle, *Œuvres de Rufus d'Ephèse*, Paris 1879, p.355.

(4) Constantin a lui même écrit (ou traduit ?) un livre sur le sujet intitulé « *De Coïtus* ».

favorable. Selon Refus, ils apaisent, ils répriment une superbe trop austère, ils soulagent les mélancoliques. Ne voit-on pas combien les animaux sauvages les plus irascibles deviennent doux après l'accouplement ? »

Pour approcher la conception d'Ibn Imrân sur la sexualité chez les mélancoliques, allons encore une fois puiser dans ce qu'a écrit Ibn al-Jazzar à propos de la mélancolie amoureuse : « Rufus, le sage, affirme que le coït est bénéfique chez qui dominent la bile noire et la folie. Il rend la raison et diminue les ardeurs de l'amoureux, même si celui-ci s'accouple avec une autre personne que celle qu'il aime ; il dissipe aussi la colère. »[1]

L'absence de références au suicide et surtout au coït chez Ibn Imrân et leur présence chez Constantin l'Africain et Ibn al-Jazzar nous fait penser **qu'une partie du *Traité de la mélancolie* a été perdue**. Nous en tenons pour preuve la promesse de l'auteur d'étudier les six causes essentielles avant de décrire les remèdes de la mélancolie ; or, nous assistons à une perte de la continuité du discours après qu'il ait parlé du petit lait, alors que la traduction latine continue sur la description des quatre autres facteurs non-naturels. L'esprit méthodique et clair d'Ibn Imrân ne pouvait se rendre coupable d'une telle omission. Malheureusement, l'existence d'un manuscrit unique laisse notre affirmation à l'état de pure hypothèse.

L'HERITAGE D'IBN IMRÂN ET LE DEVENIR DU *TRAITE DE LA MELANCOLIE*

Le legs d'Ibn Imrân va connaître un sort tout aussi tragique que celui de son auteur ; tous ses écrits seront perdus, excepté le *Traité de la mélancolie* qui aura une destinée non moins singulière. Il fera l'objet, avec d'autres ouvrages arabes de médecine, de la plus

(1) Ibn al-Jazzar *le Viatique* ابن الجزار (أحمد): «كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر»، 2 ج، تحقيق محمد السويسي- الراضي الجازي- فاروق العسلي- جمعة شبخة. نشر بيت الحكمة قرطاج، تونس 1999، ص 115.

grande opération de plagiat scientifique jamais connue. Mais avant de détailler cela, voyons quel a été l'héritage arabe d'Ibn Imrân.

Ibn Imrân fut considéré par tous les historiens comme l'initiateur de la médecine arabe en Ifriqiya. Bien sûr, la Tunisie avait déjà connu d'illustres médecins, dont le remarquable Caelius Aurelianus, mais le pays va vivre de tels soubresauts entre les Vème et VIIème siècles, qu'il en résultera une « rupture de transmission » de tous les savoirs. Ibn Imrân puis Ibn Soleiman, étrangers au pays, vont servir d'inoculateurs et permettront ainsi l'éclosion d'une pratique médicale de qualité qui sera connue sous le nom d'« école de Kairouan » et dont le plus grand représentant sera Ibn al-Jazzar.

L'héritage kairouanais d'Ibn Imrân sur la mélancolie paraissait, jusqu'ici, bien mince puisqu'Ibn Soleiman, semble-t-il, n'aurait rien écrit sur cette maladie et qu'Ibn al-Jazzar ne l'a abordé que d'une façon formelle dans son *Viatique*. Mais la découverte récente d'un court manuscrit d'Ibn al-Jazzar *Sur l'oubli*[1] vient de nous révéler que ce dernier a consacré une étude spéciale à la mélancolie qu'il a appelée « *La quiétude des esprits* » "خلاء الألباب"; ce livre qui n'a jamais été cité par les biographes d'Ibn al-Jazzar, semble à tout jamais perdu.

En Orient, bien que le *Traité de la mélancolie* ait été élogieusement cité dans les biographies médicales, nous n'en trouvons pas de trace évidente ni chez Razi, ni chez Avicenne. Le premier cite à deux reprises un Ishâq dans son *Hawi* mais rien n'indique clairement qu'il s'agit d'Ibn Imrân ; il est vrai que Razi a préféré, pour parler de mélancolie, puiser directement et très largement dans les traductions mêmes de Rufus.

Toutefois, c'est en Occident que le *Traité* va connaître une notoriété pour le moins inattendue, par le biais d'un voyage à travers le temps et la Méditerranée, qui le conduira de Kairouan à Salerne. Vers 1065, l'archevêque de Salerne, Alfan Ier, un grand

(1) *Epître sur l'oubli et son traitement* d'Ibn al-Jazzar, «رسالة في النسيان و علاجه» manuscrit arabe ms. v.292, Bibliothèque de l'Académie des sciences de Lisbonne ; Portugal.

érudit et médecin, invita Constantin l'Africain à se joindre à l'effort de traduction qui venait tout juste de débuter. Constantin, véritable personnage de légende, serait né à Carthage vers 1015 ; certains le disent chrétien de naissance, d'autres pensent que c'est un converti. Quoi qu'il en soit, d'abord à Salerne ensuite au Mont-Cassin, il traduisit plus d'une vingtaine d'ouvrages dont le *Pantegni* (Livre royal) de Haly Abbas(1) (X^ème^ siècle) et l'*Ysagoge*(2) de Hunain (IX^ème^ siècle) ainsi que le *Traité de la mélancolie* d'Ibn Imrân qui sera connu sous le nom de « *De Melancholia* ». De toutes ces traductions naquit l'«*Articella*» qui constitua à partir du XII^ème^ siècle, le fondement de la formation et de l'enseignement médicaux dans plusieurs universités européennes.

Le problème, dans tout cela, est que Constantin s'attribua la presque totalité de ces traductions, allant même jusqu'à en modifier le contenu pour **cacher leur origine arabe** !

Son biographe Diacre écrivit de lui : « Constantin l'Africain, moine de Mont-Cassin, fut très versé dans les études philosophiques, maître de l'Orient et de l'Occident, un nouveau Hippocrate. »

Pour B. Ben Yahia, notre moine « a sûrement acquis, du fait d'avoir tu le nom des auteurs traduits, une grande renommée de créateur. Mais dans une période de transition, comme celle pendant laquelle vécut Constantin, le travail de traduction a autant d'importance que celui de création... sa réputation n'aurait pas été moins grande s'il avait avoué avoir traduit et ceci aurait mis davantage en relief le rôle de certains médecins dans l'avancement des sciences médicales. »(3)

Quoi qu'il en soit, Constantin « fut considéré comme le génie

---

(1) Le *Traité de l'art médical* (كامل الصناعة الطبية- المعروف بالملكي-) a été écrit, vers 980, par Ali Ibn Abbas Al Majoussi qui est connu en Occident sous le nom de Haly Abbas.

(2) L'*Ysagoge* ou *Isagoge* est le nom latin des *Questions de médecine* qui a été écrit, IX^ème^ siècle, par Hunain Ibn Ishâq.

(3) Boubaker Ben Yahia « *Les origines arabes du « De Melancholia » de Constantin l'Africain.* » Revue d'histoire des sciences et de leurs applications, Année 1954, Volume 7, Numéro 2, p. 156 – 162.

de son époque et il a fallu attendre l'année 1127 où Stephan, un de ses élèves, eut la surprise de découvrir la vérité et écrivit un livre nommé *Liber Pentigni* y dénonçant le vol de son maître. »[1]

Ben Yahia a pu comparer les deux textes, arabe et latin, et a démontré une conformité presque totale pour la première partie, hormis quelques passages ardus de physiologie ou des indications qui trahissent la provenance arabe du *Traité* ; il a aussi montré que Constantin avait sensiblement abrégé le deuxième livre, surtout la partie concernant les formules médicinales. Le livre de Constantin a été traduit, en 1963, par Bavouzet[2] qui a confirmé les conclusions de Ben Yahia. Pour notre part, nous pensons que si Constantin a mieux développé la correction des six éléments fondamentaux dans la partie thérapeutique de son livre, c'est qu'au XIIème siècle elle faisait encore partie du manuscrit arabe, avant qu'elle n'en soit retranchée ou perdue.

Pour résumer, nous pourrions dire que lorsque nous analysons l'itinéraire de *De Melancholia* en Europe à partir du XIIème siècle, c'est la pensée d'Ibn Imrân et, derrière lui, celle de Rufus que nous étudions. C'est peut-être ce qu'a voulu dire H. Schipperges, cité par Tellenbach[3] :

« Dans cette traduction viendraient se fondre, par l'intermédiaire des textes grecs et arabes, les traditions d'un millénaire pour former une conception nouvelle qui va elle-même influencer un autre demi-millénaire. L'écrit sur la mélancolie, sortant des limites de Salerne, sert bientôt à l'instruction des écoles de Chartes, entre avec le nouveau Aristote dans les sommes scholastiques de la médecine, se croise à Padoue et à Paris avec l'averroïsme, est purgé par l'humanisme sans être barré par lui et, par-delà Paracelse, marque

---

(1) D. Jacquart. A l'aube de la renaissance médicale des XIe-XIIe siècles : L'« Isagoge Johannitii » et son traducteur » Bibliothèque de l'École de Chartes, t. 144, 1986.

(2) Bavouzet Jacqueline, Le *De Melancholia* de Constantin l'Africain, Année 1963, Thèse de médecine Paris N° 677.

(3) Schipperges H.; cité in Tellenbach H.: *La mélancolie*, PUF 1979, note n°33 p.301.

la psychiatrie de son empreinte jusqu'au milieu du XVIIIème siècle. On peut effectivement **le tenir pour exemplaire.** »

Dans le même sens, Michael Dols[1] affirme que cette œuvre semble avoir profondément influencé les conceptions occidentales de la maladie mentale.

Parmi les influences intellectuelles, Ibn Imrân semble avoir contribué avec Hunain Ibn Ishâq à introduire l'idée qu'il existait au sein du corps trois esprits ou « pneumata » véhiculant les trois forces ou facultés qualifiées respectivement de naturelle, vitale et psychique. Certes, le *pneuma* se trouvait déjà chez Galien et dans le galénisme alexandrin, mais il n'était pas envisagé en tant qu'objet d'étude spécifique. Cette contribution aura une influence sur les conceptions de l'âme au Moyen Âge chrétien et on verra, au début du XIIème siècle, Guillaume de Saint-Thierry[2] écrire *De la nature du corps et de l'âme* pour relever les erreurs des « nouveaux philosophes » influencés par les notions sur la physiologie du corps humain introduites par Constantin. Inspirées du pneumatisme, ces notions donnaient aux trois esprits (naturel, vital et psychique) le pouvoir de régir les principales fonctions physiques et psychologiques. Le traité *De la nature du corps et de l'âme* fixait les limites qu'un chrétien ne devait pas dépasser et surtout l'assimilation de l'âme à l'esprit psychique. On pourra aussi constater l'étroite parenté de cette représentation avec celle du célèbre texte de Descartes, le *Traité de l'Homme*, qui paraîtra pourtant en 1648 : « Pour ce qui est des parties du sang qui pénètrent jusqu'au cerveau, elles n'y servent pas seulement à nourrir et à entretenir sa substance, mais principalement aussi à y produire un certain vent très subtil, ou plutôt une flamme très vive et très pure qu'on nomme les *esprits animaux*... ».

---

(1) Dols M.: *Insanity in Byzantine and Islamic Medicine* Dumbarton. Oaks Papers, Vol. 38, 1984, pp. 135- 148.

(2) D. Jacquart in *Patrimoine littéraire européen*, par J.-C. Polet et C. Pichois. De Boeck, 1993, p.313.

Sur le plan purement médical, l'influence indirecte du *Traité de la mélancolie* n'en fut pas moindre : on pourra en retrouver la trace dans la plupart des livres consacré à la mélancolie jusqu'à Pinel[1], en passant par Brighton (1586), Velasquez (1587)[2], De Laurens (1597)[3] et Burton (1621)[4]. Une première analyse de cette somme « philosophique » qu'est l'*Anatomie de la mélancolie* montre que sur le fond, Burton a suivi le même plan que celui du *Traité* d'Ibn Imrân.

CONCLUSION

S'il est vrai que le *Traité de la mélancolie* ne constitue pas une révolution dans l'approche de la mélancolie et des troubles de l'humeur en général, il n'en est pas moins une œuvre intelligente, condensée et pratique, qui n'a pas encore fini de nous séduire et de nous étonner.

Sur le plan historique, le *Traité* nous offre un instantané des conceptions anciennes sur la mélancolie et nous permet de mieux comprendre la relation entre la médecine grecque et la médecine arabe. Il en ressort un constat de continuité qui s'est prolongée tard jusqu'au XVIIème siècle et que ne reflète pas l'analyse classique par périodes historiques (grecque, arabe, médiévale, etc.). La rupture de cette continuité s'est produite avec la faillite du système humoral et non pas à cause d'un quelconque choc des civilisations.

Ibn Imrân s'inscrivait dans la tradition gréco-latine dont il respectait les Maîtres, tout en apportant sa propre touche critique. Ceci explique, à notre avis, la facilité avec laquelle son œuvre fut intégrée à la pensée médicale en Occident.

---

(1) Ph. Pinel, *Article : Mélancolie ; in Encyclopédie méthodique, série Médecine*, 1816, t. IX, pp. 589 à 600.

(2) A. Contreras Mas *et al.*, *Libro de la Melancholia* by Andrés Velázquez, *History of Psychiatry* 2003; 14: 25-40.

(3) Jean Starobinski, *Histoire du traitement de la mélancolie des origines à 1900*. Geigy 1960.

(4) Robert Burton, *The Anatomy of Melancholy*, nyrb, New York, 2002.

Sur le plan psychiatrique, le *Traité* offre une belle et fine description de la maladie maniaco-dépressive ou Trouble bipolaire. Ibn Imrân y développe des définitions d'une grande beauté et donne la priorité aux formes mineures et aux présentations subtiles de la maladie.

Sur le plan de la présentation, le *Traité* est d'une surprenante actualité : on y trouve successivement la définition, l'étiologie, les formes cliniques et la pathogénie, les formes associées puis le traitement qui fait, à lui seul, l'objet de tout le second essai.

Sur le plan thérapeutique, Ibn Imrân a réussi à esquisser toutes les grandes lignes de l'éventail thérapeutique du trouble bipolaire : soutien, correction cognitive, physiothérapie, soins hygiéno-diététiques et médicamenteux. A noter que plus de 50 médicaments simples cités dans le *Traité* conservent encore de nos jours des indications médicales.

Pour finir, il est important de signaler que cette traduction n'est pas l'œuvre d'un spécialiste, mais plutôt celle d'un « franc-tireur » dont les connaissances en histoire de la médecine se réduisaient, au départ, à celles acquises sur les bancs de la faculté. Il nous a donc fallu beaucoup apprendre et assimiler avec patience, ce qui ne fut pas sans peine. Espérons que cela excusera les limites et les lacunes de ce travail.

TRAITÉ DE LA MELANCOLIE

(Livre Premier)

Au nom de Dieu, le Clément, le Miséricordieux et avec Son Aide. Voici un ouvrage succinct composé par le médecin Ishâq Ibn Imrân, sur le mal connu sous le nom de mélancolie[1], et qui est une affection de l'atrabile[2]. C'est un aide-mémoire qu'il a composé pour lui-même, par précaution contre une infidélité de mémoire dont il pourrait avoir à souffrir, surtout à l'approche de la vieillesse que Platon[3] appelait «la mère de l'oubli». Il l'a composé aussi par obligeance pour ceux qui, par passion pour la médecine et la sagesse, pourraient bien le lire.

Je n'ai pu lire, dit Ishâq Ibn Imrân, sur la mélancolie chez les Anciens, aucun ouvrage satisfaisant, aucun discours exhaustif, excepté celui d'un de nos prédécesseurs, Rufus d'Ephèse[4].

Quoique cet homme ait consacré à cette maladie un traité en deux parties, dans lequel il a mis en œuvre toute sa perspicacité et excellé dans l'étude de cette affection, de ses symptômes et de son

(1) Le terme mélancolie vient du grec μελαγχολία (*melankholía*) qui est composé de μέλας (*mélas*), « noir » et de χολή (*khōlé*), « bile ». Ce mot signifie donc étymologiquement « la bile noire » et était utilisé pour désigner une large gamme de troubles mentaux dominés par la tristesse et la peur. « Quand la crainte et la tristesse durent, c'est une mélancolie » *Aphorismes* VI, 23. On pourrait, globalement, assimiler la mélancolie aux concepts actuels de dépression et de trouble bipolaire de l'humeur.

(2) Atrabile : du latin *atra bilis*, autre appellation de la bile noire.

(3) Platon : Philosophe grec (427-346 av. J-C), élève de Socrate, il influença considérablement la philosophie. La référence, dans le préambule, à Platon est-elle fortuite ou souligne-t-elle l'appartenance d'Ibn Imrân au néoplatonicisme ? Platon sera cité une deuxième fois au sujet des réminiscences.

(4) Rufus d'Ephèse : médecin grec qui aurait vécu du temps de l'empereur Trajan (98-117).

traitement, il a limité son art à un cas particulier de cette maladie, le mal hypocondriaque, en occultant totalement ses autres formes. Remerciements et éloges lui sont néanmoins dus pour son effort, car celui qui apporte la moindre parcelle de vérité dans l'intérêt de tous, est à féliciter et à louer au même titre que celui qui, l'apportant dans son ensemble, aurait pleinement réalisé son dessein.

Puisque l'étude de ce mal et de ses causes était dans un tel état de négligence de la part des Anciens, en particulier chez Galien[1], qui ne lui consacre aucune étude spéciale, se contentant d'en parler ici et là dans ses écrits, nous avons jugé nécessaire de composer un traité sur cette affection, sur ses formes et sur son traitement, en utilisant un discours précis, riche, exempt de longueurs et de redondances ; car au fond nous nous adressons à nous-mêmes et à ceux qui chérissent la sagesse, s'éclairent à son flambeau et se revêtent de sa parure. Puisse Dieu nous préserver de l'erreur et nous aider à atteindre notre but. En vérité, Il est le meilleur assistant.

Ishâq Ibn Imrân dit:

Le terme mélancolie ne renvoie pas, à vrai dire, à la nature même de cette maladie, mais plutôt à sa cause la plus immédiate, c'est-à-dire la bile noire. Quant au mal lui-même, son essence ne saurait résulter que de sa description et de ses signes. Car il s'agit d'une affection qui atteint le corps et dont les symptômes et les dommages retentissent sur l'âme.

La mélancolie siège à l'orifice de l'estomac, dans sa forme hypocondriaque ; ou dans l'encéphale, dans ses autres formes. Elle se manifeste sur l'âme par la peur et la tristesse, lesquelles sont le pire qui puisse la toucher. La tristesse se définit par la perte de ce qu'on aime ; la peur est le pressentiment d'un malheur.

Quant à sa nature et son aspect, nous pourrons les cerner avec précision si nous répondons aux quatre interrogations

(1) Galien (129-210) est incontestablement le médecin le plus influent de l'Antiquité. Il écrivit plus de 200 ouvrages et permit le triomphe de la théorie humorale. Son enseignement, le galénisme, domina la médecine jusqu'au 17e siècle.

habituellement considérées[1], à savoir: son existence et sa localisation, son essence[2], c'est-à-dire ce qu'il est en lui-même et sa définition, la connaissance de sa nature, c'est-à-dire son aspect et ses signes caractéristiques, et enfin, la connaissance de son étiologie, c'est-à-dire quelles en sont les causes et l'origine.

La mélancolie étant l'objet de notre investigation et le sujet auquel est consacré notre livre, il convient, à cet effet, que nous l'étudiions d'après ces quatre règles qu'appliquent habituellement les médecins à toute maladie et pour tout dire à toute chose qu'on cherche à connaître.

Il est clair que lorsque la mélancolie se déclare, elle est facilement décelable au chagrin qui drape ceux qui en sont atteints, à la tristesse qui les accable et à la peur qui ne les quitte pas.

Il est donc inutile de s'attarder sur la question de son existence et passons à l'examen de sa nature et à sa définition.

La mélancolie consiste en des pensées noires et des sentiments de malheur qui habitent l'esprit du sujet pour un motif qu'il croit vrai, alors qu'il ne l'est pas. C'est à mon sens, la définition la plus partagée de cette affection. Quoiqu'on puisse aussi la définir, par des craintes et des obsessions qui s'emparent de l'âme et qui engendrent la frayeur et la peur. Telle est la véritable définition de cette maladie[3].

Quant à sa nature, elle revient à l'explication de la définition et à la mise en évidence de ses mécanismes et de ses causes. Lorsque la vapeur de la bile noire monte au cerveau, elle gagne le siège de la raison dont elle obscurcit l'éclat, elle la trouble et la corrompt au point de la rendre incapable de saisir ce qu'elle pouvait normalement discerner. Elle engendre ruminations et

(1) Cette démarche laisse penser qu'Ibn Imrân a également reçu une formation philosophique, à côté de sa formation médicale.

(2) Egalement appelée ipséité.

(3) Ibn Imrân introduit ici une distinction capitale : la mélancolie est-elle avant tout un trouble de la pensée (plus proche de la psychose) ou est-elle le résultat d'un désordre émotionnel qui perturbe la pensée ? Ibn Imrân penche clairement pour la deuxième définition. Mille ans plus tard, cette controverse reste d'actualité (Lange et James).

fausses suppositions, et fait imaginer le pire. Elle suscite dans le cœur une tristesse et des craintes épouvantables. Cette fumée mine aussi le corps pour mieux affaiblir l'âme, elle provoque une insomnie durable, une maigreur, un abattement, une déficience des états naturels qui ne suivent plus leur cours normal, comme à l'état de santé et de bien-être.

En ce qui ce qui concerne l'origine de ce mal et la raison de son apparition, on pourrait retenir plusieurs causes : en premier lieu, un tempérament constitutionnel corrompu par suite d'une altération du sperme ou de l'humeur des menstrues qui est à l'origine de l'élaboration du lait, ou par l'humeur de la matrice où se développe le fœtus. Lorsque celle-ci est dominée par l'action pernicieuse de l'humeur chaude et sèche ou froide et sèche, il s'ensuit une corruption de la complexion naturelle du corps, qui rend celui-ci prédisposé à contracter cette maladie terrible ; soit en sa totalité, soit seulement le cerveau, s'il est d'humeur sèche et que ses facultés maîtresses telles que l'imagination, la réflexion et la mémoire ont été troublées et flétries en raison de leur alimentation de l'essence même du cerveau, une nourriture pauvre, noire, nocive, souillée et impure.

Après la naissance, les facteurs qui peuvent retentir sur le corps et l'âme sont nombreux et longs à décrire ; ils leur confèrent une humeur mauvaise, accumulent en eux la bile noire et les conduisent à ce mal. L'un d'eux, et c'est le plus redoutable, est l'excès du manger et du boire. On mentionnera aussi, le mépris persistant des purgations ainsi que le défaut d'équilibre entre les six éléments fondamentaux[1] dont la stricte régulation est nécessaire à la santé et qui sont: le mouvement et le repos; le sommeil et l'éveil, la

(1) « Les anciens admettaient sept choses naturelles, six non naturelles, et trois contre nature : les sept premières sont les éléments, les tempéraments, les parties, les humeurs, les esprits, les facultés et les fonctions ; les secondes, nommées non naturelles, parce qu'elles ne composent pas notre nature comme les premières, sont l'air, les aliments, tant solides que liquides, le mouvement et le repos, le sommeil et la veille, les matières retenues ou évacuées, et les passions. La physiologie traite des premières, l'hygiène règle l'usage des secondes; quant aux troisièmes, la pathologie (nosographie, étiologie, séméiotique; en recherche la connaissance, et la thérapeutique traite des moyens de les guérir. » (*De Oculis*, livre attribué à Galien).

déplétion et la rétention, les aliments et les boissons, l'air inspiré et expiré, et les événements psychiques.

Entre ces six choses, les hommes se meuvent durant toute leur vie ; grâce à elles et d'elles dépendent leur santé et leurs maladies. Et si elles abondent plus dans un sens, elles chargent l'organisme de surplus qui compromettent l'équilibre harmonieux des humeurs, constituant ainsi la raison la plus forte du déclenchement de ce terrible mal, appelé mélancolie.

La nocivité des aliments découle de leur tendance à produire un sang sec, comme c'est le cas pour les lentilles et les viandes de gazelle et de lapin ou encore les aliments qui produisent un sang trouble, grossier comme les dattes, les viandes de chèvre, de bœuf ou de chameau. Sont aussi nocifs, car ils génèrent une nourriture grossière et salée, les gros poissons conservés au sel, le vieux fromage, la viande salée et desséchée, le «*maksûd*», la viande et le poisson à la saumure, la viande desséchée et cuite, les grosses huîtres, surtout lorsqu'elles ont séjourné toute une nuit dans le sel. Préparé de cette façon, le poisson porte le nom de «*gharib*». Certains aliments contribuent à la formation d'un sang chaud qui ne tarde pas à se transformer en bile noire- tels le chou-fleur, le chou, les aubergines, le céleri, le miel, les noix, les pistaches, la térébinthe; les variétés de «*natef*»[1] à base de miel et de dattes, les friandises aux noix, aux pistaches, aux pignons, aux grains de chanvre et leurs analogues. Consommés fréquemment et à l'excès, tous ces aliments, favorisent la formation de la bile noire dans le corps et font sombrer dans la mélancolie.

J'aimerais bien que l'on retienne le principe suivant, que j'énonce à ce stade de l'ouvrage: Toute affection, qu'elle soit longue et chronique comme la goutte, les coliques, la mélancolie, ou aiguë frappant l'homme annuellement ou à intervalles moindres, selon des rythmes et des accès connus, selon un processus et un ordre établis comme la pleurésie, la fièvre tierce, la phtisie, le trachome et autres maladies semblables, n'est pas toujours due à un problème d'humeur. L'humeur peut seulement humidifier le

(1) Natef : sucrerie à consistance épaisse.

corps, sans affaiblir l'organe où se déverse cette substance nuisible; qu'il s'agisse du cerveau, de l'oreille, de l'œil, de la gencive, de la langue, de la gorge, du poumon et, en général de n'importe quel viscère ou membre où siège la maladie ; il en est de même pour les articulations ou pour la peau contenant du corps.

Ceci est observé dans le cas des ulcères graves, des dartres, de la gale, des tumeurs, de la petite vérole, de la rougeole et des ulcères rouges. La faiblesse d'un organe peut être due à l'hérédité et à sa constitution ou résulter de la gravité du mal lui-même, de son développement et de son triomphe de la résistance de cet organe au point de corrompre sa constitution, de diminuer ses forces et de le prédisposer à contracter rapidement d'autres dégradations. Toutefois, nous avons trouvé que les causes les plus fréquentes et les plus redoutables de l'affaiblissement des organes résident dans leur excès de chaleur, leur sensibilité exagérée et leur vitalité. Et s'il arrive qu'un organe soit à la fois exagérément sensible et de complexion chaude, il percevra les prémices de la maladie qui le menace et se disposera à elle rendant ainsi son attaque inévitable. Et lorsque la maladie tarde, l'organe va lui-même jusqu'à l'attirer comme les ventouses aspirent le sang. C'est ce que l'on observe dans ce genre de maladies, j'entends la goutte, les coliques et la mélancolie ; surtout chez ceux qui ressentent sans arrêt des malaises dans leur corps et des troubles dans leur âme, alors qu'il n'en est rien en réalité. Ils s'imaginent cela et l'amplifient, à cause d'une faiblesse de leur cerveau par suite de sa faculté attractive des vapeurs de l'atrabile, qui obscurcissent leur intelligence et les empêchent de percevoir les choses telles qu'elles sont en réalité.

Leur entendement rend haïssables les choses ordinairement aimées, tels les frères et les parents et leur inspire une répulsion pour les choses familières et intimes ; si bien que les choses qui existent incontestablement, qui sont stables, localisées, paraissent à leurs yeux, le contraire de ce qu'elles sont en réalité. Ils les voient à travers un miroir qui transforme la beauté en laideur, le louable en détestable, le bien en mal. Et puisque la mélancolie exerce ses méfaits aussi bien sur le corps que sur l'âme, on peut admettre que parmi ses causes, certaines corrompent le corps et d'autres l'âme.

Nous avons précédemment énoncé que les causes organiques de la mélancolie sont essentiellement la corruption de la complexion du corps ou du cerveau, la pléthore et la négligence à purger les aliments nuisibles et ceux générateurs de bile noire. Nous ajouterons à cela que la vie dans un pays très chaud, très sec, ou froid et sec, au climat variable et capricieux, n'obéissant à aucune règle fixe, dont le régime est analogue à celui de l'automne, favorise la formation de la bile noire dans le corps[1].

Il en est de même pour l'habitat dans une région où abondent les torrents secs, les mares et les bosquets, les marécages couverts de roseaux et les étangs dont l'eau est putride, ainsi que les régions ventées ou traversées par des rivières. La vie en de tels lieux, prive le corps de ses vertus dissolvantes; l'air y est suffocant, engorgé de fétidité, insalubre et impur. Il s'ensuit une accumulation de superfluités dans le corps, lesquels, à la longue, conduisent à cette terrible maladie atrabilaire, qu'est la mélancolie.

De même, l'abandon des moyens habituels de purgation, comme les saignées, les ventouses, la sudation par bains chauds, l'arrêt d'un sport régulier, le changement d'habitude, l'interruption de l'usage des laxatifs, des purgatifs et des vomitifs. Tout cela produit dans le corps une surabondance de superfluités qui à la longue se corrompent, se décomposent et deviennent de la bile noire. Il en est de même pour ceux qui persévèrent dans la consommation du mauvais vin[2] noir, au goût âcre et à l'odeur épouvantable. Une telle accoutumance peut produire de l'atrabile responsable de la mélancolie et ce, pour deux raisons:

La première raison est que ce vin surchargé de lie est peu nourrissant, grossier et noir. Il engendrerait de ce fait cette maladie,

---

(1) On perçoit ici l'influence du texte *Airs, Eaux, Lieux*, du corpus hippocratique et celle du *Traité sur l'atmosphère*, (*De aere aquis locis*) d'Hippocrate. Les médecins arabes ont beaucoup écrit sur le thème de la géographie médicale. Voir :

لطف الله قاري «رسالتان في الجغرافيا الطبية وتأثير البيئة» رسائل جغرافية عدد 35 الكويت 2005

(2) Le vin occupe une place importante dans le *Traité de la mélancolie*, comme cause de maladie et comme aliment. Ibn Imrân a écrit un livre sur le vin où il aurait recueilli l'enseignement de Galien sur ce sujet.

puisque le vin apporte au sang du corps, une nourriture selon sa couleur et sa teneur, qui peuvent être toutes les deux, appréciées de l'extérieur de la bouteille.

La seconde réside dans les méfaits durables sur la raison des ivresses successives que ce vin provoque et de la montée continue de ses vapeurs noires, nocives, épaisses ; sa violence féroce, excessive contre l'esprit et la stupéfaction dont il frappe la raison. Ceci l'affaiblit et la rend inapte à réfléchir et incapable de discerner. Le vin ramollit le cerveau et le vicie par l'effet mortifiant de sa fumée ; et quand la corruption de l'humeur se prolonge, il sombre rapidement dans la mélancolie.

Nous avons observé que le vin vieux et chaud, consommé assidûment, affaiblit les forces de l'esprit, enflamme le cerveau et agresse la raison. Il génère dans le corps une chaleur qui le consume jusqu'à l'amollir et le précipiter dans ce mal ou le fait succomber.

De même, avons nous constaté que l'abus prolongé de vin chez ceux qui s'y adonnent matin et soir, afflige ces derniers de cette maladie et d'autres maladies fort graves encore, comme les tremblements, la paralysie, l'apoplexie et leurs fâcheuses complications, dues à la mauvaise digestion et la sécrétion en abondance de chymes.

D'ailleurs, Galien a noté que la pire des maladies, la plus mortelle et la plus tenace, est celle qui associe une nature chaude et aiguë aux méfaits du vin et qu'on rencontre parmi ceux qui exténuent leurs corps ; car elle naît de deux humeurs d'essence contraire : une pituite crue et une bile jaune récente et avariée. Or, toute maladie est généralement mortelle, maligne lorsqu'elle est la résultante de ces deux mélanges, comme c'est le cas dans la fièvre semi-tierce[1] ; cet état provient d'une bile jaune putride en dehors des veines et de pituite décomposée, à l'intérieur des veines. Il s'agit d'une maladie très maligne, mortelle, dont on réchappe rarement. Cela à cause de la pituite crue qui, de par sa nature fait traîner la

(1) Ibn Imrân (ou le copiste ?) orthographie المسطرطارس ce qui semble être une traduction du grec *hêmitritaios*. La fièvre hémitritée est citée dans les *Épidémies* livre 1. section 2.

maladie, sa maturation nécessitant une assez longue période ; alors que le mélange biliaire affecte et dissout rapidement les forces du sujet, de par la nocivité qu'il recèle et l'ampleur des troubles qu'il provoque.

Lorsque ces deux causes se trouvent réunies, le malade ne peut survivre pour deux raisons :

- La première est que la bile chaude ne lui laisse aucun répit pour récupérer ses forces, de par sa propre puissance et la malignité de ses effets. Le cours de la maladie est donc nécessairement bref, puisque le sujet est tenu de vite recouvrer sa santé, sous peine de mourir.
- La deuxième est que la pituite ne peut mûrir dans le court intervalle de la maladie, car elle nécessite un temps assez long pour être digérée petit à petit, même si les troubles qu'elle engendre sont en définitive bénins. Cet équilibre étant à ce sujet un bon signe, s'il plaît à Dieu.

Le plus étrange dans la mélancolie, c'est qu'elle peut être provoquée par des causes contraires.

Nous avons vu cette maladie atteindre des gens sobres et frugaux, parmi les sages ermites qui jeûnent le jour et prient toute la nuit. Leur sang diminue, ce qui le corrompt et le transforme en bile jaune. Si un tel état persiste, dure et s'étend, le sang perd sa nature et son humidité nourricière et devient trouble, grossier et atrabilaire ; il mène ainsi à la mélancolie. Plus d'une fois, nous avons eu à le constater.

Nous pensons, ainsi, avoir fait une énumération à l'excès des causes alimentaires à l'origine de la mélancolie, et de leur impact sur le corps. Il nous reste maintenant à analyser les six éléments fondamentaux et comment les mélancoliques le deviennent par suite de l'abandon de leur bonne gestion et au renoncement à leur correct usage. L'inobservance de ces règles favorise la chute dans cette maladie, de quiconque est prédisposé à la subir.

Nous avons déjà expliqué, plus haut, que ce mal provient de la nourriture au point de vue de son abondance et de la gloutonnerie,

au point de vue de la frugalité, et à celui de la déficience de sa nature et de la médiocrité des aliments. Nous avons aussi admis, à propos de la purgation et de la rétention, que la maladie survient souvent lorsque la purgation est interrompue brusquement, qu'il s'agisse de purgation naturelle ou médicalement provoquée.

De même, avons-nous fait mention de l'air selon la zone d'habitat et de la saison automnale. Enfin, nous avons informé, juste avant d'évoquer la frugalité des repas, des méfaits de la carence de sommeil et comment elle fait tomber dans cette maladie.

Nous pensons que trop de douceurs, de repos, de sommeil favorisent la maladie ; car ils favorisent l'accumulation des matières et leur fixation dans le corps. Les surplus ainsi accumulés, se décomposent à la longue et se transforment en bile noire, facilitant ainsi l'entrée dans la mélancolie.

Par ailleurs, il est indéniable et incontestable que les exercices violents et prolongés embrasent le corps, consument les humeurs et engendrent des vapeurs en abondance qui se transforment rapidement en bile noire.

Nous avons, à ce stade de notre étude, largement évoqué les causes corporelles de la mélancolie. Il nous reste maintenant à envisager les facteurs psychiques qui l'engendrent dans l'âme.

Nous disons, à cet égard, que l'âme est soumise de façon continue à des états émotionnels: colère, satisfaction, fureur, effroi, timidité, peur ou autres états analogues. De tels états concernent l'esprit animal, plus particulièrement.

Quant aux facultés de l'âme raisonnable, ce sont par exemple la réflexion profonde, la mémorisation, l'étude, le raisonnement, la méditation, l'examen du sens profond des choses, l'abstraction, la conjecture, l'imagination, l'opinion judicieuse ou le jugement[1].

Tous ces états, dont certains sont des forces et d'autres des manifestations[2], lorsque l'âme s'approfondit trop et s'adonne

(1) Autre sens possible : l'opinion judicieuse ou médiocre.

(2) Toutes ces conditions sont en partie des forces permanentes (les facultés mentales) et en partie des symptômes accidentels (des passions).

sans relâche aux démarches de l'un d'eux, peuvent la faire sombrer facilement et rapidement dans la mélancolie.

C'est ainsi que nous voyons de nombreux ascètes et vertueux tomber dans ce mal, à force de craindre Dieu et de redouter son châtiment ou encore en raison de leur ardeur pour Lui, au point que cela les obsède et les domine. L'âme n'éprouve alors plus d'affection, ni de désir, ni de parole, qui ne soient pour sa remémoration et pour sa contemplation que sa Majesté et sa puissance soient proclamées. Ils tombent dans l'inquiétude et la passion qu'éprouvent les amoureux, au point d'altérer tout aussi bien le fonctionnement de leur âme que celui de leur corps, attendu que le corps suit l'âme dans ses actions, et inversement, l'âme suit le corps dans ses accidents.

Ceux qui s'adonnent assidûment à la lecture des livres philosophiques, j'entends les livres de médecine, de logique; aux ouvrages spéculatifs ; aux traités consacrés aux principes du calcul et à sa science appelés en grec *arithmētikĕ*[1] ; aux études sur les principes de l'univers et des astres, c'est-à-dire la science des corps célestes qui porte en grec le nom d'*astronomia* ; à la science des plans et des surfaces appelée en arabe science des lignes et en grec, *geometria* ; à l'étude de la science de la composition, c'est-à-dire des accords et des mélodies, appelée en grec *mousikĕ*, et qui relève de la science de la psyché, car c'est l'âme qui l'a extraite et improvisée, comme si la musique s'implantait en elle. Dans ce sens, Galien rapporte que le philosophe Platon a dit: «Toute notre science n'est qu'une réminiscence de sagesse»[2], voulant dire par là que ce dont l'âme unie au corps se remémore le mieux, c'est ce qu'elle avait su, avant d'être liée à lui, l'âme étant l'univers de la raison ; de tels hommes sont – mais Dieu est meilleur connaisseur –

(1) L'auteur évoque ici le ***quadrivium*** qui désigne l'ensemble des quatre sciences mathématiques dans la théorie antique : arithmétique, musique, géométrie, astronomie. Platon parle de l'astronomie et de l'harmonique comme «sciences sœurs» (*La République*, VII, 530 dc).

(2) La **réminiscence** est, dans la pensée de Platon, le ressouvenir par l'âme de connaissances qu'elle a acquises en dehors de son séjour dans un corps et qu'elle a perdu lors de sa réincorporation.

enclins à tomber dans la mélancolie à force de méditer, de penser, de rechercher, de discriminer et à force de s'appesantir, de se fatiguer l'esprit, de se désoler lorsque leur entendement ne peut appréhender la preuve qu'ils dénomment *Apódeixis*[1] ou encore lorsqu'ils ne peuvent accéder aux vérités et déduire la meilleure conclusion d'une proposition, démarche appelée en grec *sullogismós*[2]. Ceci dénote de la sagacité de leur pensée mais est, aussi, un signe de leur morosité et de leur combustion par la mélancolie. Or, s'il en est naturellement ainsi pour eux, que dire de ceux d'entre eux qui sont réduits par les circonstances à subir cette méchante maladie, par suite d'une fatigue de la mémoire, d'une lassitude de l'âme, d'une défaillance de l'intelligence ou de l'esprit avec tout l'épuisement qui atteint leur raison, comme le dit Hippocrate au chapitre VI des *Épidémies* : « Le labeur de l'esprit, c'est la réflexion. » De même que la fatigue corporelle entraîne de graves maladies, dont la moindre est l'épuisement ; la fatigue mentale fait tomber dans la plus difficile et la plus maligne des maladies qu'est la mélancolie.

Quant à la perte d'amour, c'est comme déplorer la mort d'un enfant ou d'un être très cher ; ou perdre un objet précieux, inestimable et qui ne saurait être facilement obtenu. Tel celui qui perd ses livres, d'où il a acquis le savoir des Sages, détruits par le feu ou engloutis dans un naufrage ou encore dérobés par quelqu'un. Il en est de même du commerçant qui aurait perdu sa fortune et qui n'a aucun espoir de la retrouver. Chacun de ceux-là est consumé de tristesse et accablé de chagrin, au point de finir immanquablement par tomber dans cette maladie de la tristesse et des ruminations qu'est la mélancolie.

---

(1) Apódeixis ou démonstration.

(2) Syllogisme : En logique aristotélicienne, le syllogisme est un raisonnement logique à deux propositions posées comme vraies conduisant à une conclusion.
Exemple :
Tous les hommes sont mortels
Or Socrate est un homme
Donc Socrate est mortel.

Tous ces éplorés, ainsi que ceux précédemment cités, qui ont un penchant pour les tourments et qui affectionnent la fatigue psychique, tombent dans la mélancolie à cause des illusions et de la tristesse qui pénètrent leur esprit et du mal qui torture leur raison.

Si la santé de l'âme est la sagesse et la capacité d'atteindre la vérité et d'appréhender l'erreur, alors son infirmité serait l'incapacité d'accéder à la vérité et d'acquérir la science et ses honneurs, et de tomber dans la crasse de l'ignorance et sa bassesse. « La beauté de l'âme est dans la justice et sa laideur dans l'iniquité », comme l'a si bien dit Galien.

Ainsi, tous les éléments que nous venons d'énumérer sont des causes somatiques et psychiques, génératrices de la mélancolie. Ce sont des étiologies primaires et des principes causals de cette maladie.

Description des différentes formes et genres de mélancolie

Nous allons exposer ses formes et ses catégories et de quelle humeur provient chaque genre de mélancolie. Ainsi, nous en aurons décrit les causes et les raisons, donné une juste subdivision et satisfait aux quatre règles requises dans toute recherche, à savoir : son existence, son essence, sa nature et son origine.

Il existe trois formes de mélancolie :

La première siège à l'orifice de l'estomac et dans les hypocondres ; les deux autres formes atteignent le cerveau. L'une de ces deux dernières, prend naissance dans le cerveau lui-même, l'autre dans l'ensemble du corps et monte du bas, je veux dire des pieds et des jambes jusque dans le cerveau.

1. **La forme essentiellement cérébrale** se manifeste sous deux variétés:

- L'une, s'accompagnant d'une fièvre aiguë, apparaît surtout dans les cas de *birsam*[1] que les Grecs appellent phreni-

(1) Birsam, nom arabe d'origine persane signifiant pleurésie, est largement utilisé pour désigner la phrenitis (ou phrenîtis) alors que le terme exact est sirsam. Ullman explique les raisons de cette confusion sémantique in *La médecine islamique*, p37.

tis[1]. Elle provient d'une bile jaune qui a commencé à se consumer, mais sans atteindre le terme de sa noirceur ni le potentiel de nuisance que recèle, de par sa nature, la bile noire. Il s'ensuit une agitation, une loquacité et la vision d'êtres noirs ou d'autres choses purement imaginaires qui n'ont point d'existence en réalité.

- L'autre forme cérébrale comporte elle-même deux variétés:

  - La première a sa source dans la **bile noire naturelle**, lorsqu'elle domine la complexion cérébrale et dénature son essence. Une telle variété d'obsession est dite léonine[2], car ceux qui en sont atteints bondissent avec la férocité des fauves et font preuve d'un courage, d'une audace et d'une vigueur tout à fait semblables, à ce niveau, à ceux des lions. Elle est difficile à guérir, dure à soigner.

  - La deuxième variété provient soit d'une **bile noire corrompue** qui ressemble à la lie du sang[3], soit du **chyme noir qui n'est pas arrivé à son terme pour devenir une véritable bile noire**. Son l'évolution se ramène, en fin de compte, à celle de la variété qui monte au cerveau.

2. La forme secondairement cérébrale : Elle aussi est causée par une atrabile qui provient de **toutes les humeurs**, qui en brûlant, se transforment en une vraie bile noire. Son traitement est aisé

(1) Au V[ème] siècle, Caelius Aurelianus, médecin originaire du Kef (Tunisie), définit la phrenitis de la façon suivante : c'est un «délire aigu avec fièvre intense, carphologie et pouls petit et serré». La phrenitis semble cadrer avec le diagnostic actuel de Delirium ou syndrome mental organique (classification DSM). Voir S. Byl et W. Szafran « *La phrenitis dans le Corpus hippocratique*, Vesalius, II, 2, 98 -105,1996 » & J. Pigeaud *La maladie de l'âme. Etude sur la relation de l'âme et du corps dans la tradition médico-philosophique antique*, Les Belles Lettres, collection « Etudes anciennes », 1989 p.p. 71-75.

(2) Ibn Imrân utilise le terme arabe سبعي pour désigner cette forme clinique que nous appelons, de nos jours, accès maniaque. Contrairement à Arétée, Ibn Imrân ne la considère pas comme une forme distincte de la mélancolie.

(3) Galien, cité in Klibansky, Panofsky & Saxl: *Saturne & la mélancolie*, p104.

tant qu'elle est prise tôt, avant que le cerveau ne soit altéré et que l'humeur montante ne devienne sa complexion de base.

Les personnes atteintes par ce mal, se gardent de toute critique envers leur état, du fait de l'altération de l'humeur naturelle et saine de leur cerveau et sa substitution par une humeur étrangère et corrompue. Bien plus, ils font preuve d'autant de malice que de perfidie et d'impénitence, au point de ne plus se soucier de la réprobation de leurs erreurs, de leurs suspicions et des conséquences fâcheuses qui en découlent ; car leur entendement a été dépassé à cause des effets des vapeurs de la bile noire sur le cerveau.

Nous avons observé que la forme de mélancolie provenant du chyme noir et celle ascendante du bas du corps vers le cerveau - lorsqu'elles s'expriment-, sont très dissimulées, sournoises et couvent, échappant ainsi au diagnostic des médecins les plus habiles et ce pour deux raisons.

L'une d'elles, est que les mœurs humaines sont, par nature, variées et que la connaissance de la mentalité des gens, un par un, n'est possible que suite à une longue compagnie et à une fréquentation continue et dans la mesure où le praticien est un visiteur assidu, observateur et averti des caractères, du tempérament, de l'apparence des gens. Car la connaissance de l'état naturel aide à mieux identifier le malade et à le soulager de façon non négligeable, en lui prodiguant des soins. Lorsque le médecin est informé du caractère du patient alors qu'il est sain, il est à même de déceler rapidement la maladie dès qu'elle l'atteint. Il peut évaluer le degré d'emprise de cette affection et l'importance de ses effets, aussi bien sur son esprit que sur son corps.

Exemple: si nous avons connu une personne d'un naturel vif, injurieux, audacieux, loquace, emporté et qu'ensuite, nous la voyons demeurer calme, taciturne, impassible et lente à se mettre en colère, c'est là un indice que son humeur est troublée, que son âme est minée et qu'elle est travaillée par cette affection.

De même, si un individu lent à répondre, calme et craintif se montre prompt dans ses réparties, incohérent dans ses propos,

courageux et intrépide, nous pouvons à l'instant conclure qu'il est atteint de cette maladie.

Nous avons trouvé que Rufus le médecin, auteur du livre «*De la mélancolie*»[1], s'est longuement étendu, dans le premier chapitre de son ouvrage, sur les symptômes et les accidents qui frappent les mélancoliques. Après avoir longuement parlé et s'être montré particulièrement prolixe au sujet de ce qui advient aux uns et aux autres parmi eux, il ajoute : « Nous avons suffisamment décrit dans cet essai les troubles qui affectent les mélancoliques, de manière à ce que le lecteur de notre ouvrage, les ayant bien assimilés, puisse aisément déceler tout autre trouble affligeant les mélancoliques et que nous avons pu omettre dans notre traité ».

Ces propos du sage Rufus montrent clairement que les troubles des mélancoliques peuvent ne pas atteindre le maximum de leur intensité et qu'on ne parvient pas à les identifier, non pas parce que les symptômes de la bile noire restent dissimulés lorsque celle-ci envahit le corps, mais du fait que les affections de l'âme sont en général imperceptibles en raison même du mystère et de l'impénétrabilité de son essence, de la difficulté de se rendre pleinement compte de la sagacité ou des errements de la pensée, de la justesse ou de la fausseté de l'imaginaire, de la vigueur ou de la déficience de la mémoire, des capacités globales de l'esprit, de sa puissance, de sa faiblesse et de sa débilité. Imperceptibles aussi à cause de la diversité des caractères et de la complexité de l'esprit humain. Complexité qui laisse perplexes d'habiles médecins, qui n'ont pas une profonde connaissance de ce mal et de ses accidents.

Pourtant, le sage Rufus s'est limité à la description de la seule forme hypocondriaque de la mélancolie à laquelle il a consacré son livre.

---

(1) Une tentative de ressusciter le *De Melancholia* de Rufus d'Ephèse conduite par P. Pormann et *al.*, vient d'être couronnée de succès. Il s'agit d'une compilation de fragments attribués à Rufus à partir de textes grecs (Oribase, Galien, Aëtius), latins (Constantin) et arabes (Ibn Imrân, Razi, Maïmonide, Ibn Sarābiyūn et d'autres). Voir : Rufus of Ephesus "*On Melancholy*" Mohr Siebeck 2008.

Mais Rufus pourrait rétorquer en disant : «Mon discours sur une forme de mélancolie s'étend et rejoint les deux autres formes restantes ; et mon propos sur cette forme s'applique aux deux restantes quant aux symptômes cités et au traitement décrit. »

Nous en ferons de même, nous aussi, en suivant sa démarche, car la description des signes de la mélancolie essentiellement cérébrale englobe et comprend les deux autres formes de cette maladie, à savoir celle montante du bas du corps vers le cerveau et l'hypochondriaque, qui siège à l'orifice de l'estomac. Et nous serons prêt à décrire les symptômes de cette affection quand nous aurons fini de distinguer ses variétés, plaise à Dieu.

3. Quant à la troisième forme de mélancolie, appelée hypocondrie[1], elle survient quand la bile noire submerge tout le corps et se déverse dans l'estomac. Ce déversement occasionne pour l'âme et pour le corps un très grave préjudice.

Sur l'âme, l'orifice de l'estomac étant contigu au cœur, cela provoque une tristesse et une frayeur permanente d'une mort imminente. Cette tristesse porte les malades à se défier de leurs proches et de leurs amis et à considérer les choses d'une façon contraire à la logique. Dans cette affection, l'atteinte du cerveau et de l'intelligence s'explique de deux manières :

L'une est que la situation du cerveau en vis-à-vis du cardia associe le premier aux épreuves et aux calamités du second, à cause de la bile noire qui monte et s'élève vers le cerveau, à tout moment de la nuit et du jour. Si le cerveau, voûte du corps et en particulier de l'orifice de l'estomac reste capable de recevoir, à l'état de santé, des vapeurs montant de celui-ci, qu'elles soient chaudes, froides, humides ou sèches; il est évident qu'en cas de maladie, la bile noire se déversant dans l'estomac va troubler par ses fumées, montant nuit et jour, la raison et jeter l'esprit dans le désarroi.

---

(1) Galien fait observer que l'hypocondrie a été décrite par Dioclès de Caryste dans son livre intitulé : *Affection, cause, traitement*. Il lui reprochera néanmoins d'avoir omit de citer les deux signes cardinaux de la maladie tels qu'ils ont été décrits par Hippocrate : la crainte et la tristesse. Voir Galien : *Des lieux affectés* II, x.

Hippocrate rapporte dans les *Épidémies*; qu'un cardia naturellement chaud confère à l'âme un tempérament porté à l'irritabilité, à la légèreté, à la mesquinerie et à la méchanceté, à l'instar d'un cœur chaud de nature. Il prétend même que ceux qui ont un estomac naturellement chaud sont maigres, ont les veines gonflées, apparentes et le sang vicié, par suite de la corruption de la nature des aliments par une chaleur de cuisson excessive, inhérente au tempérament chaud de leur estomac.

L'autre raison viendrait de ce que le cœur est médian entre le cardia et le cerveau. C'est lui qui alimente le cerveau en lui envoyant un esprit animal qui se répand entre ses scissures et dans ses ventricules. Là, il est digéré, raffiné et devient excellent. Ce qui en est épais, grossier, trouble est dirigé pour animer les cinq sens, tandis que la partie la plus délicate sert à produire et à nourrir la force intellectuelle, ordinative tripartite qui regroupe l'imagination, la réflexion et la mémoire ; d'où le nom d'âme raisonnable donné à cet esprit qui siège dans le cerveau. Le restant du sédiment de l'esprit animal sert à générer les mouvements volontaires dont le siège est à la poupe du cerveau. Il n'est donc ni surprenant ni impossible que la raison souffre - de fait [1]- lorsque le cerveau souffre, puisque la raison tire l'essentiel de son essence de l'esprit animal injecté du cœur vers le cerveau.

Voici donc les méfaits et les dommages sur l'âme de la bile noire qui, dans cette forme de mélancolie appelée hypocondrie, se déverse dans le cardia. Quant à ses effets sur le corps, nous savons que la nourriture est le support de celui-ci et la condition de sa vie et que la nourriture n'agit sur le corps qu'en vertu de quatre forces naturelles, c'est-à-dire l'attraction, la rétention, la digestion et l'expulsion. La maîtresse de ces forces est, comme l'a souligné

(1) Le contexte de la phrase laisse entendre que cela se fait par un mécanisme de sympathie.

Asclépius[1], la digestion. Elle parfait leur action et pourvoit le cœur du meilleur aliment à l'intention des plus nobles organes. En effet, l'attraction ne fait qu'amener la nourriture dans l'estomac, la rétention ne fait que l'y maintenir le temps d'être digérée, enfin, l'expulsion ne fait que rejeter les superfluités et les déchets dont la digestion n'a que faire.

Or, le principal effet de la bile noire qui se déverse dans le cardia et qui cause l'hypocondrie, est d'entraver le déroulement de la digestion dans l'estomac et ses alentours, c'est-à-dire d'empêcher la fonction digestive de parachever son rôle, en dénaturant les aliments. De cette entrave et de cette altération résultent deux ordres de dommages :

● L'un est la prolongation de la maladie et son aggravation du fait de l'écoulement de la bile noire qui gène l'amendement des aliments digérés, empêche tout apport sain au corps et perturbe la digestion. Ainsi, l'organisme ne reçoit plus qu'une nourriture corrompue, mauvaise et inutile. De plus, ce mal est suivi d'un autre : la bile noire cesse de s'écouler car la qualité de l'apport ne lui permet ni d'être purifiée ni de quitter sa source. Elle se mélange à la nourriture altérée et s'avarie à force de s'épancher et de se déverser dans l'estomac. C'est pourquoi, l'hypocondrie est si difficile à soigner.

● L'autre est que la persistance de l'entrave de la digestion dans l'estomac entraîne deux préjudices :

Le premier est que la plus grande partie de la nourriture non digérée provoque de grosses flatulences et un ballonnement difficiles à réduire et à soulager, qui s'aplatissent et s'étendent sous l'hypocondre des deux côtés jusqu'à atteindre le gros intestin, appelé côlon, ce qui empêche les déchets de descendre et de s'éliminer. Tout cela, en raison de la sécheresse de leur tempérament

(1) Il doit s'agir d'Asclépius, médecin alexandrin qui a vécu vers les VIème - VIIème siècles. Ses commentaires donnent l'explication d'un grand nombre de passages difficiles d'Hippocrate ; à moins qu'il ne s'agisse d'Asclépiade de Bithynie : (124-40 av. J.-C.). Voir : http://www.cosmovisions.com/Asclepius.htm

de mélancoliques. Une telle cause, à savoir le blocage crée par la ventosité sur le passage des déchets, est un des facteurs les plus déterminants dans la gravité de leur maladie. Il arrive même que cette ventosité fasse retourner les aliments du bas de l'estomac vers son haut, les empêchant ainsi de se déposer et d'adhérer à son fond. C'est, là encore, un facteur puissant de perturbation de la digestion et d'altération de la coction.

Le second préjudice résulte de la corruption des aliments du fait de leur mauvaise digestion. Toutes ces causes finissent par affaiblir l'estomac qui, à la longue, reçoit tout ce qui se forme dans le corps de ces malades, aussi bien la bile jaune que la pituite selon la nature des aliments ingérés et selon la nature et la complexion des organes en question.

Ainsi, dans l'estomac de l'un se déverse de la bile jaune, tandis que dans celui d'un autre se déverse de la pituite et les deux à la fois pour un troisième. Cela, selon ce qui peut se former, à la longue dans le corps, comme résidus d'aliments et de boisson.

Nous pensons ainsi être parvenus à notre but et à notre intention de classifier le mal mélancolique. Il nous faut maintenant décrire les symptômes particuliers à chacune de ses formes ainsi que ceux communs à leur ensemble et faire un résumé global de cette maladie.

Mention des symptômes communs à toutes les catégories de mélancolie:

Nous disons que les symptômes généraux des mélancoliques de toutes les formes sont une tristesse et une affliction continuelles, une frayeur à tort, sans raison ni motif, des ruminations obsédantes et une méditation persistante à propos de ce qui ne mérite pas de réflexion, la survenue de pensées qui alarment l'esprit et le terrifient, alors qu'elles n'ont absolument aucun sens. Oui, leurs sens leur font percevoir des choses qui n'existent pas. Tel celui qui croyait voir des formes hideuses, horribles, des Noirs et des gueux. Comme Dioclès[1] qui, lors de son atteinte par ce mal, voyait des

---

(1) S'agit-il de Dioclès de Caryste ou bien de Dioclès homme politique syracusain (Vème siècle av. J.-C.) ?

Noirs qui voulaient le tuer, des flûtistes et des cymbaliers qui jouaient en tumulte, dans les coins de sa chambre. Certains d'entre eux s'imaginent ne plus avoir de tête, comme celui que nous avons pu observer à Kairouan[1], récemment. Nous lui avons fait porter une mitre de plomb pour que, sentant son poids, il ne puisse plus douter qu'il a une tête. Rufus rapporte également un cas semblable. Certains entendent comme un murmure d'eau, le souffle violent du vent ou son déchaînement, des voix terrifiantes qui résonnent dans leurs oreilles, un bourdonnement ininterrompu, le jour comme la nuit. Mais de tout cela, il n'est rien ; ce ne sont que fausses perceptions.

Certains sentent en tout des odeurs nauséabondes, à cause de la corruption de leur odorat ou de son déficit. D'autres perdent le goût des choses délicieuses, au point de ne plus apprécier un repas, ni savourer les aliments, car leur goût s'est corrompu et ils ont perdu toute sensation gustative.

Certains sentent leur peau plus rugueuse qu'elle ne l'est en réalité. D'autres pensent que leur corps est fait de glaise, comme le croyait un potier[2], frappé par ce mal. D'autres sont atteints dans leur jugement et leur imagination, tel celui qui évitait de marcher sous le ciel, de peur que celui-ci ne tombât sur lui et pensait qu'à force de soutenir le ciel, Dieu finirait par se fatiguer et le lâcher sur la terre, et tout périrait.[3].

Les exemples de la sorte sont tellement variés qu'à peine pourraient les inventorier l'observateur des troubles et le scrutateur des symptômes, s'ils venaient à se détourner de l'objet de leur recherche. Toutefois, les mélancoliques ont un trait en commun :

---

(1) Ce passage montre clairement que le *Traité de la mélancolie* a été écrit par Ibn Imrân, à Kairouan.

(2) Rufus, rapporte le même exemple en essayant d'en expliquer la cause : celui qui s'imagine être un pot de terre doit cette illusion à la sécheresse; car froide et sèche est l'humeur mélancolique. Citons encore celui qui croyait ne pas avoir de tête, peut-être à cause de la légèreté que le souffle porté en haut y produisait. Voir Rufus *Œuvres* Liv. VI, ch. IX.

(3) On retrouve le même exemple chez Galien sauf que, chez lui, il s'agit d'Atlas portant le globe. Voir *Les lieux affectés*.

ils sont de toutes les créatures de Dieu, celles qui réclament avec le plus d'insistance la présence du médecin, ils le supplient et lui prodiguent de l'argent. Mais s'il se présente à eux et accepte de les soigner, ils ne l'écoutent pas et ne suivent pas ses conseils. Cette attitude est spécifique aux mélancoliques et leur est indissociable.

Tels sont, sur le plan psychique, les symptômes constamment retrouvés et communs à tous les malades. Sur le plan corporel, ils sont amaigris et perdent le sommeil. Voici donc les signes généraux qui affectent de façon quasi-permanente les mélancoliques, dans leur âme et dans leur corps.

Parmi les signes particuliers, certains sont spécifiques à une forme donnée de mélancolie, d'autres affectent certains malades et pas d'autres.

Les troubles qui se retrouvent dans la mélancolie d'origine essentiellement cérébrale, sont l'insomnie, le mal de tête, l'éclat marqué des yeux, un regard absent ou un clignotement des yeux et la sécheresse du nez[1]. Certains mangent énormément, deviennent voraces et tourmentés par la nourriture. Quand ils s'arrêtent de manger, ne serait-ce qu'un seul instant, ils ont l'impression d'en mourir. Ils endurent des souffrances insupportables, à cause de l'ardeur de la bile noire.

D'autres, au contraire, perdent l'appétit et voient leur faim s'éteindre. Ils s'alimentent de moins en moins et finissent par avoir toute nourriture en aversion. S'ils mangent, ils ont mal, s'ils ne mangent pas, ils ont mal. Cette catégorie de mélancoliques est la plus atteinte car leur corps s'assèche, s'émacie, et dépérit rapidement. Rares sont ceux qui, parmi eux survivent à cela.

Par contre, ceux qui s'alimentent sont en meilleur état, même si l'excès de nourriture leur est préjudiciable en augmentant les matières nocives, parce qu'ils nourrissent leur corps et le fortifient. Et s'il y a, à long terme, pléthore, elle pourra être éliminée naturellement ou purgée par les moyens de la médecine.

---

(1) Ces signe sont ici évoqués comme des signes de la phase d'état et non pas comme des traits caractérologiques du mélancolique.

Quant à la forme de mélancolie secondaire à la montée de l'atrabile du bas du corps vers le cerveau, elle se présente avec les mêmes symptômes que ceux de la mélancolie cérébrale, avec cette différence que les chagrins, la frayeur et la peur ainsi que les autres troubles mélancoliques s'accentuent graduellement, car la bile noire monte par intermittence au cerveau, au fur et à mesure qu'elle se forme dans le corps.

Dans la forme hypocondriaque de la mélancolie, les symptômes énumérés plus haut sont présents et accentuent en eux la sensation de flatulence et de distension du ventre, provoquée par l'accumulation de gaz d'origine atrabilaire. Leur abdomen peut se dilater et enfler comme s'il allait se fendre et éclater. Ils peuvent aussi ressentir des vertiges et une lourdeur de tête. Il en est aussi qui rejettent une humeur acide provenant d'un excès de bile noire déversé dans leur estomac. J'ai constaté que cela guérissait certains d'entre eux, en accélérant leur transit par une diminution de la sécheresse du ventre occasionnée par la flatulence sur le passage des matières, le long des intestins.

Certains mélancoliques sont accablés de tristesse et de langueur, ils recherchent la solitude, l'obscurité et fuient la compagnie du monde. D'autres, au contraire, aiment se délasser dans les grands espaces lointains et monter à cheval. Ils ont une prédilection pour les vergers et les jardins fleuris et aiment écouter de la musique et converser avec les gens. Mais s'ils s'isolent et restent seuls, ils croient frôler la mort et souffrent de troubles mélancoliques insupportables. Certains dorment beaucoup, d'autres pleurent trop et d'aucuns rient démesurément.

Les manifestations de cette maladie répondent chacune, à une cause propre et surviennent le plus souvent séparément. Chez les mélancoliques qui souffrent d'une tristesse et d'un abattement durables et qui montrent une préférence pour la solitude, l'obscurité et l'isolement des gens, la cause réside dans un dessèchement par les vapeurs de l'esprit animal et du cœur ; il en résulte une crainte obsédante de la survenue du pire. Leur "*phantasia*", qui est la capacité d'imagination, est assombrie par une vapeur noire qui

la plonge dans l'obscurité et les ténèbres au point de concevoir des malheurs et d'imaginer des catastrophes là où il n'y a rien qui puisse être appréhendé ou redouté.

Quant à ceux qui aiment les grands espaces, la fréquentation des gens, les promenades et l'écoute des douces mélodies, leur état s'explique par une faible corruption de l'atrabile à l'origine de leur mal. Les vapeurs atteignent le cerveau et altèrent la raison plus qu'elles ne nuisent au cœur et ne le consument. De ce fait, leur guérison est plus rapide et leur traitement plus facile.

Quant à ceux qui dorment beaucoup, ils le doivent à la faiblesse de leur force sensible qui est saisie et inondée par les vapeurs de l'atrabile. La bile noire entraîne chez les mélancoliques soit un excès de sommeil, soit une insomnie, selon son action qui peut s'exercer d'une de deux manières :

Si la bile noire se consume dans son essence, elle submerge le cerveau par son excès de vapeur, assoupit et endort.

Si elle agit par son humeur, son action s'exerce selon son degré d'échauffement: lorsque son échauffement est complet et qu'elle se transforme en bile noire, véritable et naturelle, cette action se traduit par un assoupissement et un sommeil profond.

Mais si son échauffement est incomplet, elle dessèche le cerveau, le darde, l'expose aux méfaits de son humeur et provoque la veille.

Pour cette raison, son action peut aussi bien se manifester par le sommeil que par l'insomnie, dans le cas de la mélancolie comme en d'autres maladies.

Ceux des mélancoliques qui pleurent beaucoup ont un mélange de bile noire qui se consume mal et trop. S'ils pleurent, ils ne le font pas abondamment car la vapeur aiguillonne leur cerveau et le ronge et provoque en eux crainte et frayeur.

Ceux qui rient beaucoup ont une bile noire peu avancée dans sa corruption ; et leur corps est vigoureux grâce à un sang pur,

d'excellente complexion. Hippocrate, le maître de l'art médical, affirmait dans ce sens dans les *Aphorismes*[1], qu'une aliénation de l'esprit qui s'accompagne d'hilarité est rassurante, car elle n'implique rien de particulièrement dangereux ; tandis que celle qui s'accompagne de gravité et de morosité est inquiétante, car elle est loin d'être bénigne.

Les enfants, à cause de leur sang équilibré et clair, rient beaucoup durant leur sommeil. Leur âme se réjouit de ce qu'ils voient en rêve, en raison de la tempérance de leur corps puisque l'âme suit le corps dans sa complexion. De même, nous voyons les gens ivres rire énormément, l'âme en joie, grâce à l'équilibre induit dans la constitution de leur corps par l'humidité du vin. Ne voit-on pas aussi les malades de la rate accablés de tristesse et peu portés à rire, en raison de la médiocrité de leur sang, de sa corruption et de son insuffisance dans leur corps ? Il a été dit que la rate est l'organe du rire, mais ceci n'est qu'illusion. L'auteur de cette allégation est Palladius d'Alexandrie[2], dans son commentaire du *Livre des aphorismes*. Néanmoins, il a développé, pour étayer cela une théorie très judicieuse, fine et recherchée, selon laquelle la rate, en attirant la lie du sang, son rebut et toutes les impuretés de bile noire qui le chargent, purifie inévitablement l'essence du sang. Ainsi, le sang qui circule et irrigue tout le corps devient excellent, de composition équilibrée et de nature supérieure. Quand le sang atteint cet état, l'âme se détend et s'apaise, manifeste joie et gaieté et devient sensible aux causes qui provoquent le rire.

---

(1) Les *Aphorismes* : Le livre le plus célèbre d'Hippocrate commence par une belle description de l'art médical : « La vie est courte, l'art est long, l'occasion est prompte [à s'échapper], l'empirisme est dangereux, le raisonnement est difficile .»

(2) Palladius ou Palladios d'Alexandrie est l'auteur de commentaires célèbres sur les *Aphorismes* d'Hippocrate. Le manuscrit de la traduction arabe à laquelle fait référence Ibn Imrân et que l'on croyait perdu, vient d'être retrouvé par Farid S. Haddad.

Et puisque nous parlons du rire[1], donnons en, la définition et les caractéristiques.

Nous disons que, par définition, le rire est la surprise de l'âme devant quelque chose dont la compréhension lui échappe. Quant à Palladius, il le définit ainsi : « Le rire naît d'une situation dont le verbe ne peut rendre compte.» Je trouve ma définition plus concrète et plus claire que la sienne.

L'âme raisonnable est l'agent du rire. Son organe serait la rate, si l'on croit Palladius, ou le foie, si celui-ci est bien le lieu où le sang est filtré et d'où sont renvoyés à leur emplacement les déchets du sang, s'agissant de bile noire ou jaune. A moins que ce ne soit le cœur l'organe du rire, puisque le sang provenant de lui est plus clair, plus délicat et de meilleure qualité que le sang parvenant du foie ; il est également plus riche en esprit animal. En outre, le cœur est le siège de la chaleur naturelle, qui est à la fois l'essence et le lieu de l'esprit animal lui-même.

Quant à la matière du rire et sa charge, c'est le sang clair, de composition équilibrée, qui circule dans tout le corps.

Le rire cesse lorsque l'âme est fixée sur sa signification, en découvrant le mobile qui l'a déclenché, que ce mobile soit comique ou sérieux.

Revenons à notre propos et disons que le rire tend à disparaître chez les vieillards, car la tristesse, les pleurs, le chagrin, la démence et les causes de mélancolie sont tous présents en eux; à cause de la corruption de leur sang fin. Mais à vrai dire, tout leur sang, qu'il soit bon ou mauvais, est vicié et se fait rare. Le froid et la sécheresse frappent leurs organes par suite de la disparition de la chaleur naturelle et de l'humidité élémentaire dans leur corps. Les

(1) On est bien loin du rire de Démocrite ! Ibn Imrân considère ici le rire sous un angle purement médical, voire physiologique. Connaissait-il les *Lettres* d'Hippocrate et son histoire avec les Abdéritains ? A partir de la Renaissance, le rire deviendra un thème central des études philosophiques sur la mélancolie. Burton placera toute son *Anatomy* sous l'égide du grand rieur. Voir Hippocrate, *Sur le rire et la folie*, Préface, traduction et notes d'Yves Hersant, Rivages, collection « Rivages poche / Petite Bibliothèque ».

arguments que nous venons de présenter à propos du rire et des pleurs nous semblent bien suffisants.

Parfois, sur le corps des mélancoliques - j'entends les trois formes, apparaissent des tâches noires ou des petites pustules qui ont un effet favorable ; par contre, l'apparition de gros ulcères, loin d'améliorer leur état, peuvent les tuer ou alors ils peuvent finir par présenter un ramollissement d'origine hémiplégique, par suite du préjudice engendré par la bile noire dans leur cerveau et leurs organes. Et si nous n'avons pas observé cela nous-mêmes, nous avons, par contre vu des choses plus étonnantes encore.

Mention du passage de la mélancolie à l'épilepsie :

C'est que nous avons observé certains mélancoliques devenir épileptiques ; et nous avons observé des épileptiques devenir des mélancoliques[1]. Nous avons également vu des lépreux[2] devenir des mélancoliques. Aucun de ces derniers n'a recouvré la santé.

D'ailleurs, nous avons lu dans le *Livre des Épidémies* que la transformation de la mélancolie en épilepsie résultait de la corruption par la bile noire de la complexion de l'esprit vital qui siège dans le cerveau. L'obstruction des ventricules et des cavités de ce dernier provoque alors l'épilepsie. Quand la mélancolie suit l'épilepsie, la cause réside dans l'altération de la constitution de l'esprit vital, du fait de la bile noire qui obstrue les canaux du cerveau. Et puisque nous avons évoqué l'épilepsie, exposons sa définition et ses formes.

---

(1) A la fin du sixième livre des *Épidémies*, Hippocrate écrit : « Les mélancoliques deviennent d'ordinaire épileptiques, et les épileptiques deviennent d'ordinaire mélancoliques ». On ne peut qu'être frappé par cette grande intuition hippocratique, sachant le rôle des antiépileptiques dans la stabilisation du trouble bipolaire et l'effet de la sismothérapie, qui est en fait l'induction d'une crise grand-mal, dans le traitement des dépressions sévères. Par contre, l'association à la lèpre ou à l'éléphantiasis est totalement infirmée.

(2) Un doute subsiste quant au sens du mot arabe الجذام s'agit-il de la lèpre ou bien de l'éléphantiasis ? Gmrek pense que ce que « Galien entend par éléphantiasis est sans nul doute la lèpre des auteurs du Moyen âge, c'est-à-dire notre maladie de Hansen » *Les Maladies à l'aube de la civilisation occidentale* p. 248.

Définition, signes et formes de l'épilepsie :

L'épilepsie est une humidité obstruante qui bouche partiellement les ventricules du cerveau, entravant toute action de l'âme jusqu'à la levée de l'obstacle, autrement dit jusqu'à ce que la nature absorbe cette substance oblitérante. C'est pour cela que les Anciens appelaient ce mal, « petite apoplexie » car l'apoplexie est l'obstruction complète du cerveau.

Les symptômes qui accompagnent ou succèdent à l'épilepsie sont une abolition de la sensibilité, une suppression des mouvements volontaires, une perte de la raison et une atteinte des trois facultés directrices du cerveau. S'ajoute à cela une atteinte pire encore que toutes les autres: la survenue du mal appelé «*tâtis*»[1], qui est le raidissement du corps. Ce mal cause un tel dommage à la chair qu'il en chasse rapidement l'esprit vital. Il s'ensuit également des secousses, un écoulement de sperme, une émission involontaire de selles et d'urine. Pour cette raison, les sottes gens dénomment ce mal «la maladie divine», à cause de la grave épreuve qu'elle représente, et prétendent que lorsque Dieu -béni et exalté soit-Il-est en colère contre quelqu'une de Ses créatures, Il l'accable de cette infirmité.

Le petit peuple la désigne sous le nom de «mal occulte[2]» en raison de son impénétrabilité et du mystère de ses causes et pense qu'elle est provoquée par les djinns. Quant aux médecins, ils l'appellent «grand mal», épilepsie ou encore folie[3].

La maladie se présente sous deux formes : l'une s'accompagne de fièvre et naît de la bile jaune ; son mécanisme est clair. L'autre forme survient selon une cadence précise en rapport avec la

---

(1) Le "*tatis*" , évoqué ici, semble correspondre à la phase tonique de la crise épileptique.

(2) Le terme arabe utilisé ici est الكاهني qui renvoie aux prêtres, en particulier ceux de l'antiquité.

(3) «Sur la maladie dite sacrée voici ce qu'il en est. Elle ne me paraît nullement plus divine que les autres maladies ni plus sacrée, mais de même que toutes les autres maladies ont une origine naturelle à partir de laquelle elles naissent, cette maladie a une origine naturelle et une cause déclenchante.» Hippocrate, *Maladie sacrée*.

croissance et la décroissance de la lune. Elle-même se subdivise en deux formes :

- La première naît de la bile noire. Nous y avons déjà fait allusion dans notre description de la mélancolie qui se transforme en épilepsie et de l'épilepsie qui évolue vers la mélancolie.

- La seconde provient du flegme et c'est la présentation la plus fréquente de l'épilepsie. A son propos, Galien[1] fait cette observation pertinente : « L'épilepsie survenant lorsque le croissant lunaire se remplit et que la lune tend vers sa plénitude est causée par une substance excessivement humide ; car tout ce qui est humide augmente de volume avec la lune montante et croît avec sa croissance.»

Chez l'homme, les quatre humeurs augmentent, mais surtout le sang ; le cerveau aussi en raison de sa complexion humide. Tous croissent avec la croissance de la lune. Par contre, l'épilepsie à la phase décroissante est imputable à une humeur froide et peu humide.

Nous pensons avoir suffisamment discouru dans ce chapitre. Nous allons le clore, ayant épuisé ce que nous voulions exposer au sujet de la mélancolie, de ses formes et de ses signes. Mettons donc fin à ce livre, avant d'aborder un autre essai où nous indiquerons les moyens de soigner ce mal, puisse Dieu nous aider dans nos efforts.

---

(1) Galien, *Des lieux affectés*, III, IX. p. 562.



Maître et disciples

Traité de la Mélancolie

[Livre Second]

Ce deuxième volet du livre de la mélancolie comporte deux chapitres : un chapitre sur le traitement médical global et un autre sur le traitement curatif partiel [1]. Ainsi, dans notre ouvrage, se compléteront l'approche théorique et l'approche pratique.

Nous avons largement décrit, dans la première partie de ce traité, les différents aspects de la mélancolie, je veux dire ce qu'elle est, comment elle est, d'où elle provient depuis ses causes premières et lointaines jusqu'à ses causes proches et particulières. Il convient donc que nous fassions suivre cela et que nous l'explicitions en rapportant les moyens de traiter ce mal et que nous le fassions dans le meilleur langage possible. Je veux dire qu'il convient de nous étendre sur le sujet en éclaircissant un peu les obscurités et en développant les commentaires, pour que Dieu en fasse profiter quiconque consultera ce livre parmi les gens de la profession médicale, les érudits, les personnes cultivées de la classe moyenne et les gens humbles et tous ceux qui cherchent à échapper à l'ignorance pitoyable et avilissante. Que Dieu nous vienne en aide.

Nous disons que le principe de traitement dans toute maladie chronique consiste à chasser la matière qui en est responsable, à moins que les troubles qu'elle engendre ne soient graves et menaçants pour la vie. Dans ce cas, nous devons tout d'abord nous attaquer aux symptômes et les traiter, et ensuite seulement porter notre effort sur la purge et l'épuration du corps[2].

(1) Le texte arabe parle de العلاج الجزئي المراسي, ce qui semble faire référence au traitement ciblant un organe en particulier.

(2) Pour une analyse détaillée de la thérapeutique exposée dans cet ouvrage, se référer à S. Ammar et Ch. Mabrouk « *Le Traité de la mélancolie d'Issac Ibn Omrane* » in L'information Psychiatrique Vol. 55- N° 3, Mars 1979.

La mélancolie est une maladie aux manifestations psychiques redoutables, nous avons précédemment explicité cela. Aussi devons-nous combattre ces troubles, en éliminant ces fausses présomptions, ces suppositions malsaines et ces mauvaises pensées. On usera de pensées sensées rassurantes, d'arguments logiques et de considérations convaincantes pour arracher de l'âme ce qui s'y est incrusté et de la mémoire ce qui s'y est enfermé de croyances irrationnelles et faux raisonnements[1]. On fera également jouer de la musique et on servira du vin dans la mesure où le médecin jugera que sa consommation conditionne la guérison du malade[2].

Quant aux troubles physiques, tels l'amaigrissement, l'insomnie et la dyspepsie, ils sont en réalité moins à craindre et on peut surseoir à leur traitement ; ils pourront plus tard être corrigés par une diète appropriée.

Puisque la mélancolie revêt diverses formes, divers sont aussi les remèdes qui lui sont prescrits. Son traitement général est l'élimination de la bile noire par la purgation et par une bonne régulation des six éléments fondamentaux qui régissent la vie des êtres humains et que nous avons précédemment cités. Quant au traitement spécifique des différentes formes de mélancolie, en voici le détail :

Description du traitement spécifique des différentes formes de mélancolie

La forme consécutive à la fièvre sera soignée de la même manière que la forme de *birsam,* appelée « phrenitis ».

Dans la forme cérébrale, on appliquera les soins au cerveau après avoir rasé le crâne. On versera sur la fontanelle du lait de femme, d'ânesse ou de brebis encore chaud.

---

(1) On retrouve ici une belle définition avant la lettre- de la psychothérapique cognitive.

(2) La consommation du vin chez Ibn Imrân est présentée comme une prescription médicale qui est conditionnée par une attente de guérison chez le malade.

On servira également comme sternutatoire du lait de femme ou des produits analogues tels l'huile de violette, l'huile de nénuphar ou celle des semences de concombre. On les appliquera particulièrement sur la tête. On usera aussi de décoctions tièdes de camomille, de capsules de pavot, de semences de guimauve, de feuilles de violette, de bâtons de réglisse, de mélilot et autres médicaments semblables.

Pour ce qui est de la forme ascendante du bas du corps vers le cerveau, les soins doivent être appliqués de manière uniforme à tout le corps, sans en exclure la tête.

Quant à la forme hypocondriaque de la mélancolie, j'entends celle qui provient du déversement de la bile noire dans le cardia, le médecin visera deux objectifs :

1. L'un est de chasser la bile noire responsable de la maladie et d'éliminer tout autre chyme, bile jaune ou flegme, qui aurait pu se former dans le corps par suite de la corruption des aliments et se déverser ensuite dans l'estomac.
2. Le deuxième objectif est de porter son attention aux conditions de la digestion et de tout faire pour prévenir la corruption des aliments dans l'estomac et éviter toute indigestion. Il faut se préoccuper, quotidiennement, pour que dans la nourriture soient réunis trois éléments :

- Premièrement, une alimentation humide à un double point de vue : humide de fait comme dans les aliments frais et de qualité, tel que le poisson aux arêtes souples ; et potentiellement humide comme dans le poisson frais et de roche et les fruits frais et mûrs.
- Deuxièmement, on cherchera à ce que la nourriture soit légèrement âcre afin de faciliter la digestion et de réduire la densité de la bile noire, comme avec le pouliot et la menthe en veillant à ne pas en abuser, afin de ne pas corrompre la nature du sang et ne pas le transformer en substance atrabilaire.
- Troisièmement, on recommandera quotidiennement aux malades des bains chauds d'eau douce ou d'eau fraîche en plein

été. Après avoir séché le corps, on l'enduit avec des baumes tièdes et très humidifiants. On consommera lentement une décoction de pavot avec certaines huiles qui font disparaître les distensions gazeuses des hypocondriaques, favorisent la digestion et humidifient le corps.

De tous ces médicaments nous traiterons à la fin du livre au sixième chapitre, par des formules que nous détaillerons. Nous évoquerons aussi des médicaments qui éliminent la bile noire et dont certains sont buvables au printemps ou en automne, et d'autres durant toute l'année. Nous n'oublierons pas de parler des médicaments qui éliminent la bile noire quand elle se mélange au flegme et à la bile jaune, et aussi des médicaments qui aident la digestion et diminuent les flatulences des hypocondriaques.

Mais avant de décrire ces remèdes, nous parlerons de l'équilibre des six éléments fondamentaux chez les mélancoliques. Ainsi aurons-nous cerné l'ensemble de ce que nous cherchons à consigner dans ce traité au sujet de leur thérapeutique. Puisse Dieu nous donner la force de mener cela à bonne fin.

Discours sur l'équilibre des six éléments chez les mélancoliques et leur régulation.

Ces éléments sont :

- L'air ambiant et le pays.
- La nourriture.
- Le sommeil et l'éveil[1].
- La déplétion et la rétention.
- Le mouvement et le repos.
- Les tourments psychiques.

(1) L'importance du rythme sommeil-éveil a toujours été soulignée par les médecins de mélancoliques. Ibn Sina (Avicenne) considérait le sommeil comme le premier facteur curatif dans cette maladie. Plusieurs études récentes viennent confirmer cette importance. Voir Anna Wirz-Justice *& al.* « *Chronotherapeutics for Affective Disorders* » Karger, Basel 2009.

Le pays le plus recommandé dans cette maladie est celui d'azimut oriental, en raison de l'équilibre de son air et du caractère égal de son climat à tous les points de vue. Il convient aussi que la porte de leur maison soit orientée vers le levant afin de recevoir le vent d'est et qu'elle soit légèrement ouverte sur le nord.

Ils veilleront aussi à quitter pour, d'autres régions, celle où ils sont tombés malades[1]. Tel est le cas dans toutes les maladies chroniques et en particulier la mélancolie et la fièvre quarte. Telles sont les mesures à appliquer à ces malades, en ce qui concerne l'atmosphère dépourvue de brise.

Le régime consistera à humidifier l'année durant, mais en hiver on veillera à ce que la nourriture tende à être plus chaude et moins humide ; on en augmentera aussi la quantité. En été, on la diminuera, mais on la cuisinera plus. Au printemps et en automne, elle restera inchangée.

Du régime alimentaire, Galien, dans son commentaire sur les *Aphorismes* d'Hippocrate, a dit : « Il y a trois nourritures : une grossière, une subtile et une moyenne.»

Par nourriture grossière, il entend la nourriture proprement dite ; par nourriture subtile l'air qu'on respire et par moyenne la boisson.

Nous avons précédemment parlé de ce que devait être leur alimentation en air, puisque celui-ci nourrit l'esprit vital et modifie l'esprit animal. Sur la nourriture par les aliments et la boisson, nous nous expliquerons longuement. Toutefois, Galien a dit dans son commentaire sur les *Épidémies* que les affusions, les bains et les frictions du corps par des huiles s'apparentent aux aliments, et c'est exact.

Il faut asseoir les malades au bord d'une rivière, là où souffle le vent du nord, et remplir d'eau fraîche des amphores qu'on mettra

(1) La prescription de voyage "pour changer d'air" est fréquente chez les Anciens, comme moyen de distraction ou pour changer d'environnement. Porphyre déclare dans le chapitre XI de sa *Vie de Plotin* avoir été une fois proche du suicide. Plotin, diagnostiquant que son état procédait de quelque maladie mélancolique, lui conseilla de voyager, ce qui le sauva. in Klibansky, Panofsky & Saxl: *Saturne & la mélancolie*. p. 96, n 113.

devant eux pour qu'ils profitent de cette fraîcheur, surtout en pleine canicule.

Maintenant, nous allons parler de la nourriture qui leur convient, puis des boissons et, enfin, de l'évacuation et des embrocations.

Nous avons déjà, dans ce qui précède, prescrit que la nourriture des mélancoliques devait être humide au double point de vue, de la nature et de la préparation, telle que la viande d'agneau d'un an ou d'agnelet. En effet, la chair d'agneau a la propriété de guérir de la bile noire. Pareillement, la viande des chevreaux de lait engendre une très fine humidité. Il en est de même pour la viande de poulette, de par son humidité et son âge, et pour celle des coquelets engraissés pour la finesse de son sang et de sa chair. Également, les viandes de perdrix, de faisan et de gélinotte produisent un sang fin et humide qui, lorsqu'il rencontre l'atrabile, la rend plus délicate ; et de leur mélange, naît une mixture plus fine.

Les petits poissons de rivière à la pâture fine, qui sont charnus et peu gras, tels que la carpe, le barbeau, le turbot et la barbue[1] ; les poissons de haute mer et de roches, de petite taille et maigres, sont tous très profitables à l'atrabile et aux mélancoliques, en raison du sang fin, subtil, visqueux et frais qu'ils engendrent en eux.

Selon moi, la chair d'écrevisse, grillée ou cuite dans de l'eau d'orge ou dans de l'eau salée, leur est bénéfique grâce à ses vertus dans le traitement de la maigreur et de la phtisie. Les corps des mélancoliques étant chauds et secs, ils ont besoin d'humidité, de fraîcheur et de moiteur, comme en ont besoin les organismes des phtisiques et des convalescents amaigris. Le régime de tous ceux-là doit privilégier le besoin d'humidité à tous les égards, je veux dire la prise de nourriture et de boisson, la respiration d'un air frais humide et tempéré, les bains d'eau douce, la consommation des viandes que nous avons déjà énumérées. Ces viandes seront préparées bouillies à l'eau avec un peu de sel. Cette forme de préparation est la meilleure de toutes, car l'incorporation de toute

(1) Nous avons essayé de traduire le plus fidèlement possible les noms de poissons de rivière, mais sans trop de certitude ; beaucoup d'eau a coulé vers la Méditerranée depuis le 9e siècle !

autre substance ne pourra qu'en diminuer l'humidité et en altérer la nature, comme de les préparer au *murri*[1], au vinaigre, au jus de cuisson des légumes piquants ou aux épices. De même, leur préparation autrement que bouillies diminue leur humidité et les épaissit, rendant ainsi plus difficile leur descente, leur évacuation et leur digestion ; tel est le cas de la friture et du "tajine"[2].

Toutefois, étant donné que la forme hypocondriaque de la mélancolie se manifeste par l'indigestion du fait de la présence de bile noire, il convient de rajouter aux bouillons des choses légèrement piquantes et de nature humide, comme de leur rajouter de l'oignon. Celui-ci, en effet, donne de la saveur aux aliments et leur procure tout à la fois amertume et douceur ; il facilite la digestion, excite l'appétit et libère la chaleur vitale bloquée par le froid de la bile noire.

Il en est de même du bouillon de pois chiche, qui est agréablement doux, piquant et légèrement salé. Il ramollit modérément le bol alimentaire.

Nous avons aussi trouvé que l'eau de poireau et l'eau de menthe, prises en faible quantité, procurent aux aliments un goût agréable et un léger piquant qui aide à digérer sans nuire, car il se répand dans l'humidité abondante du bouillon.

Se portent mieux, selon moi, ceux qui se contentent des viandes que nous avons déjà citées. Car tous les légumes, s'ils sont humides comme il convient pour cette maladie, ont cependant trois grands inconvénients :

1. Ils ont un faible pouvoir nutritif.

---

(1) Le *murri* vient probablement de *muriatica salsa*. Contrairement à son ancêtre romain le garum, il ne se fait pas uniquement avec du poisson mais aussi avec des céréales (blé, orge). Comme condiment, le murri a été progressivement délaissé, au 18e siècle au profit d'épices et de produits (piment) venus de très loin.

(2) Terme emprunté à l'arabe طاجين « plat de terre qui ressemble à une poêle à frire; tout ce que l'on cuit ou rôtit dans cet ustensile » (Dozy t. 2, pp. 27-28), lui-même emprunté au grec τάγηνον, τήγανον « poêle à frire »

2. Ils ont une humidité résiduelle qu'ils tirent de l'eau et qui ne profite pas à l'organisme. Au contraire, elle corrompt la nature du sang et provoque gonflement et flatulences.
3. Ils génèrent beaucoup d'excréments et s'imprègnent de leur essence ; ils comblent les intestins de résidus sans qu'on ne s'en aperçoive. Il en résulte un ventre plein de superfluités et de ventosités.

Ces deux dernières particularités sont très nuisibles au type hypocondriaque de la mélancolie. Néanmoins, les légumes ont une seule et unique qualité : celle d'assouplir le ventre et de faciliter la digestion. Cette vertu corrige ces inconvénients et les compense.

Avant d'utiliser un remède, qu'il soit médicament, aliment ou toute autre chose parmi les matières qui peuvent modifier l'organisme du malade et dont on attend un bénéfice ou on redoute un dommage, il convient de comparer son efficacité à sa nocivité. S'il est aux trois quarts utile et pour un quart nuisible, le médecin ne doit pas hésiter à l'administrer en toute confiance et en toute sérénité, car il sera aisément apte à juguler l'effet indésirable, après la disparition du mal et son éradication.

Mais si la nocivité du remède lui semble égaler son bénéfice ou le dépasser, il faut absolument que le médecin s'abstienne de l'employer. A quoi bon un remède dont la nocivité égale ou dépasse l'efficacité ? Le prescrire ne serait qu'ignorance et erreur.[1]

Les légumes utiles aux mélancoliques sont ceux qui sont humides à l'excès ou ceux qui ont un pouvoir excitant, digestif et laxatif. Les légumes humides sont : l'arroche, la laitue, la blette, l'épinard, la courge, la mauve, la corette et le pourpier. Les légumes digestifs et laxatifs peuvent contenir soit des éléments boriques soit des éléments excitants, soit les deux à la fois. Les légumes contenant du borax sont, par exemple : la bette et la laîche des sables[2]. Les légumes excitants sont, par exemple : l'oignon, le

(1) Ce paragraphe d'Ibn Imrân est une belle illustration du principe hippocratique "*primum non nocere*" .

(2) La traduction de بقلة الرمل en laîche des sables est incertaine et doit être prise avec réserve.

poireau, le cresson, le trèfle musqué, la roquette, l'aneth, l'anis, la menthe, le serpolet. Toutes ces plantes, ainsi que leur eau, ont un pouvoir laxatif non négligeable.

Il est des légumes qui sont à la fois salés et âcres : c'est le cas du chou. Aussi n'est-il pas étonnant que son eau soit laxative comme celle des lentilles noires. Certains légumes, comme les asperges, réunissent à la fois humidité et légère âcreté. La moutarde des champs, préparée dans du *murri* et du gras a un effet digestif et laxatif. La laitue, préparée dans du *murri* et de l'huile de sésame ou d'amande douce, fournit une nourriture humidifiante et engendre un sang épuré, plus sain que celui qu'engendrent les légumes en général. Elle accélère l'évacuation des matières de par son gras et son humidité ainsi que par l'action excitante du *murri*. Le fenugrec facilite le transit grâce à son humidité, surtout lorsqu'il est préparé dans du *murri* ; néanmoins, il possède une chaleur incontestable. Quant au liseron, j'ai vu des gens en consommer, bouilli avec du *murri*, de l'huile et un peu de vinaigre ; il facilite leur transit. Toutefois, je l'ai goûté et trouvé peu agréable.

La cuscute est consommée en Iraq, son goût semble être proche de celui de l'endive et elle possède un pouvoir laxatif. Voici les légumes qui sont bénéfiques dans la variété hypocondriaque de la mélancolie.

Par contre, tous les légumes secs sont à proscrire parce qu'ils engendrent des vents et entraînent une mauvaise digestion, excepté le bouillon de pois chiches, à cause de son pouvoir purgatif. Les figues[1] sont d'une qualité à la fois sucrée et salée, mais leur nature est une flatulence qui engendre un mauvais mélange. De même, le bouillon de haricots[2] pourrait leur être bénéfique, grâce à son effet diurétique et à l'assouplissement du ventre qu'il provoque de par sa fraîcheur et son pouvoir purgatif. Le haricot mungo est en position intermédiaire entre ce qui retient et ce qui évacue, il est

(1) Il s'agit très probablement ici d'une erreur, voulait-il parler des fèves ?

(2) Les haricots consommés de nos jours étant originaires d'Amérique, Ibn Imrân doit sûrement parler d'une autre légumineuse (probablement la bonette).

froid et peu humide. Bouilli ou cuit, il gagne en humidité. Préparé avec d'autres légumes ou avec du gras, il assouplit l'estomac. Par contre, tous les autres légumes secs leur sont nuisibles.

Parmi les fruits utiles aux mélancoliques, les figues sèches. Toutefois, il faudrait les consommer avec modération à la fin des repas, car ils libèrent facilement les fèces en fin de nuit. Beaucoup de produits sucrés ont ce même effet, en relâchant les mécanismes du ventre et en favorisant l'expulsion des excréments, comme le miel, le sucre de canne, le sucre pénide et le jus de sucre de canne préalablement grillée pour en faire disparaître le potentiel de flatulence. Le raisin sans pépin a, lui aussi, un effet laxatif bénéfique aux mélancoliques. Les dattes pourraient les aider, si ce n'était leur chaleur malfaisante ; car elles engendrent une bile jaune capable de se transformer rapidement en atrabile. Les amandes vertes et les amandes sèches ramollissent légèrement le ventre, grâce à leur humidité et à leurs huiles. Les noix consommées avec les figues pourraient avoir le même effet, ainsi que les amandes avec les figues. Le jus de raisin mûr et sucré libère le ventre à l'excès. Quant aux figues fraîches, je ne les recommande pas car, même de bonne qualité, elles gonflent le ventre. Le jus de grenade sucrée sans pépin assouplit le ventre ; les noix et les amandes pourraient avoir le même effet, grâce à leur douceur et à leur fraîcheur. Le melon sucré, pris à jeun en petite quantité, ramollit le ventre. Toutefois, sa prise avec du sucre le dégrade, le transforme et le rend encore plus laxatif. Les poires fraîches, sucrées et mûres, arrosées d'hydromel assouplissent, comme l'a préconisé Galien. Les mûres noires douces assouplissent, surtout à jeun, vu le pouvoir laxatif des radicelles de mûriers. Voilà ce que je sais des fruits utiles aux mélancoliques, les autres leur étant déconseillés.

J'ai pu aussi observer que la consommation d'eau fraîche profite à certains mélancoliques, du fait de l'humidité inhérente à sa nature et à son action. Ils ne sont nullement incommodés par son froid, qui pourrait même convenir à l'humeur chaude de leur estomac : il leur profitera ainsi, soit par nature, soit par un heureux accident. Toutefois, l'expérience prouve que le vin coupé leur

est plus bénéfique, autant pour leurs corps que pour les troubles psychiques causés par la bile noire, grâce à la bonne humeur qu'il provoque et à la suppression de la hargne, de la morosité et de la méchanceté qui caractérisent les colériques.

Al Kindi[1] raconte qu'Orphée[2], le musicien, a dit : « Les grands de ce monde m'invitent à leurs festins pour se délecter et jouir de ma musique. Mais c'est moi qui me délecte et jouis, en faisant passer leur âme de la colère à la paix, de la tristesse à la joie, de la tension au calme, de l'avarice à la générosité et de la crainte à l'audace ! »

Si l'art musical a la vertu de corriger les caractères et de traiter les maladies de l'âme au point de les transformer en des états tout contraires, que ne ferait pas, à plus forte raison, le vin ? Cependant, si quelqu'un nous objectait que le vin frappe l'esprit et pousse ses buveurs dans le ridicule et la confusion, comment alors guérirait-il la mélancolie? C'est plutôt un mal qui altère l'esprit et engendre ruminations et mauvaises pensées. Nous lui répondrons: on administrera ce remède un jour et on s'abstiendra le suivant, et ce durant vingt et un jours !

Certains ne reçoivent qu'une petite quantité de vin. Ceci est d'un grand préjudice. Car, le vin agit faiblement dans son évacuation et se transforme en ventosités épaisses à cause de l'emprise des soucis sur eux. S'ils en boivent plus, ils pourront combattre le mal, le vaincre et évacuer abondamment.

On prendra soin de ne rien donner à manger au malade, le jour où on lui administre du petit lait ; et s'il venait à avoir très faim, de

(1) Al-Kindi (801-873), appelé le philosophe des Arabes, était un véritable esprit encyclopédique. Proche du courant mutazilite, il essaya d'opérer un syncrétisme entre le platonisme et l'aristotélisme. Il écrivit environ 245 livres dont 16 en astronomie, 11 en arithmétique, 32 en géométrie, 22 en médecine, 12 en physique, 22 en philosophie, 9 en logique, 5 en psychologie et 7 en musique.

(2) Orphée : personnage de la mythologie grecque, il savait par les accents de sa lyre charmer les animaux sauvages et parvenait à émouvoir les êtres inanimés. Héros voyageur, il participa à l'expédition des Argonautes au cours de laquelle il triompha des sirènes.

jour comme de nuit, qu'il mange alors du pain blanc trempé dans du vin coupé. En effet, le mélange de pain et de vin coupé a une capacité extraordinaire pour corriger les mauvaises humeurs.

Ceci tient au fait que ce mélange peut, grâce à la délicatesse du vin et à sa chaleur habituelle, faire fondre la matière et la dissoudre si elle est épaisse ou visqueuse ; et qu'il peut, grâce à l'humidité du vin et du pain, éliminer ce qui en est ulcérant ou médiocre. Le vin coupé tire de l'eau une fraîcheur modérée et une humidité importante. Et le pain en tire une délicatesse, une finesse et la suppression de la viscosité et de la gluance. Le vin coupé acquiert, grâce au pain, une humidité dense et douce qui diminue de son piquant et de sa teneur.

Nous tenons pour preuve de tout cela que si nous mettons dans du vin sec et grossier, six heures avant de le boire, beaucoup de pain et qu'on le laisse tremper toutes ces heures, le vin s'amollit alors et s'adoucit dans son action et ne frappe plus l'esprit par sa chaleur et son piquant.

Selon Galien, il faudrait, pour éliminer la bile noire, surtout dans les tumeurs ulcérées, boire, à chaque prise, le poids de deux dirhams d'épithym dans du petit lait. Nous trouvons cette opinion du Maître pertinente et nous l'acceptons autant par humilité que par respect pour son autorité. Nous l'avons d'ailleurs expérimentée et trouvée appropriée à toutes les formes de bile noire. Plus d'une fois, nous avons mélangé de l'épithym avec un peu de scammonée et nous l'avons trouvé efficace.

Galien préconise aussi la scammonée dans du petit lait, pour soigner la jaunisse consécutive à la propagation de la bile jaune à la surface de la peau. Nous l'avons, nous aussi, essayé avec succès. Nous avons également prescrit ce composé avec du myrobolan citrin dans le traitement de la gale et des affections de la bile jaune : nous avons guéri en nombre ceux qui en ont pris. Nous l'avons aussi prescrit additionné de grenade et de myrobolan noir à des personnes atteintes de dartre noire, dans les lésions qui éperonnent la peau et pour les marques hideuses occasionnées par la bile noire. Dieu l'a rendu bénéfique pour elles.

Tout récemment, nous l'avons prescrit pour de gros ulcères lépreux apparus aux paumes et aux extrémités : le malade en a été guéri en sept jours. Toutefois, ceci n'a été possible qu'après un régime purgatif sévère, incluant saignée et purge du mélange noir. Je ne sais combien de fois je l'ai prescrit, avec un extrait d'absinthe, pour les morsures du cardia, pour les brûlures observées chez les buveurs de vin et pour les palpitations dues à la bile jaune accrochée au cardia. Grâce à quoi, je les ai guéris de ce mal.

Nous l'avons également prescrit avec une hiera picra[1] à une personne qui souffrait d'une inflammation au foie, avec une thrombose due à la lie du sang. Dieu le lui a rendu bénéfique.

Disserter sur l'emploi du petit lait additionné de médicaments laxatifs reviendrait, si l'on s'étalait sur le sujet et en faisant cas de chaque malade, à entreprendre une tâche sans fin. Mais puisque nous l'avons abordé, nous nous devons de développer ses règles générales et ses actions globales, car les mots sont tressés les uns aux autres du fait de l'enchaînement de leur sens et de sa continuité.

Le motif pour lequel on prescrit le petit lait dans diverses maladies est sa capacité à expulser la bile jaune et ce pour deux caractéristiques qui lui sont inhérentes :

La première - et c'est la plus puissante - c'est qu'il est fortement humide et froid ; ainsi, fait-il sortir la bile jaune par opposition, lutte, purge et expulsion, vu que la répulsion caractérise les contraires.

La deuxième caractéristique est, à ce qu'on prétend, que le petit lait possède un piquant qui lui permet d'aspirer la bile jaune, car l'expulsion et la purge ne sont pas dans l'essence d'un laxatif absolu, mis à part qu'il a dans sa nature une force attractive qui aspire et arrache. Cette force attractive ne peut s'exercer que grâce à la chaleur, de par son action, et à la sécheresse, de par sa nature. Toutefois, la chaleur est plus importante en elle que la sécheresse, car la chaleur dessèche et aspire et la sécheresse bloque l'action.

(1) Hiera picra (littéralement sacrée amère) : préparation médicinale purgative de la bile noire, a base notamment d'aloès. Voir : la pharmacopée d'Avicenne, R. Jazi et F. Asli, revue «Essyadli». n° 70, pp. 27-35, décembre 1998 .

Puisque la durée de l'attraction est courte, le recours à la sécheresse sera court. De même, comme la durée d'action de la force expulsive est courte, elle nécessite peu de sécheresse et peu de chaleur car l'expulsion est plus facile que la rétention et plus aisée. Pour cette raison, la force rétentrice n'a pas besoin de trop de sécheresse à cause de sa constance dans la rétention et sa durée prolongée ; et elle a besoin de peu de chaleur pour exercer une rétention. La force digestive nécessite de la chaleur pour transformer, digérer et changer la nature des aliments ; ceci ne pourra se faire que grâce à la présence d'une humidité. C'est à cette chaleur et à cette humidité que la digestion doit son action.

Nous retiendrons de cet exposé que la chaleur est nécessaire à toutes les forces, car elle est agissante ; mais pas le froid, car il est mortifère. Toutefois, cette chaleur se manifeste en ces forces à des degrés divers. La force attractive en nécessite une très grande partie, vu que l'assèchement et l'attraction exigent une très forte chaleur. La rétention et l'expulsion nécessitent beaucoup moins de chaleur, car la rétention est constante et son action avec la chaleur est modérée. L'expulsion, quant à elle, est de courte durée et son besoin en chaleur est minime. La digestion, enfin, requiert une chaleur excessive pour la cuisson et une humidité considérable pour la descente et la maturation du bol. Quant à la sécheresse, elle est grossière dans l'attraction, modérée dans la rétention, excessive à cause de la durée de la digestion et minime dans l'expulsion en raison de sa courte durée.

Je pense que ce développement est suffisant en la matière, même si on est sorti de notre sujet, mais on est souvent amené à associer les idées quand elles se rapprochent ou se ressemblent.

Galien, le Maître, a par ailleurs explicité ce sens dans le sixième chapitre de son livre *Des Causes des Symptômes*[1] en évoquant le mouvement, du point de vue de la localisation et de la modalité.

Ramenons maintenant notre propos à son objet, de même qu'on ferait reculer un cheval fougueux à l'aide d'une bride solide.

---

(1) Ce livre de Galien *De symptomatum causis*, vient d'être traduit en anglais par **I Johnston** : Galen: *On Disease and Symptoms*. Cambridge University Press, 2006.

Revenons et disons que si le petit lait expulse la bile jaune, il le fait par le froid grâce à son humeur humide et froide, et par un mécanisme d'expulsion et d'opposition. Il le fait aussi grâce à ses capacités attractive et expulsive, qui lui viennent de son astringence qu'il doit à sa vertu spécifique. Puisque la bile jaune est chaude et sèche, il faut que le petit lait l'élimine grâce à son humeur opposée et aussi grâce à sa vertu.

Etant donné que la combustion et la genèse des résidus atrabilaires sont le fait de la chaleur et de la sécheresse, le petit lait doit pouvoir les annuler en opposant sa nature froide et humide à celle chaude et sèche de la combustion. Car si tu veux traiter la bile jaune avec du petit lait, tu dois chercher à en expulser la matière au moyen de la purgation et à en annuler les méfaits grâce au froid et à l'humidité. Et si tu cherches à corriger la combustion et la tendance de la bile jaune à se transformer en bile noire, tu auras besoin de combattre cela grâce au froid du petit lait et à son humidité qui introduit une nature froide et humide ; celle-ci annule, par son froid, la chaleur de la combustion et, par son humidité, sa sécheresse. La combustion étant une chaleur qui consume l'humidité, le froid annulera la chaleur et l'humidité compensera le manque d'humidité qui caractérise la sécheresse.

Galien a dit qu'il convenait de prescrire aux organismes qui tendent à devenir atrabilaires un régime froid et humide ; c'est ce que nous avons cherché à faire. Et si, pour traiter les atrabilaires, nous avons mélangé le petit lait aux médicaments purgatifs de la bile noire, c'est pour une raison sur laquelle il serait long de revenir et qui constitue une extraordinaire protection pour le malade, en plus de sa grande pertinence. Si nous cherchons à rafraîchir et humidifier les organismes des atrabilaires, c'est pour les préserver de la combustion et empêcher les médicaments purgatifs de léser leurs corps par leur chaleur. Car la bile noire ne se détache et ne se purge que très difficilement, après une administration répétée de laxatifs, à cause de sa densité, de son dessèchement, de la difficulté de la précipiter et de la peine à la dissoudre pour qu'il soit facile de la mobiliser et pour qu'elle quitte son emplacement.

Ce discours sur le petit lait est exhaustif et convaincant, pour toute personne douée de bon sens. De Dieu, j'implore le succès.

Description de pilules pour éliminer l'atrabile, indiquées dans toutes les affections sévères telles que la mélancolie, la lèpre, l'épilepsie et le cancer.

Prendre :

Myrobolan noir indien	ā.ā[1] 20 dirhams
Épithym	(ā.ā 20 dirhams)
Scammonée	2 dirhams

Piler, tamiser puis pétrir avec 2 ouqiehs d'huile d'amande douce.

Malaxer avec une fois et demie le poids de l'ensemble, de raisin sans pépin ou de suc épais parfumé.

En faire des pilules pesant chacune 4 mithqâls ; à conserver dans une terrine aux parois lisses.

La dose est d'une pilule à boire avec de l'eau tiède ou du rob de raisin un jour sur deux. On le prendra indifféremment, à jeun ou pas.

Le régime alimentaire à midi, est une viande d'agnelet bouillie. On remplacera l'eau par un vin délicat et onctueux.

On prendra ce traitement de manière continue au minimum 14 jours, en moyenne 21 jours et au maximum 30 jours. On en boira un jour sur deux ou sur trois, selon la force du malade.

Chaque fois que vous lirez dans notre livre au sujet d'un médicament laxatif pour les mélancoliques, qui purge leur bile noire, il faudra garder à l'esprit que ce médicament et ce régime sont indiqués à ceux d'entre eux, qui ont une complexion naturelle originellement tempérée et une santé et une constitution équilibrées.

Mais si le patient a déjà été expurgé ou s'il est de constitution faible, si la couleur de sa peau tend au brun et que ses veines sont saillantes, s'il a un tempérament naturellement chaud ou s'il

(1) ā.ā (à prononcer ana) : abréviation de «de chaque».

est consommateur d'aliments chauds qui produisent beaucoup de sang, comme les viandes et le vin, s'il a pris l'habitude de se purger par des saignées ou par les ventouses, dans tous ces cas, tu veilleras préalablement à le saigner, spécialement au printemps, à cause de la surabondance du sang en cette saison, en particulier. Tu feras cela à condition de surveiller le sang au moment de sa sortie : s'il est noir, sombre tel du goudron, tu continueras à saigner à la mesure des forces du malade jusqu'à ce qu'il soit sur le point de s'évanouir. Mais si le sang est d'un rouge vermillon, pourpre, n'en extrais plus rien, fût-ce le poids d'un seul dirham, et arrête la saignée immédiatement ; persister n'est qu'erreur et danger.

Telles sont les prescriptions de Galien[1] dans le traitement de ce type de maladie.

Autres pilules pour éliminer l'atrabile, dans la mélancolie et dans d'autres maladies dues à la bile noire.

Prendre :

Myrobolan indien	ā.ā 15 dirhams
Myrobolan de Kaboul	
Épithym	30 dirhams
Scammonée	3 dirhams

Piler séparément et tamiser.

Mélanger avec de l'huile d'amande douce, 2 ouqiehs.

Pétrir avec une fois et demie le poids de l'ensemble, de suc de violette ou de suc de raisin.

En faire des pilules de 6 à 7 dirhams chacune.

A prendre dissoute dans du rob de raisin, un jour sur deux ou un jour sur trois, si le malade est affaibli.

Le régime alimentaire qui accompagnera ce médicament sera de la viande d'agnelet bouillie, à prendre avec un muscat au bouquet

(1) Ibn Imrân reprend presque textuellement les indications de Galien dans *Des lieux affectés*, III, IX.

agréable, capiteux de par son âge. On en prendra 14 fois ou 21 fois surtout au printemps et à l'automne, s'il plaît à Dieu.

Autres pilules purgatives de la bile noire, peu couteuses et faciles à prendre ; que l'on peut prescrire aux mélancoliques pendant toutes les périodes de l'année, à jeun ou pas.

Prendre :

Myrobolan noir indien .... Épithym	ā.ā. 30 dirhams
Agaric .... Polypode commun	ā.ā. 10 dirhams

Piler, tamiser et pétrir avec 3 ouqiehs d'huile d'amande douce.

Mélanger avec une fois le poids total du médicament de miel et de raisiné, épaissi au feu, sans pépin et sans écume.

En faire des pilules pesant chacune 7 dirhams.

La posologie est d'une pilule tous les trois jours, dissoute dans ¼ de ratl de raisiné à prendre un jour sur deux.[1]

A prendre 14 fois ou 21 fois au printemps et à l'automne. Si cette posologie s'avère insuffisante pour dégager le ventre du patient, on prendra deux pilules par jour, une le matin et l'autre le soir.

Comme régime alimentaire, on prendra en fin de journée de la viande d'agneau bouillie ou de poulette bien en chair et on remplacera l'eau par un muscat vieux d'un an, s'il plaît à Dieu.

Autres pilules du même effet.

Prendre :

Myrobolan indien .... Myrobolan de Kaboul .... Épithym .... Polypode commun	P. E.[2]

(1) A noter ici une certaine confusion quant aux modalités de prise du médicament.

(2) P.E. : abréviation de «parties égales».

Piler, tamiser et mélanger avec une part d'huile de sésame ou d'huile de graines de courge douce.

Pétrir avec une fois et demie le poids du médicament de raisin sec dénoyauté ou de suc de violette sucré, ce dernier étant plus humide et plus efficace du point de vue laxatif.

En faire des pilules pesant chacune 6 dirhams.

Posologie : prendre au matin une pilule dissoute dans deux ouqiehs d'eau chaude sur laquelle on saupoudrera une demi-ouqieh de sucre blanc ou de sucre pénide blanc. On doit prendre le médicament de façon régulière et obligatoire, un jour sur trois, et ce, quatorze ou vingt et une fois, au printemps ou en automne.

Par contre, en hiver et en été, on relâchera la fréquence : en hiver à cause de la difficulté à mobiliser les résidus du fait de la léthargie ; en été, à cause de la faiblesse de la capacité de dissolution et de la chaleur du corps induite par la canicule.

Autre recette bénéfique, s'il plaît à Dieu :

C'est une recette délicate, car préparée sous la forme d'un breuvage qu'on boit avec les pilules contre l'atrabile. Ce breuvage dispense des raisinés et tient lieu de petit lait en dehors du printemps, lorsque celui-là n'est pas disponible en raison de la coagulation du lait durant les autres périodes de l'année. Grâce à sa froideur, il atténue la chaleur du médicament.

Prendre :

Pulpe de casse ....7 dirhams
Feuilles de violette sèches .... 5 dirhams
Semences de guimauve .... 30 dirhams
Graines de coings .... 30 dirhams
Poires ....20 unités
Jujubes .... 30 unités
Raisin sec .... 20 dirhams
Sébestes .... 60 unités
Bulbes de lys épluchés et concassés .... 5 dirhams

Faire cuire l'ensemble dans cinq ratls d'eau de source jaillissante, à feu tiède jusqu'à réduction à un ratl et demi.

Posologie : boire un demi ratl chaque jour où on prendra le médicament. Si on cherche l'effet du petit lait, on en prendra un ratl.

Si on veut le prendre pour soigner la bile jaune ou pour la chute de cheveux ou pour les ulcères sévères, on y additionnera au moment de la prise 2 dirhams de myrobolan[1] citrin ou ¼ de dirham de scammonée ou les deux à la fois, s'il plaît à Dieu.

Et si on veut lui conférer un goût sucré, on y ajoutera du suc de violette ou du julep ou du sucre.

Pilules que nous avons nous-même expérimentées et qui sont efficaces, grâce à Dieu, chez les lépreux et les mélancoliques.

Nous avons guéri, en les administrant, un très grand nombre de personnes. Elles font partie d'une formule officinale, en Iraq :

Prendre :

Myrobolan de Kaboul .... 25 dirhams
Épithym raffiné de son sable .... 47 dirhams
Scammonée .... 3 dirhams
Pulvériser et tamiser le tout. Y ajouter :
Huile d'amande douce .... } ā.ā. 3 ouqiehs
Armoise fraîche .... }

Pétrir dans du raisin sec noir, sans pépin, pilé et finement pulvérisé, telle une pommade.

Mélanger soigneusement dans un mortier.

En faire des pilules de 7 dirhams chacune.

Posologie : une pilule le matin, à accompagner soit du breuvage que nous avons précédemment décrit, soit de raisiné (*mibakhtaj*), soit d'un breuvage sucré.

On le prendra deux jours de suite et on s'abstiendra les deux jours suivants et ce, 14 ou 21 fois.

---

(1) S'écrit également myrobalan.

Autres pilules éliminant la bile noire

Je n'en connais pas de plus délicates ni de plus sûres, surtout lorsqu'elles sont prescrites pour une constitution accommodante qui répond bien aux purgatifs. Mais lorsqu'il s'agit d'organismes forts comme ceux des rustres et des paysans, on additionnera chaque pilule d'un danîq de scammonée, pour la rendre plus efficace et purger la bile noire.

Prendre :

Fumeterre	ā.ā. 20 dirhams
Myrobolan indien	
Épithym	

Réduire le tout en poudre, cribler et pétrir avec :

Huile de sésame	3 ouqiehs
ou	
Huile d'amande douce	
ou	
Huile de semences de courge douce	
ou	
Huile de violette......................................	

Mélanger avec le poids du médicament de suc parfumé ou de suc de violette.

En faire des pilules de 7 dirhams chacune, à boire avec de l'eau tiède ou d'eau d'hysope.

Ce traitement sera pris le matin avec régularité, un jour sur deux ou deux jours de prise suivis de deux jours d'abstention ou trois jours de prise suivis de trois jours de repos. On continuera à le donner, tant que la condition du malade et sa constitution le permettront et ce, 30 fois si on est assuré du temps, de la force et de l'importance de la matière à éliminer.

Mais lorsque certaines de ces conditions sont présentes et d'autres pas, comme lorsqu'on a le temps mais que la maladie n'engendre pas beaucoup de matière, ou lorsqu'on a le temps mais pas la force et que la matière à éliminer est modeste, on se limitera à 15 ou 20 pilules. Plaise à Dieu !

Mention de quelques potions de formule courte, efficaces contre la bile noire.

Nous les avons prescrites à maintes reprises à des lépreux et à des mélancoliques, avec beaucoup de succès. De plus, elles sont faciles à trouver et leur prix est abordable.

Recette :

Myrobolan noir indien................................2 mithqâls
Jus frais de fumeterre pressée .... $^2/_3$ de ratl
Sucre blanc sulaymani...............................10 dirhams

Prise durant 7 ou 10 jours, elle sera efficace.

Si on l'utilise chez des personnes difficiles à purger, on l'additionnera de $^1/_8$ de dirham de scammonée à prendre chaque jour ; plaise à Dieu !

Recette :

Jus frais de fumeterre pressée .... $^2/_3$ de ratl
Épithym pulvérisé ....2 mithqâls
Rob de raisin ....2 ouqiehs

Prise le matin durant 7 ou 10 jours, elle sera efficace.

Si le ventre du patient est constipé, on additionnera l'épithym de $^1/_8$ de dirham de scammonée, plaise à Dieu !

Recette :

Jus de fumeterre ....8 ouqiehs
Myrobolan noir indien pulvérisé................ 1 mithqâl
Rob de raisin tiède.....................................2 ouqiehs

Prise le matin durant 7 ou 10 jours, elle sera très efficace surtout au printemps et pour ceux dont la nature est facile et commode.

Recette :

Polypode commun pulvérisé ....2 dirhams ½

Casse ....1 écuelle

Prise durant 7 jours, elle sera efficace chez les mélancoliques et les lépreux.

Recette :

Prendre de près[1], 11 dirhams d'épithym en grains pulvérisé et tamisé, qu'on enserre dans une toile de lin enfumée. Laisser macérer toute une nuit dans un sirop doux, presser le tout dans le sirop pour lui faire passer la force de l'épithym puis filtrer.

Ajouter au sirop du :

Julep ou Suc de violette.......................................	1 ouqieh

ou

Huile d'amande douce .... quelques gouttes

Prise le matin durant 7 ou 10 jours, elle sera efficace chez les mélancoliques et purgera leur bile noire.

Le médecin Rufus a déclaré que si on prend régulièrement, le matin, au printemps, 11 dirhams d'épithym - ce qui est une dose complète -, cela éliminera largement la bile noire, à condition qu'il soit dissous dans du rob de raisin.

Pour sa part, Galien a écrit dans le livre la *Thériaque*[2] que l'épithym précipite la bile noire et l'élimine par voie basse.

---

(1) Mot incompréhensible.

(2) Galien aurait composé deux traités à cette potion préparée à base de centaines d'ingrédients et très prisées par les Empereurs : le *Sur la thériaque à Pison* et le *Sur la thériaque à Pamphilianus* dont l'authenticité est mise en doute. Au départ la thériaque désigna un contrepoison, mais elle finira par être considérée comme une panacée ; son utilisation perdurera jusqu'à l'aube du 20ème siècle.

Description d'un électuaire au myrobolan, préparé comme l'électuaire au coing et qui purge d'une façon royale.

Il est tout indiqué pour ceux qui vivent dans le luxe et l'opulence et expurge d'une atrabile résultant de la combustion de la bile jaune. Nous l'avons essayé chez les lépreux, chez les porteurs d'ulcères graves automnaux et chez les mélancoliques aux tempéraments chauds. Il est à prescrire en toute saison et à tout âge, compte tenu de sa fiabilité, de sa pureté, de sa haute délicatesse et du soin prodigué dans sa composition.

Prendre :

Ingrédient	Quantité
Grosses poires fraîches et fermes	100 unités
Pulpe de casse fraîche, écossée et égrainée	ā.ā. 100 dirhams
Manne d'Orient (de Perse)	
Sébestes noires grasses	
Tamarin égrainé	ā.ā. 1 ratl
Grosses jujubes	
Feuilles de violette sèches	ā.ā. 50 dirhams
Bulbes de lys épluchés et concassés	
Grains de guimauve	ā.ā. 33 dirhams
Corette	
Grains de coing	
Myrobolan indien dénoyauté et réduit en petits morceaux	300 dirhams

Faire cuire l'ensemble dans 50 ratls d'eau des sources, chaude en hiver et fraîche en été, jusqu'à réduction au quart, c'est-à-dire 12 ratls. Ensuite, tamiser au crible fin puis verser dans un récipient.

Débarrasser l'écume des médicaments, puis remettre sur le feu.

Saupoudrer 4 ratls de sucre, écumer puis épaissir à petit feu jusqu'à ce qu'il devienne comme de la crème.

Verser le mélange sur une table plane propre de tout gras ou sur un plateau en céramique lisse, laisser refroidir et consolider.

Découper au couteau la pâte de médicaments ainsi obtenue en tablettes carrées de 4 mithqâls chacune, envelopper dans des feuilles de cédrat, ficeler puis conserver.

Posologie : une tablette par jour, à prendre avec de l'eau chaude ou du rob de raisin.

Si l'on veut renforcer l'action laxative de cet électuaire, on y additionnera, avant de le verser sur la table et de le découper, 2 ouqiehs de scammonée en poudre.

On prendra le médicament trois jours et on s'abstiendra trois jours. Mais si le mal est intense, on le prendra tous les jours sans discontinuité ; s'il est peu intense, on prendra cet électuaire 10 ou 3 jours par mois.

Régime alimentaire : viande d'agneau bouillie, plaise à Dieu !

Si l'on veut que cet électuaire soit efficace dans le mal mélancolique hypocondriaque, on ajoutera à la préparation lorsqu'elle deviendra semblable à de la crème :

Menthe aquatique .... 30 dirhams

Serpolet	ā.ā. 15 dirhams
Anis	
Cannelle de Chine pure	

On mélange le tout soigneusement, on le découpe au couteau puis on l'enveloppe dans des feuilles de cédrat et on l'utilise.

Description d'un électuaire stomachique, d'obtention facile, qui peut tenir lieu des précédents comme purgatif d'une bile noire modérée et qui est merveilleux.

Prendre :

Myrobolan de Kaboul	ā.ā. 150 dirhams
Myrobolan indien	
Pulpe de casse	

Manne de Perse .... 100 dirhams

Faire cuire le tout dans 30 ratls d'eau jusqu'à réduction au tiers, macérer puis passer au tamis. Débarrasser l'écume des médicaments, remettre dans un pot, puis verser :

Rob de raisin...4 ratls

Sucre blanc...1 ratl

Laisser cuire à feu doux jusqu'à ce qu'il soit parfait.

Descendre et laisser refroidir. Verser le mélange sur un plateau en céramique lisse.

Découper au couteau en tablettes de 4 mithqâls chacune, envelopper dans des feuilles de cédrat, ficeler, puis conserver.

Si l'on veut renforcer son action laxative, on y additionnera, avant de le verser sur la table et de le découper, 2 ouqiehs de scammonée en poudre.



Description de poudres médicinales pour les prodromes de la bile noire, génératrice de mélancolie, de ruminations, d'obsessions et de la crainte des gens.

Nous les avons expérimentées et trouvées efficaces.

Prendre :

Myrobolan de Kaboul .... Myrobolan indien.................................... Myrobolan citrin	ā.ā. 10 dirhams
Turbith blanc	12 dirhams
Agaric..	8 dirhams
Scammonée.. Anis.. Ambre jaune .... Corail calciné .... Bois d'aloès pur .... Graines sèches de coriandre .... Cristaux de sel d'antimoine .... Feuilles de rosier .... Concrétions de bambou[1] .... Gomme mastic [2]	ā.ā. 3 dirhams
Zérumbet.. Doronic	ā.ā. 2 dirhams

(1) Ces concrétions sont appelées *tabashir*, de la taille d'un œuf de poule, elles se produisent moyennant certaines conditions très particulières dans les cavités du bambou vert. Ces concrétions ressemblent à un produit minéral et se composent de silicates, de potasse de chaux et de matières organiques. Elles sont actuellement utilisées en phytothérapie.

(2) La gomme mastic est une résine jaune clair fortement aromatique qui entre dans la composition de pâtisseries, d'eau vive, de gomme à mâcher. En Afrique du Nord, elle est utilisée comme encens pour combattre la fatigue. Le mastic le plus recherché est celui de l'île de Chios en mer Egée.

Ajouter une fois le poids de l'ensemble des médicaments de sucre « *tabarzed* ».

Piler le tout, bien tamiser puis mélanger avec le sucre.

Posologie : prendre un poids de 5 dirhams durant plusieurs jours consécutifs.

Régime alimentaire : poulet bouilli, remplacer l'eau par du vin muscat ou par une boisson à l'eau de rose fraîche.

Poudres médicinales pour les prodromes de la mélancolie, elles remontent le cœur et chassent les ruminations et les obsessions.

Prendre :

Roses (feuilles)	ā.ā. 5 dirhams
Concrétions de bambou	
Semences de pourpier	10 dirhams
Thym	ā.ā. 3 dirhams
Chardon acanthe	
Cristaux de sel d'antimoine	
Corail	
Zérumbet	
Doronic	
Soie brute brûlée	
Gomme mastic	
Musc	¼ dirham

Piler et tamiser séparément, mélanger le tout, additionner du sucre tabarzad.

Posologie : la prise est de 2 mithqâls avec de l'eau froide fraîche, plaise à Dieu !

Description d'un médicament musqué que nous avons formulé pour les faiblesses du cœur, pour les paniques et les frayeurs persistantes, pour les tremblements et les palpitations

Prendre :

Zérumbet	ā.ā. 5 dirhams
Doronic	
Béhen rouge[1]	
Béhen blanc[2]	
Roses rouges	7 dirhams
Concrétions de bambou	4 dirhams
Semences de giroflée	ā.ā. 3 dirhams
Graines de basilic	
Soie brûte brûlée	
Gomme mastic	
Menthe ou serpolet	
Bois d'aloès pur	
Castoréum	
Cristaux de sel d'antimoine	
Ambre jaune	
Corail calciné	
Semences sèches de coriandre	
Anis	
Semences de fenouil	
Menthe aquatique	5 dirhams

(1) Béhen blanc : racine à odeur agréable et à saveur gélatineuse, un peu styptique ; blanche en dehors et en dedans, à propriétés fortifiantes, engraissantes, prolifiques. Dictionnaire universelle de matière médicale et de thérapeutique générale. F.V. Mérat, Paris, 1830.

(2) Béhen rouge : racines rugueuses, courbes compactes, rouges en dehors, noires en dedans, auraient des propriétés astringentes, toniques.

Nard..	ā.ā. 2 dirhams
Cinnamome..	
Musc...	

Piler séparément puis tamiser avec un tamis de soie. Malaxer avec du miel écumé au même poids des médicaments, puis mettre dans un vase de porcelaine blanche en s'assurant de l'avoir bien fermé. Enfouir dans de l'orge durant six mois.

Posologie : la dose est d'un demi-dirham à un mithqâl. A prendre avec de l'eau de rose ou de l'eau froide ou avec de l'eau d'aloès et de mastic.

Si le malade est très réchauffé, qu'il en prenne deux ouqiehs avec de l'eau de pomme ou de grenade ou du jus de grenade frais. S'il ne l'est pas, qu'il les prenne avec une boisson de menthe pouliot.

Comme nous avons évoqué ce breuvage, décrivons la manière la plus exacte et la plus parfaite, à notre connaissance, de le préparer. C'est un breuvage bénéfique pour le hoquet résultant de l'humeur chaude et de l'humeur froide, pour les vomissements provoqués par la bile jaune ou la pituite et du mélange fixé au cardia qu'il soit atrabilaire, biliaire ou pituitaire.

Prendre :

Jus de balauste acide, pressée avec ses grains.. 5 ratls

Jus de pouliot frais ....4 ratls

Vin parfumé..3 ratls

Mettre le tout sur le feu et cuire jusqu'à réduction de moitié, tamiser puis remettre sur le feu.

Ajouter 3 ratls de sucre brut tabarzad ou de rob de raisin, laisser cuire à feu doux jusqu'à ce qu'il devienne aussi consistant que du natef; laisser au soleil pendant 7 jours.

Mettre dans des bouteilles en verre qu'on bouchera avec de l'argile consolidée de poils.

La dose est d'une demi-ouqieh à prendre avec une eau très fraîche.

Un autre médicament musqué, purgatif comme le précédent et qui élimine la bile noire de l'estomac ainsi que le flegme putride et corrompu.

Prendre :

Ingrédient	Quantité
Hiera picra	ā.ā. 10 dirhams
Extrait d'absinthe	
Myrobolan de Kaboul	20 dirhams
Semence de calament	ā.ā. 4 dirhams
Semence de mélisse citronnelle [1]	
Menthe sèche	
Gomme mastic	
Bois d'aloès pur	
Musc	1 mithqâl
Miel blanc écumé	160 dirhams

Piler séparément puis tamiser. Bien malaxer avec le miel.

Mettre dans un pot aux parois lisses, bien fermer; enfouir dans de l'orge durant quatre mois, puis utiliser.

La dose est de 2 mithqâls avec un vin parfumé coupé d'eau fraîche. Prolonger le traitement.

---

(1) Connue depuis l'Antiquité pour ses vertus antidépressives.

Efficace dans la mélancolie débutante et dans la maladie des femmes appelée suffocation de l'utérus[1], quand elle s'accompagne de palpitations et de tremblements sévères.

Poudres à bas prix, contre les palpitations et la mélancolie.

Myrobolan indien .... 2 ouqiehs

Bois d'aloès	ā.ā. 2 dirhams
Gomme mastic	
Serpolet	
Pouliot	
Graines de myrte	
Ambre jaune	
Corail calciné	

Musc .... 1 danîq

Pulvériser, mélanger avec l'équivalent du poids de sucre brut, conserver.

Posologie : la dose est en cas de besoin de 3 à 4 mithqâls, à prendre avec de l'eau fraîche. Pris assidûment, cette poudre aspire totalement l'humeur noire surtout lorsqu'elle se condense au fond de l'estomac.

Régime alimentaire modéré, plaise à Dieu !

---

(1) Suffocation de la matrice : Platon *Timée* 91c (10) : « Chez les femmes, ce qu'on appelle la « matrice » ou « l'utérus », et qui est un être vivant possédé du désir de faire des enfants, est demeuré stérile longtemps après avoir dépassé l'âge propice ; alors cet organe s'impatiente, il supporte mal cet état, et, parce qu'il se met à errer de par tout le corps, qu'il obstrue les orifices par où sort l'air inspiré et qu'il empêche la respiration, il jette le corps dans les pires extrémités et provoque d'autres maladies de toutes sortes. ». Pour Galien, c'est l'excitation de cet organe par la rétention de la matière séminale qui provoque les convulsions. Aétius d'Amide (V[ème] siècle) et Paul d'Egine (VII[ème] siècle), pensent que les crises sont dues à des vapeurs subtiles parties de l'utérus et gagnant le cerveau. Nous pensons que ce terme désigne la pathologie actuellement connue sous le nom d'hystérie.

Description d'une hiera que nous avons composée pour le type hypocondriaque de la mélancolie.

Elle purge l'estomac des mélancoliques des résidus d'aliments et de boissons qui s'y forment quotidiennement, ainsi que la bile noire qui s'y déverse. Elle assouplit leurs ventres desséchés et dissout les ventosités qui distendent leurs ventres et leurs flancs. Prendre :

Ingrédient	Quantité
Menthe aquatique	ā.ā. 10 dirhams
Pouliot des montagnes	
Thym	
Lavande stœchas	
Agaric	
Cinnamone	ā.ā. 5 dirhams
Nard indien	
Bois de baumier	
Grains de baumier	
Écorce de cannelle casse	
Gomme mastic	
Schœnante	
Asaret	
Germandrée	
Ivette	
Aloès socotrin	ā.ā. 45 dirhams
Myrrhe rouge du Yémen préalablement lavée à l'eau d'aromates	
Pulpe de coloquinte	15 dirhams

Réduire le tout en poudre, tamiser, puis conserver lorsqu'il est bien pulvérisé.

Posologie :

La dose est identique à celle de l'hiera picra, mais cette préparation est meilleure, plus purgative et plus délicate.

A prendre avec du miel et de l'eau chaude à jeun. Son effet laxatif commence entre la quatrième et la septième prise. Si on prend la moitié de la dose, c'est-à-dire 2 mithqâls, cela assouplit sensiblement le ventre et élimine les excréments et les résidus avec modération.

Autre hiera picra aux effets analogues à la précédente.

Débarrasse l'estomac et le corps de la bile noire et des ventosités excessives qui distendent les hypocondres.

Prendre :

Semences de baumier	ā.ā. 5 dirhams
Bois de baumier	
Écorce de cannelle	
Nard indien	
Valériane	
Aneth	
Menthe aquatique	
Schœnante	
Cannelle de Malabar	
Pouliot des montagnes	
Séséli	
Thym	
Lavande stœchas	
Absinthe grecque	

Ajouter pour le poids de tous les médicaments :

Aloès rouge lavé	ā.ā. 140 dirhams
Myrobolan indien	

Réduire en poudre, passer au crible chacun de ces composants séparément, puis mélanger le tout et conserver en état de poudre.

Mettre dans une terrine, en s'assurant de l'avoir bien fermée.

Posologie : 2 à 3 mithqâls à prendre avec une infusion de pouliot et de miel. On prépare cette dernière en prenant 1 ratl de

miel auquel on rajoute sept fois son volume d'eau et 10 dirhams de menthe aquatique. Cuire à feu doux jusqu'à réduction de moitié puis descendre. La dose de cette infusion est d'un demi-ratl.

La prise de ces hieras sera préférable et plus efficace au printemps qu'aux autres saisons ; et si on cherche l'effet des hieras suprêmes, il conviendra alors d'y ajouter :

Ellébore noir..	ā.ā. 20 dirhams
Ellébore blanc	
Polypode	
Scammonée	

Épithym ....40 dirhams

Pulvériser, passer au crible, mélanger avec les médicaments déjà cités ; ajouter 800 dirhams de miel écumé, conserver dans de l'orge durant six mois, avant de consommer.

La dose en est de 4 mithqâls.

Cette préparation est, selon mon avis, meilleure que la hiera de Logadius, que la hiera d'Archigène et que celle de Théodoros[1].

Il conviendra de prendre ces hieras avec 2 danîqs de sel de bitume dissous dans l'eau qui accompagne ces grands purgatifs et que nous venons de décrire. Plaise à Dieu !

Poudre aux effets similaires à la hiera picra dans l'épuration du mélange pernicieux qui s'accumule dans l'estomac.

Elle a en plus une capacité laxative de la bile noire et est utile dans la forme hypocondriaque avec ventosités.

Mélanger :

- 30 dirhams de la hiera composée selon la formule de Galien, précédemment décrite dans notre livre,
- 30 dirhams d'épithym pilé, pulvérisé, passé au tamis de soie et lavé dans de l'eau de violettes. Cette infusion est obtenue

(1) La traduction de la transcription arabe التيادريطوس n'est pas certaine.

en macérant des violettes dans une eau chaude un jour et une nuit durant. On extrait l'épithym et on le laisse décanter trois jours et trois nuits afin qu'il gagne en mollesse et que son astringence soit brisée,

- 5 dirhams de roses rouges.

Posologie : la dose est de 2 à 3 mithqâls, à prendre avec du rob de raisin auquel on ajoutera de l'eau de pouliot préparée avec des poivres longs, soit la quantité nécessaire pour diluer le rob afin qu'il ne stagne pas dans l'estomac et qu'il n'en émane pas des vapeurs.

Recette d'un composé laxatif de l'atrabile, à base de myrobolan indien ou de Kaboul.

Prendre 1 ratl de myrobolan indien ou de Kaboul, préalablement pulvérisé et dénoyauté ; y verser 3 ratls de lait d'ânesse chaud. Piler, dans un endroit frais, sur une pierre plate jusqu'à élimination du lait et assèchement du myrobolan. Conserver.

Posologie : la dose à prendre est de 5 à 7 dirhams avec un poids égal de sucre pénide blanc, à boire le matin avec un rob de raisin fin et muscat.

Prise sept jours de suite, cette poudre guérit de façon satisfaisante.

Préparation à administrer par le bas, qui purge le ventre de ses superfluités et des biles noire et jaune.

Elle est efficace dans toutes les formes de mélancolie et particulièrement dans le mal hypocondriaque, en raison de la prédominance de la sécheresse et des douleurs qui le caractérisent. Elle guérira, s'il plaît à Dieu !

Prendre :

Ingrédient	Quantité
Résine de térébinthe	ā.ā. 10 dirhams
Miel	
Centaurée	
Pomme de pin	

Mélanger le tout sur le feu dans une coquille ou dans une marmite en cuivre jusqu'à ce qu'il devienne consistant comme du *natef* ; descendre et y ajouter :

Ellébore noir pulvérisé, tamisé	7 dirhams
Pulpe de coloquinte	2 dirhams
Scammonée Nitre rouge	ā.ā. 5 dirhams

Mélanger soigneusement le tout dans un mortier, en faire des suppositoires en forme de gland fin. Mettre à sécher dans un endroit aéré pour qu'il ne coule pas.

Posologie : prendre un suppositoire après le repas ; s'il purge fortement, on s'en contentera, sinon on reprendra un deuxième.

Toutefois, ces suppositoires seront contre-indiqués en cas d'irritation du derrière, d'hémorroïdes ou de fissure anale. Ils seront réservés aux personnes dont le siège est sain.

Ils guériront, s'il plaît à Dieu !

Formule d'une autre variété de suppositoires aux effets comparables, qui expulsent les fèces et la bile noire par voie basse et aident à dissoudre les ventosités chez les hypocondriaques

Prendre :

Sucre Sagapenum Lyciet Résine de térébinthe	ā.ā. 5 dirhams

Faire épaissir le tout sur le feu, comme le précédent jusqu'à ce qu'il devienne comme du *natef*, descendre et mettre dans un mortier.

Saupoudrer de :

Ellébore pulvérisé Borax pulvérisé	ā.ā. 5 dirhams

En faire des suppositoires en forme de gland, enduire les doigts d'huile de sésame au moment de sa préparation. Laisser sécher dans un endroit aéré, à l'ombre.

A administrer par voie basse après le repas, après avoir essuyé l'anus avec de l'huile de sésame.

Ils guériront, s'il plaît à Dieu !

Description de suppositoires du même type, qui sont efficaces dans l'hypocondrie et qui purgent les fèces et la bile noire.

Prendre :

Résine de térébinthe .... 10 dirhams

Sucre .... 5 dirhams

Epaissir sur le feu jusqu'à ce qu'il devienne consistant et dense, descendre et saupoudrer de :

Epithym pulvérisé .... 3 dirhams

Pulpe de coloquinte .... 2 dirhams

Borax .... } ā.ā. 1 dirham
Scammonée .... }

Mélanger délicatement le tout dans un mortier, enduire les doigts d'huile de sésame et en faire des suppositoires en forme de gland, faire sécher à l'ombre.

A administrer après le repas, par voie basse après avoir préalablement enduit la marge anale d'huile de sésame. Si un seul suppositoire ne suffit pas à produire l'effet escompté, on aura alors recours à un deuxième ; s'il plaît à Dieu.

Recette d'un autre suppositoire :

Prendre :

Lyciet .... } ā.ā. 5 dirhams
Sucre pénide .... }

Bdellium .... 3 dirhams

Mélanger le tout sur le feu, retirer, mettre dans un mortier, saupoudrer de :

Ingrédient	Quantité
Scammonée pulvérisée	2 dirhams
Ellébore noir	3 dirhams
Pulpe de coloquinte	ā.ā. 1 dirham
Borax	

Enduire les doigts d'huile de sésame, faire des suppositoires en forme de gland, laisser sécher à l'ombre.

A administrer après le repas, par voie basse, après avoir préalablement enduit la marge anale d'huile de sésame; s'il plaît à Dieu.

Formule de suppositoires qui expulsent les fèces et la bile noire et qui aident à dissoudre les ventosités chez les hypocondriaques.

Prendre :

Ingrédient	Quantité
Encens	ā.ā. 3 dirhams
Férule	
Gomme d'opopanax	
Amande	
Pois chiche	
Centaurée	
Miel	
Styrax	
Borax	
Scammonée	
Pulpe de coloquinte	ā.ā. 4 dirhams
Ellébore noir	

Dissoudre toutes ces résines sur le feu jusqu'à obtention d'une consistance de *natef*, triturer l'ensemble puis le passer au tamis ; verser dans un mortier.

Enduire les doigts d'huile de sésame, faire des suppositoires en forme de gland ; laisser sécher à l'ombre.

A administrer après le repas, par voie basse, après avoir préalablement enduit la marge anale d'huile de sésame. Si un seul

suppositoire ne suffit pas à produire l'effet escompté, on aura alors recours à un deuxième; s'il plaît à Dieu.

Ishâq dit :

Ai-je vraiment besoin de m'étaler sur ce sujet et de le détailler, sachant que de telles compositions pourraient se décliner à l'infini surtout quand le préparateur est habile et versé dans la connaissance de l'action du médicament, forte ou faible, échauffante ou rafraîchissante et dans la connaissance de sa force prédominante, est-elle comprise plus dans les fortes doses que dans les faibles ou autant dans les fortes que dans les faibles ?

Il est clair qu'une bonne connaissance de la pharmacopée est indispensable en médecine et je me serais volontiers étendu sur ce sujet, si je ne risquais pas d'allonger ce livre et de le faire sortir de son objectif. Pour cette raison, j'ai préféré me limiter et n'y inclure qu'un discours significatif, remarquable et complet.

Il existe dans notre description des médicaments composés des indices et une méthode claire pour s'étendre dans leur préparation. Et si nous avons décrit les éléments qui entrent dans la composition de ces suppositoires, c'est pour faciliter leur préparation à quiconque est pourvu d'une compétence dans ce domaine. Ces médicaments seront d'une grande sécurité, une fois composés selon les règles de l'art et utilisés selon les principes rationnels de notre pratique.

Parmi les produits manifestement laxatifs qui mobilisent la capacité évacuative et l'obligent à rejeter ce qu'elle recèle, on compte le *natef* au borax. Le lyciet, à lui seul, lorsqu'il est chauffé et confectionné en suppositoires, expurge les fèces des intestins ; il est d'une plus grande efficacité chez les enfants.

Le sagapenum pris seul, a un effet similaire, de même que la résine de pin. Rufus a écrit dans son livre *Liber ad vulgus*[1] que lorsqu'on en prend quotidiennement de la taille d'une noix, il assouplit le ventre et que si on le mélange à du borax, il assouplit encore plus, et il n'a rien ajouté à ce sujet. Toutefois, on peut en

(1) Il s'agit d'un livre perdu de Rufus qu'on pourrait traduire par *Médecine des pauvres*.

déduire que ce médicament peut être administré par les deux voies, c'est-à-dire bu et pris par voie rectale. Le prendre en suppositoire est pareil que de le boire, mais c'est meilleur pour le traitement vu la nocivité et le désagrément causés par ce composé. Nous avons d'ailleurs expérimenté les deux voies et trouvé que la voie basse est plus laxative que la voie haute.

Si on ajoute à la résine de pin de la pulpe de coloquinte, elle purgera largement les résidus. Si on l'additionne d'ellébore noir et qu'on en fait des suppositoires, on purgera la bile noire.

Par contre, l'encens, le bdellium, l'opopanax et la férule ne possèdent qu'une faible force laxative sans compter d'autres inconvénients mineurs. Je suis d'avis qu'on leur rajoute des substances astringentes et drastiques, tels la pulpe de coloquinte, la scammonée, les ellébores noir et blanc, l'euphorbe[1] et autres produits similaires.

Puisque notre objectif dans ce livre est le traitement de la bile noire chez les personnes tombées en mélancolie, nous emploierons des produits comme l'ellébore et l'épithym qui tendent à chasser la bile noire, après leur avoir donné du piquant par le borax, la scammonée ou la coloquinte.

Les excréments d'animaux, lorsqu'on les lie avec certains médicaments visqueux et qu'on les administre en suppositoire par voie basse, se révèlent fortement laxatifs, en particulier les excréments du loup qui se nourrit dans la brousse, la fiente du pigeon sauvage qui consomme du carthame, les crottes de rat, la bouse d'ovins et de caprins qui est autant efficace en potion qu'en suppositoire. De même, le baume styrax et le fiel de vache rendus consistants avec un peu de miel et saupoudrés de borax, d'aloès et de sumac et pris en suppositoire assouplissent le ventre de manière louable. Que ce que nous avons détaillé et disposé dans ce livre puisse être suffisant. Dieu est le meilleur connaisseur !

(1) Euphorbe, encore appelée épurge. Les graines ont été utilisées comme purgatif, plutôt violent.

Décoctions à verser sur la tête des mélancoliques s'ils commencent à trop veiller, à vociférer et à bondir sur les gens.

Prendre :

Capsule de pavot	10 unités
Camomille	1 poignée
Mélilot	ā.ā. 5 dirhams
Roses rouges	ā.ā. 5 dirhams
Guimauve serrée dans un tissu	ā.ā. 5 dirhams
Feuilles de violette sèches	ā.ā. 5 dirhams
Nénuphar (si disponible)	10 dirhams
Orge concassée	20 dirhams
Psyllium	7 dirhams

Réunir le tout, le faire cuire dans 20 dirhams d'eau douce jusqu'à réduction de moitié, tamiser et mettre dans une aiguière à col verseur étroit.

Raser la tête du malade puis verser le liquide sur la fontanelle, doucement et très lentement, tant qu'il est tiède et consistant. Après cette décoction, si le besoin persiste, on pourra aussi utiliser du lait de femme, d'ânesse ou de brebis chaud, qui vient d'être trait. Il est ainsi plus actif et plus efficace grâce à son humidité, sa primeur et à son humeur tempérée.

Galien avait dit que l'humeur du lait était naturellement située entre celle du sang, qui est modérée, et celle du flegme, qui est le plus froid des chymes et le plus humide.

Le déversement sur la tête, juste sur la fontanelle, d'eau chaude ou de lait chaud dès sa sortie du pis, incorporés à de l'huile de violette, de nénuphar et de graines de courge douce a une action rafraîchissante sur le cerveau et est efficace dans la mélancolie et dans les phrenitis sévères. Les sternutatoires à base des huiles que

nous venons de citer, ainsi que ceux à base de lait de nourrices fébriles[1] ont le même effet.

Les Anciens ont décrit des liniments à appliquer sur l'ombilic, sur la région du cardia et sur l'endroit du dos appelé *maalaka*[2], qui purgent fortement et font vomir violemment. Nous avons délibérément omis de les citer, à cause des dangers qu'ils comportent. Ces médicaments qui comportent des latex, de la pulpe de coloquinte, de l'euphorbe, des dérivés d'épurge tels le mézéréon, le bois et le suc d'épurge, du jus de concombre d'âne[3] appelé *ouzama*, tous ces produits sont purgatifs, grâce à leur capacité d'expulsion de la bile jaune. Ils expulsent les humidités et altèrent l'humeur du ventre à cause de leur humeur chaude et toxique, alors que les mélancoliques devraient être, de tous les êtres, ceux qui ont le moins besoin de perdre leur humidité et de rajouter à leur sécheresse. Il est donc évident que si on évite ce genre de traitement chez les mélancoliques, c'est que cette attitude est justifiée. Plaise à Dieu !

Recette d'une huile à administrer en lavement, bénéfique pour les mélancoliques hypocondriaques.

Elle purge et dissous les ventosités qui tonnent dans leurs ventres et distendent leurs flancs. Elle expulse aussi la bile noire.

Prendre :

Ellébore noir	ā.ā. 1 ratl
Pulpe de coloquinte..............................	
Epithym..	
Sagapenum..	

(1) Il semble, que jadis, on attribuait des vertus curatives au lait de nourrices légèrement fébriles.

(2) Terme non identifiable en arabe mais qui semble correspondre à la région du dos située entre les épaules et que les Grecs appellaient *métaphrène*.

(3) Le concombre d'âne conserve encore de nombreuses indications médicales, notamment pour les colopathies.

Tribule[1]	¾ ratl
Centaurée fine	¾ ratl
Semences de ricin décortiquées	½ ratl

Cuire le tout dans une marmite en terre avec 30 ratls d'eau des sources jusqu'à réduction au tiers, descendre et laisser reposer le reste de la journée et une nuit entière. Le lendemain matin, remettre sur le feu jusqu'à ce que les composants s'amincissent et deviennent plus faciles à filtrer. Tamiser puis isoler le filtrat.

Reprendre l'opération avec les mêmes proportions de médicaments, les cuire dans 20 ratls d'eau des sources jusqu'à réduction au quart, filtrer et ajouter ce quart, qui fait 5 ratls aux 10 déjà isolés. Mettre le tout dans une marmite, l'additionner de 5 ratls d'huile de sésame frais. Cuire à petit feu de braise jusqu'à ce que l'eau s'évapore et que subsiste l'huile.

Posologie : faire des lavements composés d'un demi-ratl d'huile tiède et d'une émulsion d'un demi-ratl d'eau chaude avec 1 ouqieh de *murri* de faible salinité, à prendre après le repas. Plaise à Dieu !

Peuvent boire de cette huile les gens souffrant de coliques chroniques d'origine froide, les flegmatiques et les mélancoliques qui sont gros et lourds ; elle leur sera très bénéfique. La dose en est de 2 mithqâls avec une eau chaude, s'il plaît à Dieu !

Recette d'une huile plus délicate que la précédente, qui assouplit le ventre des mélancoliques hypocondriaques et leur est bienfaisante.

Prendre :

Pulpe de coloquinte	ā.ā. ½ ratl
Ellébore noir	
Centaurée	

(1) Indigène en Méditerranée, le tribule a longtemps été considéré comme une mauvaise herbe. Depuis les années 80, on attribue à ses fruits un effet favorable sur les performances sportives et la libido.

Cuire le tout dans 15 ratls d'eau douce jusqu'à réduction à 5 ratls, malaxer, tamiser, jeter les médicaments puis remettre sur le feu ; y verser 2 ratls d'huile de sésame frais.

En été, si le malade est d'un tempérament chaud, on le frictionnera d'huile de violette. Si le malade est d'un tempérament froid, que les ventosités sont considérables, et qu'on est en hiver, dans un pays froid, on utilisera de l'huile de ricin.

Cuire le tout à petit feu jusqu'à ce que le liquide s'évapore et que subsiste l'huile. Descendre, filtrer et mettre dans un récipient.

Posologie : faire au besoin, des lavements de 5 ouqichs mélangés d'une émulsion d'un demi-ratl d'eau chaude avec 1 ouqieh de *murri* de faible salinité.

On peut aussi prescrire cette huile contre les coliques à la dose de 2 mithqâls avec une hiera picra et une décoction de racines, elle leur sera bénéfique.

Ishâq dit :

Ces deux huiles que je viens de citer peuvent être prises en lavement, en plein hiver, au coucher et ce durant 7, 10 ou 14 nuits consécutives. On mélangera ⅓ de ratl d'huile avec une écuelle d'herbes et de semences piquantes qui ont du mordant, qui vont dégager l'obstruction et dissoudre les résidus. Elles sont très bénéfiques pour les mélancoliques hypocondriaques.

On peut aussi mélanger ¼ de ratl de cette huile avec des huiles dont les meilleures sont celles que je citerai plus bas : on en prendra le soir une écuelle. Elles seront bénéfiques, grâce à Dieu, dans le mal de hanche, la sciatique, les arthroses, les paralysies, les coliques chroniques, les hémiplégies, la léthargie, les paresthésies, toutes les atteintes des membres et les affections flegmatiques. On aura préalablement pris, durant le jour, une émulsion tiède d'un demi-ratl d'eau des médicaments entrant dans la composition du grand lavement, à savoir les gommes résines, les semences et les herbes additionnées de pulpe de coloquinte, de *murri* et de miel. Nous ne pouvons pas en détailler la formule dans notre livre, en raison de sa longueur.

Les huiles à utiliser sont les suivantes : huile de carthame, huile de lin, huile d'olive chaude, huile de radis, huile de concombre sauvage, huile de narcisse, huile d'iris, huile de lis, huile de sésame, huile de costus blanc, huile de camomille, huile de valériane, huile d'aneth, huile de noix, huile de moutarde, huile de nard indien, huile de costus noir, huile d'amande, huile de pistache térébinthe, huile de bois de sapan, huile de pistache, huile de ricin, huile de chanvre indien, huile d'ortie et toute autre huile semblable comme celle de coloquinte ou celle d'euphorbe et toutes les huiles qui entrent dans la composition de ces lavements.

Ce remède peut être aussi administré en boisson, dans les affections flegmatiques froides, durant une période de 7 ou 14 nuits, s'il plaît à Dieu.

Il se trouve que certains médecins prescrivent, dans les mélancolies secondaires à des maux de tête, des inhalations chaudes et sternutatoires qui améliorent les malades malgré le caractère médiocre et nocif de ces mélanges. Je ne vois pas d'autre explication à cela à part le fait que la maladie soit ancienne et que l'esprit psychique est altéré depuis une longue date et très épaissi. Les ventricules cérébraux étant engorgés par le mélange noir, les inhalations vont pouvoir les déboucher grâce à leur astringence et leur capacité de désobstruction. Ce mélange va s'affiner et mûrir pour devenir plus délicat, se diluer et se purifier. Il se transformera ainsi en un mélange plus subtil et plus bénéfique.

Parmi les inhalations que nous trouvons utiles pour les mélancoliques : le lyciet mélangé à la saponaire ; la myrrhe mélangée à la saponaire ; la hiera picra mélangée à la saponaire et à du borax ; du castoréum mélangé à la saponaire ; un mélange de nigelle, de fiel de bœuf, de lyciet, de musc, de safran et de saponaire à raison de 2 danîqs de chaque ou un peu moins. On peut aussi y incorporer de la lavande stœchas et du castoréum.

Si on décide d'utiliser alternativement des hiera suprêmes ou des électuaires, en mélanger le poids d'un danîq et demi avec $^1/_8$ de dirham de saponaire, pétrir et dissoudre dans de l'eau de marjolaine puis inhaler. Ils guériront, s'il plaît à Dieu !

Recette d'une inhalation bénéfique pour les mélancoliques, les lépreux, les épileptiques, les personnes souffrant de vertiges et pour les migraineux chroniques.

Nous l'avons réservée à la fin de notre ouvrage, pour qu'elle serve d'exemple pour d'autres prescriptions.

Prendre :

Ingrédient	Quantité
Castoréum	1 dirham
Borax	ā.ā. ¼ ratl
Safran	
Musc de Chine	
Poivre long	
Lyciet	ā.ā. 1 dirham ½
Hiera picra	
Myrrhe du Yémen	
Saponaire	2 dirhams ¾

Pulvériser et tamiser séparément. Pétrir avec de l'eau d'ail et de l'eau de marjolaine; faire de grosses boules et laisser sécher.

Posologie : faire des inhalations de ¼ de dirham minimum et $^{3}/_{8}$ au maximum, dissous dans 2 dirhams d'eau de menthe pressée, de serpolet, de marjolaine ou de pouliot frais, bouilli et tamisé.

Si cette opération occasionne des brûlures intenses, inhaler immédiatement après 2 dirhams de lait de nourrice ou de l'huile de violette ou de nénuphar.

Poursuivre les inhalations durant 4 jours après avoir réalisé la purgation et après avoir nettoyé le corps des humeurs mauvaises.

Nous voilà donc parvenus à la fin de ce chapitre. Nous allons pouvoir clore ce livre en sachant que nous avons été trop prolixes, car même le miel perd de sa douceur lorsqu'on en abuse et lorsqu'on atteint son but. Plaise à Dieu !

Le traité de la mélancolie est terminé. Louanges à Dieu.

1. **Arétée (de Cappadoce),** Traité des signes, des causes et de la cure des maladies aigües et chroniques, Lagny, Paris 1834
2. **A.K. Bedevian,** Illustrated polyglotic dictionary of plants names, Imp. Argus and Papizian, Cairo 1936
3. **G. Bos** ; Ibn Al-Jazzar On Fortgetfulness And Its Treatment The Sir Henry Wellcome Asian Series. Volume I. 1995
4. **R. Burton**; The Anatomy of Melancholy. New York Review Books. 2001
5. **R. Burton,** Anatomie de la mélancolie. Traduction française sous la direction de Gisèle Venet. Folio classique. Gallimard. 2005
6. **Ch Daremberg. :** Œuvres anatomiques, physiologiques et médicales de Galien / vol. 2, 1856
7. **P. Delaveau.** *Histoire et renouveau des plantes médicinales.* Paris : Ed Albin Michel. 1982
8. **R. Dozy,** *Supplément aux dictionnaires arabes,* Edit. originale de 1881. Leyde : E.J Brill ; Beyrouth : Librairie du Liban. 1991. 2 tomes.
9. **Galien,** Des lieux affectés (Traduction par Ch. Daremberg), Baillière, Paris, 1856
10. **D. Gutas,** Pensée grecque, culture arabe, Aubier, Paris 2005
11. **Y. Hersant.** Hippocrate. Sur le rire et la folie. Rivages Poche. 1989
12. **Hippocrate** L'art de la médecine. G F Flammarion. 1999 J. Jouanna et C. Magdelaine.
13. **A. Issa,** Dictionnaire des noms de plantes, en latin, français,

anglais et arabe. Edition Dar al Raed al Arabi. 2e édition, Beyrouth 1981

14. **I Johnston** : Galen: On Disease and Symptoms. Cambridge University Press. 2006

15. **A. Kazirmiski**, *Dictionnaire arabe*, Paris : Maisonneuve et Cie. 1860. 2 vol, réédition Beyrouth : Librairie du Liban, 1981

16. **Klibansky, Panofsky & Saxl:** Saturne & la mélancolie. *nrf* 1985

17. **L. Leclerc**, Histoire de la médecine arabe, 2 Tomes, Leroux éditeur, Paris, 1876

18. **R. Le Coz,** Les chrétiens dans la médecine arabe, L'Harmattan, Paris 2006

19. **J. Pigeaud**; Aristote. L'homme de génie et la mélancolie. Editions Payot et Rivages. 2006

20. **J. Pigeaud** ; La maladie de l'âme. Les Belles Lettres 3e édition, Paris 2006

21. **Rufus d'Éphèse,** Œuvres, (Traduction par Ch. Daremberg et Ch. Ruelle) Paris 1879

22. **Rufus of Ephesus:** On Melancholy (ed. Pormann P. E). Mohr Siebeck 2008

23. **O. Powell**. Galen, On the Properties of Foodstuffs. Cambridge University Press. 2003

24. **J. Starobinski** ; Histoire du traitement de la mélancolie des origines à 1900. Geigy 1960

25. **H. Tellenbach,** La mélancolie. PUF 1979

26. **M. Ullmann,** La médecine islamique, PUF, Paris 1995

27. **P. Van Der Eijk** Medicine and Philosophy in Classical Antiquity. Cambridge University Press. 2005

Index général